

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

جامعة الحاج لخضر – باتنة

قسم التاريخ وعلوم الآثار

عنوان البحث :

علاقة فقهاء السنة بالدولة العباسية في عصرها الأول

132 هـ – 232 هـ / 750 م – 847 م

مشروع مذكرة بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إشراف الدكتور :

غازي جاسم الشمري

إعداد الطالب :

عبد الحميد العابد

السنة الجامعية 1429-1430 / 2008-2009

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

سورة الأنفال ، الآية 122

الإهداء

إلى روح والدي الطيبة ، أرجو أن يكون سعيدا في محل إقامته الدائمة
إلى الوالدة الكريمة
إلى كل من ساعدني و شد أزمي
إلى كل من يخوض معركته في الحياة بجسارة

شكر و امتنان

شكر و امتنان و تقدير أسوقه للمشرف الدكتور غازي جاسم الشمري نظير تبنيه للعمل و حماسته له و اعتراف بجميل مساندته و دقة قراءته للعمل و متابعتة له .

خطة البحث

	المقدمة
1	الفصل التمهيدي
2	العباسيون من الدعوة الى الدولة
3	من الدعوة الى الثورة
20	من الثورة الى الدولة
26	المعارضة السياسية للحكم العباسي في دوره الأول
29	الوجه الحضاري الدنيوي للحكم العباسي
40	أهل السنة و الجماعة : النشأة و التكوين الفقهاء
48	الفصل الأول : الطاعة اعتقادا و المفاصلة سلوكا
54	- توطئة
59	- أبو حنيفة
66	فقهه السياسي
70	- الأوزاعي
75	علاقته الفعلية بالدولة
78	- أحمد بن حنبل
79	فقهه السياسي
	علاقته الفعلية بالدولة
91	الفصل الثاني : الطاعة اعتقادا و المجاملة سلوكا
97	- توطئة
99	- مالك بن أنس
105	علاقته الفعلية بالدولة
110	- الليث بن سعد
117	علاقته بالدولة
120	- سفيان بن عيينة
125	علاقته بالدولة
	- الشافعي
	علاقته بالدولة
130	الفصل الثالث : الطاعة اعتقادا و المخاللة سلوكا
138	- توطئة
141	- شريك بن عبد الله النخعي
	علاقته بالدولة

148	- أبو يوسف القاضي
156	- أبو عبيد الله القاسم بن سلام
160	علاقته بالدولة
	الخاتمة
	الفهارس
	المصادر و المراجع

مقدمة

لقد اتخذ الكتاب والباحثون من عصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده نموذجاً في الحكم يدللون به على نظرية الإسلام في الدولة ، ومرجعاً يحتكمون إليه عند الوقوف على ما جرى في التاريخ الإسلامي القديم منه والحديث . وذلك يعود بالأساس إلى الصورة التي كانت عليها العلاقة بين السلطتين السياسية والدينية في تلك الحقبة من تاريخ الدولة الإسلامية . فمفهوم الخلافة بمعناه الإسلامي الصحيح لم يتحقق كاملاً ، بالنسبة إلى هؤلاء إلا في تلك الفترة التي لم تدم إلا مدة أربعين عاماً .

إن مفهوم الخلافة أو الإمامة عند المسلمين يقوم عموماً على أن مهمة الخليفة أو الإمام إنما هي السهر على تطبيق أحكام الشريعة ، وقد صدر هذا المفهوم من المبدأ الإسلامي الذي يرى أن الله لم يخلق الإنسان في الحياة الدنيا إلا ليعبده ، وليعمل الخير تحضيراً للحياة الآخرة . والوجود الدنيوي ليس إلا وجوداً مؤقتاً ؛ وذلك بحسب ما قدمه المسلم من أفعال خيرة أو شريرة في هذه الحياة . فالإسلام لا يفصل بين الحياتين ، وهو بذلك لا يفرق بين ما ينظم سلوك الإنسان فيهما معاً . فالدين ليس منفصلاً عن السياسة كما أن السياسة ليست منفصلة عن الأخلاق . ولهذا فإن وجود الخليفة ضروري لحماية الفرد المسلم و الجماعة المسلمة من الانحراف عن النهج القويم وضمان تطبيقها لقوانين الشريعة التي ما أنزلها الله إلا لتضمن له سعادة الدارين ، ولا سيما أن الله أعلم بالخير لعباده منهم لأنفسهم . ولكي يتمكن الخليفة من أداء مهمته على أتم وجه لا بد له من امتلاك سلطتين : الأولى علمية ؛ بحيث تجعله قادراً على فهم الشريعة وتفسير قوانينها والمشاركة في وضع تلك القوانين إذا اقتضى الأمر ، والثانية عملية تمكنه من تطبيقها والدفاع عنها في الواقع .

لم ينص النبي صلى الله عليه وسلم على من يخلفه بعد وفاته . هذا ما يذهب إليه أهل السنة الذين اعتقدوا نتيجة لذلك أن الخلافة إنما تقوم على الشورى و الاختيار الحر . على حين أن الشيعة مثلاً قالوا إن النبي قد أوصى قبل أن يتوفى للإمام علي بخلافته ؛ فهو إذن وريثه بوحى من السماء . ومن هنا ينبع الخلاف السياسي بين مفهومي أهل السنة والشيعة للخلافة . فمنصب الخلافة في نظر أهل السنة إنما هو نيابة عن الرسول في الجانب السياسي و الإداري وليس له من السلطة الدينية التشريعية ما يفوق سلطة أي مسلم مجتهد في

أحكام الدين . أما الإمام عند الشيعة فهو وريث النبي ، وهو معصوم ، وحكمه بذلك حكم ديني لا مجال للطعن فيه من قبل غيره .

ويؤكد ابن خلدون في مقدمته أنّ الخلافة لم توجد على الحقيقة إلا في زمن قصير جداً فهو بعد أن يستعرض الظروف السياسية منذ عهد النبي صلى الله عليه و سلم إلى عصره يقول: « ... فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك ، وأن الأمر كان في أوله خلافة ، ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين ، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة ... » ، ثم يضيف : « ... فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك ، وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ، ثم انقلبت عصبية وسيفاً ، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس ، إلى الرشيد وبعض ولده ... » . و يستمر قائلاً : « ... ثم ذهب معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكاً بحتاً ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ . وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ، ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس ، واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبية العرب . والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ، ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم ، وبقي الأمر ملكاً بحتاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق ، يدينون بطاعة الخليفة تبركاً ، والمُلكُ بجميع ألقابه ومناحيه لهم ، وليس للخليفة منه شيء ... »¹ .

عندما أسس النبي صلى الله عليه وسلم دولة المدينة ؛ فإنه بذلك أقام الدعائم الأولى للدولة الإسلامية التي ستصبح فيما بعد مثلاً أعلى للعلاقة بين السلطتين الدينية والسياسية في الإسلام . لقد كان النبي في تلك الدولة يمثل هاتين السلطتين في وقت واحد . فقد كان المشرع نظراً لأنه كان محط الوحي النازل من الله عز وجل عن طريق جبريل ، وهو الذي كان يفسر هذا الوحي للمسلمين عن طريق أقواله وأفعاله مما عرف فيما بعد باسم السنة النبوية الشريفة . وقد كانت هذه السلطة الدينية تجد عند المسلمين استجابة مطلقة تعتمد على إيمانهم بنبوة الرسول . وهو إيمان جعلهم يخضعون لما تصدره تلك السلطة من تعاليم وأوامر ونواه ، خضوعاً يقوم على الرضا والقناعة وليس على الإكراه والقسر . كما كانوا

¹ ابن خلدون : المقدمة ، ط 1 ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 2004 ، ص ص : 221 – 222

يلتزمون بتنفيذ تلك الأوامر والنواهي في حياتهم اليومية. فالعلاقة بين المسلمين والنبي صلى الله عليه وسلم تمثل تلك السلطة كانت علاقة انتماء عفوي ، وخضوع إرادي إضافة إلى ذلك فقد كان النبي يمثل السلطة السياسية أيضاً ؛ بما كان يقوم به من سهر على تطبيق مقتضيات السلطة الدينية و ما تصدره من قوانين تشريعية كما يحرص على حمايتها وحماية الجماعة الإسلامية ضد الأخطار الخارجية المتمثلة بالمشركين ، والداخلية المتمثلة بالمنافقين .

وقد استطاع الخلفاء الراشدون الجمع بين السلطتين ليحققوا مفهوم الخلافة بمعناه الكامل كما يراه أهل السنة . فقد كان هؤلاء يملكون السلطة الدينية ولكن ليس بالمفهوم الشيعي بمعنى قدرتهم على التشريع كما كان النبي يفعل ، و إنما كانت سلطتهم تلك تنحصر في تفسير قواعد الشرع الذي نص عليها القرآن والسنة النبوية ، وفي توضيح بعض جوانبها التطبيقية على حوادث جددت في عصرهم ، لم يعرفها عصر النبي . ولذا فإن المسلمين يعتبرون أقوال الخلفاء الراشدين وأفعالهم في هذا المجال ، مصدراً من مصادر التشريع يأتي بعد النص القرآني والسنة النبوية . أما الشيعة فقد كانوا يشكون في صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وذلك لأنهم اغتصبوا حق الخلافة من الإمام علي الذي هو أحق بها بمقتضى النص و التعيين حيث يؤكدون على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نبه إلى حق الإمام في خلافته في أكثر من مناسبة وأشهرها خطبته في غدير خم .

وعلى الرغم من أن الإحداث التاريخية حسمت أمر الخلافة لمصلحة الأمويين على حساب الإمام علي و آل البيت ، و جاءت بهم إلى كرسي الخلافة بعد استشهاده ، فإنهم لم يستطيعوا الحصول على الشرعية الدينية لنظام حكمهم الوراثي ، ومع ذلك فقد حرصوا على حمل لقب خليفة . وقد نوزعوا السلطتين : الدينية والسياسية معاً . وكان كل خصومهم السياسيين يعتبرونهم مغتصبين للخلافة ، لا حق لهم فيها. وظلت الثورات ضدهم مستمرة في العراق والحجاز طوال فترة حكمهم لم تهدأ ؛ سواء من الشيعة أو من غيرهم . وقد سعوا من جهتهم إلى فرض سلطتهم السياسية مستغلين في سبيل ذلك الدين والقوة معاً . فالأمويون لم يكونوا خلفاء بالمفهوم السني ولا بالمفهوم الشيعي للإمامة وإنما كان نظام حكمهم وراثياً يقوم على امتلاك السلطة السياسية فحسب . أما السلطة الدينية فقد كانت في عصرهم معطلة بسبب من التنازع عليها . فهي لم تخلص لهم نهائياً ، كما أنها لم تكن بيد أحد من خصومهم السياسيين كالشيعة و الخوارج و القدرية وغيرهم بشكل كامل ، فقد كان هؤلاء الخصوم

أنفسهم يتنازعونها فيما بينهم . ولم تكن فئة الفقهاء والمحدثين وعلماء الدين قد تكونت بعد كفاءة مستقلة ، وهي الفئة التي ستضطلع فيما بعد بتمثيل السلطة الدينية – الثقافية. ومع ذلك فقد حرص الأمويون على الاستفادة من أولئك الذين شكلوا أوائل ممثلي تلك الفئة ، من الصحابة والتابعين ؛ في إطار محاولاتهم لتمكين لوجودهم السياسي . وأبرز تلك المحاولات هو تأييدهم للفئة التي كانت تعتنق أفكارا وصفت بالجبرية . والسبب في عدم وجود تلك الفئة وجوداً متميزاً يعود إلى طبيعة العصر نفسه ذلك أن الحياة الاجتماعية في العراق والشام في العصر الأموي لا تزال بسيطة ولا تختلف كثيراً في معظم نواحيها عما كانت عليه في صدر الإسلام . و لم تكن نتائج الامتزاج الثقافي الذي حصل بين العرب و الموالي اللذين حملوا تراث الأمم المفتوحة قد آتى أكله بعد . وهذا ما جعل القضايا الجديدة التي عرفها العصر قليلة جداً بالمقارنة مع العصور اللاحقة . ولم تتأسس بعد العلوم الدينية وما يخدمها من العلوم اللغوية و تنمايز و تتعقد كما حصل بعد ذلك ، وهذا ما منع من ظهور الفقه علماً متميزاً من سواه من العلوم . وقد ساعد على هذا أن المسلمين من العرب في ذلك العصر كانوا في معظمهم من جيل الصحابة وهم على معرفة بأمور دينهم وهو ما لم يتوفر لأحفادهم الذين كان عليهم الاستعانة برجال اختصوا في تفسير القرآن الكريم وفي إصدار فتاوى فقهية تسعى إلى إيجاد حلول لقضايا جديدة في ضوء الشريعة الإسلامية.

وعندما أفلح العباسيون في بلوغ كرسي الخلافة قاموا باستثمار الجهد الذي بذله الأمويون في تأسيس النظام السياسي الوراثي . وقد تمكنوا من خلال نظام دعايتهم المحكم أن يدخلوا في روع المسلمين ؛ ولا سيما الشيعة منهم أنهم جاؤوا ليعيدوا الحق إلى أهله و يستردون الخلافة من مغتصبها الأمويين إلى آل البيت . وقد ساعدهم هذا في حركتهم الانفلاية و تقويضهم للحكم الأموي ، ودعمهم في إضفاء الشرعية على حكمهم ، فبدوا وكأنهم يملكون السلطتين الدينية والسياسية . وقد اجتهد العباسيون الأوائل في محاولات الحصول على اعتراف الناس لهم بامتلاكهم السلطتين . فقد كان الخلفاء يسعون إلى إبراز مكانتهم الدينية باعتبارهم خلفاء النبي بما تحمله هذه الكلمة من دلالات دينية و دنيوية . إلا أنهم كالأمويين لم يفلحوا في امتلاك تلك السلطة كما كانت عند الخلفاء الراشدين . لأنهم أيضاً كالأمويين لم يستطيعوا أن يكونوا خلفاء بالمعنى الذي يتضمنه المفهوم السني للخلافة ولا بالمفهوم الشيعي للإمامة . فلم يكن حصولهم على منصب الخلافة شوري و انتخاباً حراً كما يشترط أهل السنة ، كما

أن النظام الوراثي الذي استسخوه عن الأمويين لم يكن ليتوافق مع التسلسل الوراثي الذي تدعو إليه النظرية الشيعية .

إذن فالخلافة وظيفة دينية تقتضيها العقيدة ، ويوصلها التشريع ، وتستمد وجودها من الدين الذي حذر على لسان نبيه المسلمين أن يبيتوا ليلة دون بيعة لخليفة . ولكن حدث أن انشغل الأمويون بالإدارة السياسية ، وتركوا أمور العقيدة والفقه إلى العلماء والفقهاء والقضاة وعمل العباسيون على ترسيخ الربط بين الجوانب الدينية والدينية وإضفاء القداسة على مفهوم الخلافة حرصاً على استمرار كيانهم الذي يستمد وجوده من خلال الدعم الديني الذي كانوا يقدمونه للفقهاء والقضاة . و بدا حرصهم في ممارسات كثيرة ؛ حيث كان أبو جعفر المنصور يقرب العلماء ويصلهم ، والمهدي يشتد في مطاردة الزنادقة وينشئ إدارة خاصة لهذه المهمة و قام الرشيد بإنشاء منصب قاضي القضاة و يتخذ من أبي يوسف القاضي مساعداً ، ويصدر المأمون قرارات بخصوص فرض عقيدة عرفت " بخلق القرآن "، ويقضي شطراً من خلافته في مناقشة العلماء ومتابعة من أنكرها ، وهكذا مما لا نجد له مثيلاً في العهد الأموي . وقد ساعد هذا كله على الحفاظ على قداسة مؤسسة الخلافة . وهو ما مكّن الخلفاء العباسيين من الاحتفاظ بهذا المنصب لمّا ضعفت سلطتهم السياسية وتقلص نفوذهم المادي . كما ساعد هذا أيضاً على الاحتفاظ بصورة الخلافة الدينية في وجدان الناس ؛ على الرغم من استغلال السلاطين والملوك لتلك الصورة ليحكموا من ورائها .

إن تناول علاقة الفقهاء بالدولة في سياق التاريخ الإسلامي في أي عصر من عصره هو وجه من أهم وجوه دراسة علاقة الديني بالسياسي في هذا التاريخ ذاته . بما كون الفقهاء فئة مهمتها القول بلسان الدين في الأمور الفردية و الجماعية التي تنظم حياة الأمة المسلمة و بما الدولة كجهاز إداري و سياسي وظيفته تطبيق تعاليم هذا الدين في هذه الأمة . و لما كان الأمر كذلك فقد ارتأيت دراسة هذا التفاعل بين الديني و السياسي في هذا التاريخ من خلال فقهاء أهل السنة و الجماعة و الدولة العباسية في صدرها الأول ومراقبة طبيعة العلاقة بينهما ، وذلك من خلال محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية :

— ما هو مضمون النظرية السنية في مسألة الخلافة ؟

— إلى أي حد تمكنت الدولة العباسية من الوفاء بالشروط التي وضعها أهل السنة لتحقيق شرعية أي حكم .

— ما هي طبيعة العلاقة بين الفقهاء السنة و الدولة العباسية .

وقد تعمدت حصر حركة البحث في الصدر الأول للدولة العباسية ، لأنه عصر التأسيس والتمكين لهذه الدولة ؛ حيث إمكانية تتبع ردود فعل الفقهاء تجاهها في لحظة نشوئها ، وهو عصر قوتها أيضا ؛ الذي شهد حكم أهم رجالها و أقدرهم ، ثم هو العصر الذي شهد أهم عملية تدوين للتراث الإسلامي في جميع علومه و أهم حركة للترجمة و التعرف على ميراث الأمم الأخرى ، وكان العصر الذي تمت فيه بلورة جميع التيارات التي عرفها تاريخ الإسلام الثقافي و السياسي و العقائدي .

وقد اتجهت لهذا النوع من البحوث و الانشغالات التاريخية ؛ تلبية لرغبة شخصية في كشف جذور التفصل الديني و السياسي الذي طبع التاريخ الإسلامي ، ثم لقناعاتي بأننا لانزال نعيش آثار الماضي رغم القرون المتطاولة الني فصلتنا عنه ، لأنه العصر الذي صنع مخيالنا الثقافي و ما يعيش في هذا المخيال ، و لا تزال كثير من الحركات السياسية و الثقافية و الاجتماعية تستمد برامجها و مطالبها منه ، و لا تزال في سعيها لنهضة حديثة مضطرين لمساءلة هذا التراث و إعادة النظر فيه بما يستجد في عصرنا . ثم إن هذا النوع من البحوث يخدم التاريخ الإسلامي كتخصص علمي لأنه يكشف عن مساحات لا تزال تحتاج لكثير من الجهد و التقدير حتى تكون رؤيتنا لتاريخنا أكثر علمية و موضوعية .

هذا و قد حاولت في ولوج الدروب الوعرة لهذا البحث التمكن من استثمار **المنهج التاريخي** الذي يحرص على سلامة و موضوعية بناء الأحداث التاريخية و استعادتها من جديد من خلال ركام الأخبار و الروايات ، و **المنهج المقارن** في المقارنة بين النماذج الشخصية و بين الأفعال و ردود الأفعال كما حدثت بين الفقهاء من أهل السنة و الدولة العباسية ؛ بين حكم خليفة و آخر ، كما لم أفوت نجاعة استخدام **المنهج الفيلولوجي** في ضبط بعض المفردات و تحقيق بعض العبارات و الصيغ اللغوية التي كانت تصدر من فقيه و آخر . و تم كل ذلك بواسطة الاستعانة بالعلوم الدينية التي لا مناص من أن يستند إليها البحث و هو يراقب مسلكية علماء دين بالأساس .

لقد حرصت على الاعتماد كليا على المصادر و مطالعة النصوص الأصلية في مضانها و العودة إلى المراجع استئناسا ، أو لأجل فهم ما يكون غامض في النصوص

، وذلك حرصا على سلامة الرؤيا و أصالتها و ابتعادا عن التوظيفات الإيديولوجية و حرصا على البقاء في أجواء العصر الإسلامي الوسيط ، مما يحقق اقترابا أفضل من الموضوع .

إننا لا نستطيع أن ندعي القدرة على إعادة بناء الماضي كما حدث بعد أن فصلتنا عنه كل تلك القرون الحافلة بالأحداث ، و ما حدث نحاول سبر حقيقته بواسطة الآثار و الأخبار المروية و المنقولة من طرف بشر ، و هي بذلك غير حيادية ، لأنها تعبر عن رؤى و أحكام و مصالح و انتماءات أصحابها من الرواة و الإخباريين ، و قبل ذلك و بعده تظل محكومة بالسقف المعرفي للعصر الوسيط و بالإمكانيات المحدودة للفحص المنهجي .

و قد جاءت المصادر التي اعتمدتها متنوعة و مختلفة التخصصات ، و ذلك راجع لخصوصية الموضوع ؛ حيث تتقاطع فيه علوم مختلفة ، و تشترك على أرضيته اختصاصات متعددة ، و هي كالتالي :

أمهات المصادر التاريخية :

كتاريخ الأمم و الملوك للطبري ، و الكامل لابن الأثير و العبر لابن خلدون و المروج للمسعودي و التاريخ لليعقوبي و التاريخ لخليفة بن الخياط و الأخبار الطوال للدينوري و الشذرات الحنبلي ، و هي تختلف من حيث وفرة التفاصيل و العمق ، مع ملاحظة أن كل من ابن خلدون و ابن الأثير و ابن كثير في البداية و النهاية يستعيدون في الغالب روايات الطبري و لا نكاد نجد تفاصيل تخرج عما ذكره ، خاصة في الفترة التي أرخ لها ، و التي يتحرك هذا البحث فيها . لكن كتاب الطبري لم يخدم هذا البحث كثيرا لأنه لم يعتن فيه بالتأريخ للشخصيات و للأفراد ، و ما يذكره أحيانا يأتي مختصرا ، و في هذه الناحية يأتي كتاب شذرات الذهب أكثر نفعا منه ، في حين يتطرق ابن الأثير لوفيات الأعلام من دون إيراد تفاصيل مهمة . ويأتي مروج المسعودي مختلفا كلياً في طبيعة الموضوعات التي يهتم بها و التي نستطيع وصفها بالطابع الحضاري أو الثقافي الأنثروبولوجي .

و قد اعتمدت اعتمادا كبيرا على كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، و هو خلاف ما قد يوحي عنوانه ؛ فهو موسوعة تناولت جل ما يخص بغداد و غير بغداد ؛ حيث توسع فيه الخطيب في أثناء عرض تراجمه بما يمكن أن نصفه بأنه تاريخ للدولة الإسلامية بعامه ، و هو سفر يحتاج لجملة من الأعمال حتى نتمكن من إحسان استغلاله ، إذ في ثنايا التراجم تقبع تفاصيل كثيرة و مثيرة تحتاج إعادة ترتيب و تبويب.

كتب الطبقات و التراجم و السير :

و هذه نصنفها إلى كتب عامة ؛ بمعنى أنها تهتم بالتأريخ للأعلام المسلمين من مختلف المشارب و المذاهب و المهن و الوظائف . و أهمها كتاب **سير أعلام النبلاء للذهبي** ؛ الحافل بالتفاصيل رغم ما يؤخذ عليه إغراقه في تحسس المسائل الاعتقائية للمترجم لهم و الدخول في معارك و مناقشات مكانها علوم العقيدة و التوحيد ، و انشغاله بتصنيف صاحب الترجمة من حيث اقترابه و ابتعاده عن السنة كما يعتقها الذهبي . حيث أن تراجمه تطول و تقصر تبعا لإعجابه أو نفوره من صاحب الترجمة . و قد استفدت منه الأخبار والنصوص التي توضح عقيدة من ترجمت لهم .

ثم يأتي كتاب : **وفيات الأعلام لابن خلكان** في الدرجة الثانية من حيث الأهمية ، و الذي يمتاز ، رغم إيجاز تراجمه ، بحاسة الحياد و الموسوعية لدى مؤلفه ، بحيث يبدو أكثر موضوعية ، كما نلاحظ غياب الهاجس العقيدي التصنيفي و الصراع المذهبي فيما كتب .

و ثمة الكتب المذهبية المتخصصة في التأريخ لأعلام مذهب بعينه ، و التي كتب بعضها في حمأة الصراع المذهبي ، و أهمها : **طبقات الشافعية للسبكي** و هو كتاب كبير حافل بالتفاصيل فيما يخص أعلام المذهب الشافعي ، و كتاب **الجواهر المضئية للقرشي** فيما يخص أعلام الحنفية ، و كتاب **طبقات الحنابلة لأبي يعلى** و هو يؤرخ لأعلام المذهب الحنبلي و ترتيب المدارك للقاضي عياض و **الديباج المذهب لابن فرحون** و هما يؤرخان لأعلام المذهب المالكي

و كل هذه الكتب صنفت بعد الاستقرار الجغرافي للمذاهب و لا تخلو من مبالغات ؛ خاصة عند الترجمة للمؤسس ؛ حيث كثيرا ما يجري الاستعانة بقصص و حكايات أقرب للأساطير ، و لا تخلو من وضع أحاديث ظاهرة الصنع ، تجعل من نبوغ الإمام المؤسس نبوءة تكلم عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم . أما كتاب **طبقات الفقهاء للشيرازي** فهو كتاب جامع ، أرخ فيه لجميع المذاهب لولا طابع الاختصار الشديد ؛ حيث استفدت منه في ضبط تواريخ الميلاد والوفاة للمترجم لهم .

و ثمة مصادر أخرى متخصصة في الترجمة للزهاد و العباد و المتصوفة ، و يأتي في مقدمتها كتاب **حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني** ؛ و الذي رغم طابعه المناقبي العامر بكثير من القصص الأسطورية إلا أنه حافل بتفاصيل متنوعة للمترجم لهم و جلهم من الفريق

المعارض للاقتراب من فلك الدولة تدينا و ورعا . و كتاب **صفة الصفة لابن الجوزي** صنفه مؤلفه على نهج حلية الأولياء ، بل يذكر أنه قصد فيه إلى إعادة ترتيبه و تنظيمه و تهذيبه ، فهو تابع له .

كذلك جرى الاعتماد على كتب الطبقات المتخصصة في التأريخ للحفاظ من الرواة والمحدثين ويؤخذ عليها الطابع المتخصص في الجرح و التعديل و النظر في حال الرواة من حيث الأمانة والحفظ . إضافة إلى الكتب التي تؤرخ لشخص واحد و هي كتب المناقب ك**مناقب أحمد لابن الجوزي و مناقب أبي حنيفة للكردي و مناقب الشافعي للبيهقي و ترتيب المدارك للقاضي عياض** ، و هي كلها عامرة بالأخبار و التفاصيل التي لا تخلو من تناقض و تضارب و قلة تحقيق و كأن مهمة مؤلفيها تنحصر في جمع أكبر عدد من الروايات فيما يخص صاحب الترجمة و إضفاء الطابع التقديسي له. وهذا دفعني للقيام بمجهود تحقيقي لانتقاء الروايات الأقرب للمنطق و التاريخ و روح العصر و المنحى الشخصي العام للمترجم له ، إضافة إلى المصادر الجغرافية كمعجم البلدان لياقوت الحموي وأثار البلاد للقرطبي . و لا يخلو كتاب ياقوت الحموي من فوائد تاريخية و تفاصيل لا توجد في كتب التاريخ العام .

كما اعتمدت على بعض الكتب المتخصصة في بحث العقائد و الفرق الكلامية ك**الفصل لابن حزم و الملل و النحل للشهرستاني و الفرق بين الفرق للبغدادى** ، و هي كلها تدور حول إثبات صوابية عقيدة أهل السنة والجماعة و ذلك من خلال منهجية علم الكلام و المناظرة ، كذا نوعية أخرى من المصنفات العقيدية كعقائد بعض الأئمة صنفوها بطلب من تلامذتهم أو غيرهم مثل : **العقيدة الطحاوية لأبي جعفر أحمد الطحاوي و قواعد العقائد للغزالي و العقيدة النسفية للنسفي** ، و نوع آخر من العقائد أهمها ما دونه تلامذة أحمد بن حنبل في تفصيل عقيدته باعتبارها هي العقيدة المعتمدة من طرف لفيف كبير من العلماء ؛ وهي تعتمد عرض العقائد استنادا للآثار و الأخبار و الأحاديث و الروايات المنقولة عن سلف الأمة ؛ بعيدا عن طريقة علماء الكلام التي تعتمد المقدمات العقلية ، إذ أن موقف أحمد بن حنبل من هذه الطريقة موقف حاسم و واضح في تبديع أصحابها . و من أهمها كتاب **السنة لعبد الله بن أحمد و السنة لأبي بكر الخلال** تلميذه ، كذا جرى الاعتماد على كتب

الأخلاق و التزكية كالزهد للبيهقي و شعب الإيمان له و كتاب الورع لأبي بكر الخلال ، وهي لا تخلو من تفاصيل و معلومات قيمة .

و لقد تعمدت الاستئناس بالمجاميع الأدبية رغم نقص الثقة في قيمتها التاريخية ، و صحة ما تورده ، لأنها في الغالب حصرها مؤلفوها في وظيفة الترويح عن النفس أو لغرض التربية دون حرص على التحقيق و الدقة ؛ مثل أدب الدين و الدنيا للماوردي و كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه و حقائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي و نثر الدر للآبي و غيرها .

و قد ارتأيت من أجل السيطرة على الموضوع و الإلمام به تقسيم الخطة إلى أربعة فصول حيث و ضعت

الفصل التمهيدي : و قد جرى فيه التطرق للوضع التاريخي للدولة العباسية في طورها الأول كما اصطلح عليه المؤرخون و هو عصر قوتها و شبابها و يبدأ من عصر السفاح و المنصور حتى عصر المتوكل الذي بمقتله أخذ منحى الدولة في الهبوط ، و أهمية هذا العرض تأتي من ضرورته كقاعدة تاريخية يتحرك في إطارها موضوع البحث ، و حيث أن بحث العلاقة بين فقهاء السنة و الدولة العباسية لا يمكن أن يتحقق دون عرض الظروف و الأحوال التاريخية التي وصل من خلالها العباسيون لكرسي الخلافة ، و كيفية تقدير الفقهاء و حكمهم عليها وفقا للمبادئ الشرعية ، و قد تعرضت فيه لمختلف اتجاهات المعارضة ؛ خاصة المسلحة ؛ سواء منها العربية أو الأعجمية لتبيان حدود الشرعية التي حاول العباسيون امتلاكها لحكمهم.

ثم عرجت على محاولة للتأصيل التاريخي لاتجاه أهل السنة و الجماعة ، منذ أحداث الفتنة بين علي و معاوية لأنها هي الأساس الذي انبثقت منه مختلف الاتجاهات الإسلامية التي اتخذت مسمى الفرق الكلامية كالشيعة و القدرية و المعتزلة و الخوارج و... و بيان أثر السياسة في نشأة هذه الفرق و التي تلمعت اللبوس الديني ، حيث كان العامل السياسي يجد ذاته في التعبير من خلال الصيغ الدينية ، و هذه إحدى بديهيات التاريخ الإسلامي . و قد تبين لي من خلال تحليل المضمون العقيدي لأهل السنة أن جميع الأطراف داخل هذا الاتجاه ؛ سواء أهل الرأي أو أهل الحديث ؛ تجتمع على الولاء للخليفة ؛ سواء وصل لكرسي

الخلافة من طريق الشورى أو طريق التغلب و القهر و قوة السلاح ، و تحرم أي صيغة للخروج أو التمرد عليه .

ثم عملت على التأصيل لفئة الفقهاء تاريخيا من خلال استعراض دور الأمصار في تكييف الفقه الإسلامي تبعا لخصوصية كل مصر و طبيعته و الظروف التي كانت تحكمه ، الأمر الذي أدى إلى إفراز وجهين للفقه ؛ وجه نقلي يعتمد الآثار و النصوص ، و وجه آخر يعتمد النظر العقلي ، و هو ما اصطلح عليه باتجاه أهل الرأي ، وقد دخل كلاهما في صراعات و مناوشات لا تخلو من اتهامات قاسية .

الفصل الأول: و قد عنونته بالطاعة اعتقادا و المفاصلة سلوكا ، و ذلك بناء على ما سبق ذكره من الإجماع الحاصل لدى أهل السنة في التحذير من الخروج عن الحاكم ، و من خلال استقرار النصوص و المواقف اتضح لي أن فريقا من الفقهاء رغم تمسكهم بشرعية الحكم العباسي القائم ألا أنهم سلكوا سبيل مقاطعته و هجره و التحذير من الاقتراب من أجواء السلطة و حاولت الكشف عن أسباب هذا الموقف الذي يبدو متناقضا . و تم ذلك من خلال :

توطئة : أردت فيها تأصيل معنى المجاملة تاريخيا وعرض مختلف الشخصيات التي اتخذت هذا النهج ، و استعرضت ما أمكن نماذج و أحداث توضح ملابسات هذا الموقف . و لما لم يكن من المستطاع تفصيل جميع ظروف هذه العلاقة فقد ارتأيت ذكر نماذج من هذه الشخصيات ، و تم الاختيار بناء على أهمية الشخصية العلمية و التاريخية ، و تمثيل جل الأمصار المهمة آنذاك كالبصرة و الكوفة و الشام و بغداد ، كذا تعمدت أن تكون الشخصيات المختارة تغطي جميع أطراف أهل السنة كأهل الحديث و أهل الرأي ، و وقع اختياري على الأعلام الذين تمكنوا من إنشاء مدارس فقهية و عقيدة داخل اتجاه أهل السنة و الجماعة ، و بذلك فقد اخترت كل من أبي حنيفة و الأوزاعي و أحمد بن حنبل ، و تعمدت إبراز المضامين العقيدية و السنية لهؤلاء لمترجم لهم و نوعية المشايخ الذين تلقوا عليهم العلم و آراء الأئمة فيهم و عرض التفاصيل التاريخية التي تبين مواقفهم من الدولة و رجالها .

الفصل الثاني : و قد عنونته بالطاعة اعتقادا و المجاملة سلوكا ، و بنيته على :

توطئة : حاولت فيها رفع معنى مفردة المجاملة من اللغة إلى التاريخ من خلال استعراض مختلف الشواهد التاريخية التي تظهر موقفا متماسكا لهذا الفريق من الفقهاء الذين

ارتأوا مسالمة الدولة و سلوك مواقف مجاملة مع الخلفاء و أعوانهم ، و قد حاولت الالتزام بما يؤديه الاستقرار الموضوعي و قمت بعمل مواصفات و محددات تضبط هذا الفريق و تبرزه كظاهرة قائمة متميزة ، بحيث يبدو الفرق جليا بين سلوك هذا الفريق و الفريق الذي امتنع عن أي صيغة لقاء بينه و بين الجهاز العباسي الحاكم . و أوضحت حدوث اعتراضات قام بها الفريق المفاصل في وجه هذا الفريق ، لم تخلو من قسوة في الحكم و من غمز في الدين . و قد اخترت كل من الليث بن سعد الفقيه المصري صاحب الإمام مالك ؛ نظرا لأهميته و علو كعبه في علوم الدين ؛ إضافة للجاء العريض الذي كان عليه بفضل ثرائه ، كما اخترت المحدث الكبير الفقيه سفيان بن عيينة عالم الحرم المكي ؛ نظرا لموقعه الممتاز داخل المنظومة السنية و نظرا لعلاقاته الواسعة و المهمة مع مختلف رجال أهل السنة و الجماعة ؛ بحيث كان صديقا لأهم رموز الفريق الذي التزم القطيعة والهجر مع رموز الدولة كسفيان الثوري و الفضيل بن عياض و عبد الله بن المبارك . كما اخترت الإمام الشافعي ؛ و هو من هو داخل المنظومة السنية ؛ من حيث أنه استطاع أن يلم في المنظومة الفقهية و الأصولية التي أنشأها كلا من الاتجاهين المتصارعين ؛ وهما أهل الرأي وأهل الحديث ، و من حيث تمكنه من تحصيل علم جميع أطراف أهل السنة ، كعلم أهل المدينة عبر الإمام مالك و علم أهل الكوفة من طريق محمد بن الحسن و علم أصحاب الحديث في بغداد ؛ من خلال صحبته مع أحمد بن حنبل ، ثم علم الليث بن سعد بمصر لما ارتحل إليها .

الفصل الثالث : و عنوانته **بالطاعة اعتقادا و المخاللة سلوكا** ، و قد أردت من خلاله إبراز الفريق من الفقهاء الذي دخل في علاقة ود و تعاون و عمل مع جهاز الدولة العباسية ، و لم يجد حرجا في الاضطلاع بمهمات كثيرة ؛ جلها يمس قطاع القضاء و بيت المال و الشرطة و غيرها من الوظائف و هي تدور في مجملها على حول خدمة الشأن العام ، من خلال تطبيق الشريعة على المتخصصين أو حراسة المال العام أو الأمن العام . و قد بنيته على :

توطئة : حاولت فيها التأصيل التاريخي لمعنى المخاللة من خلال استعراض للكيفيات التي تبلورت فيها هذه الصفة لدى الفريق من الفقهاء الذي دخل مع الدولة العباسية في علاقة عمل و مساهمة و صداقة مع الخلفاء و الولاة ، و أبرزت جميع الجوانب الايجابية و السلبية التي نتجت عن هذا الموقف ، حيث لم يكن جميع هؤلاء الفقهاء على ذات الشاكلة في مضمون هذه العلاقة اذ لم يعن قبولهم بالعمل لدى الدولة خضوعا و انقيادا كليا لأهواء الحكام و

رغباتهم ، إذ وقف بعضهم سدا منيعا في وجه أطماع بعض الحكام ، و أدى وظيفته بمقتضى الشريعة إحقاقا للحق و العدل ، و لم يتورط في إنتاج الفتاوى التي كان يرغب بعض الحكام في استصدارها منهم . لكن لم يكن جميعهم على هذا القدر من القوة والنزاهة ، و قد عرضت بعضا من المواقف التي بدا فيها بعض الفقهاء يمارس التزلف للخلفاء حرصا على بقاء مناصبهم أو استجداء لما في أيدي الخلفاء من أموال و أمتعة . و قد قمت باختيار كل من شريك بن عبد الله و أبي يوسف القاضي و أبي عبيد القاسم بن سلام ممثلين عن هذا الاتجاه ، حيث يمثل هذين الأخيرين أيضا كلا من أهل الرأي و أهل الحديث .

ثم أنهيت البحث بخاتمة حوصلت فيها النتائج التي أفرزها هذا المجهود الاستقرائي ، و أردفتها بفهارس و ضعتها للآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و الشعر و الأماكن و الفرق و المدارس الفقهية و الأعلام ثم قائمة بالمصادر و المراجع.

و لقد واجهتني في صياغة هذا البحث عدة صعوبات أهمها :

— دقة الموضوع و تشعبه الذي ألزمني بتوسيع قاعدة المصادر و المراجع ، و التدقيق في القراءة ، و محاولة العثور على المعلومة .

— البحث المضني لأجل العثور على المصادر المتنوعة و المختلفة الاختصاصات .

— صعوبة الاستقرار على خطة تكون جامعة و مانعة ومنطقية تفي الموضوع حقه و

تمكن

البحث من أداء مهمته و حل اشكاليته .

— اقتضتني محاولة إضفاء العقلنة على الروايات المختلفة و المتضاربة مجهودا فكريا لا

يخلو من محاولات تنظيرية محتشمة . مع ما في محاولة استنطاق النصوص من مزالق .

وفي الأخير لا يسعني إلا شكر كل من مد إلي يد العون في إتمام هذا العمل ؛ سواء كان

دعما ماديا أو معنويا . و الله ولي التوفيق .

الفصل التمهيدي

العباسيون : من الدعوة إلى الدولة :

لقد كان لعنت الذي تعرض له آل البيت و القسوة التي طالتهم على يد مناوئهم من بني أمية دور في التفاف فئات كبيرة من المسلمين حولهم ، و التعاطف مع قضيتهم .

وكانت التصفيات التي تقع على كاهل الطالبين تزيد الشيعة تماسكا و تؤجج فيهم نار كره الحكم الأموي ، و ترسخ فيهم ضرورة التحضير و الإعداد للوقت الذي تحين فيه الثورة الكبرى و الملحمة العظمى التي طالما تاقوا إليها و بشرت بها ملاحمهم وعلومهم السرية التي تناقلوها عن الأئمة² . وقد تحمل الشيعة " الكيسانية " عبء تنظيم الجهود و تبعات التحسيس بحق آل البيت و رفع وعي الناس لفهم القضية العلوية في خضم توافر الأجواء المناسبة³ ؛ إذ عملت السياسات الخاطئة و الحسابات قصيرة النظر لبعض الخلفاء إلى خلق فئات معادية تجتمع على هدف الإيقاع بالحكم الأموي و إسقاطه ؛ أهمها :

- 1 — الفئات الموالية للعلويين : وهم يشكلون رقما مهما و نسبة معتبرة من مجموع الأمة .
- 2 — الخوارج : وقد ظلوا يؤججون الثورات طيلة تاريخ الحكم الأموي .
- 3 — الموالي من عرب و غيرهم وكثير من أهل الذمة من الطبقات الفقيرة التي تعددت شكاواها من الحيف في المعاملة و عدم المساواة و التضييق .
- 4 — المهالبة⁴ : كانوا من كبار البيوتات الأزدية اليمنية الذين حاربهم الأمويون و نكلوا بهم فاصطنعوا بذلك عداء اليمانيين .

² جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تـ محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ، مطبعة الفجالة الجديدة ، مصر ، سنة 1969 ، ص : 256

³ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني و الثقافي والاجتماعي ، ط 14 ، ج 2 دار الجيل ، بيروت ، سنة 1996 ، ص : 14

⁴ نسبة لزعيم قبيلة الأزدي ؛ القائد المهلب بن أبي صفرة ، أحد أكبر القواد في العصر الأموي . اشتهر بحروبه ضد الخوارج .

أنظر : محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول و الثاني بعد الهجرة ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، مصر ، سنة 1966 ، ص : 118

5 — الفئات غير العربية: سواء منها التي لم تسلم ، و لم تدن بالولاء للدولة الإسلامية ، أو التي أسلمت لكن ولم يتعمّقها حس الانتماء للجماعة الإسلامية .

6 — تفشي روح العصبية في الجيش و الأمصار⁵ .

دفعت هذه الأوضاع أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى إنشاء تنظيم دقيق محكم يدعو لآل البيت ، و يهيئ قوى الأمة لتقبل فكرة الثورة .

و في سنة 98 هـ — 716م استدعى الخليفة سليمان بن عبد الملك أبا هاشم مظهرًا له التودد و الكرامة ، ثم دبر له عملية اغتيال بواسطة السم و هو في طريقه إلى الحميمة⁶* فلما شعر يتمكن السم منه توجه إلى حيث يقطن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس⁷* ؛ فأفضى له بجميع أسرار التنظيم و دعاه لمواصلة المسعى⁸ . و هكذا انخرط العباسيون في المشروع العلوي من رأسه ؛ حيث عادت إليهم إمامة التنظيم و زعامته . و تظهر التطورات أن العباسيين كانوا أكثر كفاية و نشاطا من الناحية السياسية و أكثر تطلعا إلى النفوذ و السلطان من العلويين ؛ لذلك عمد محمد بن علي إلى رفع شعار الدعوة لـ " الرضا من آل محمّد " كشعار عام يجمع مضمونه بين آل علي و آل العباس حتى يضمن للتنظيم تماسكه ويجنبه الانقسام و الفرقة . هذا وقد قسم بعض المؤرخين المحدثين الدعوة العباسية إلى دورين :

الدور الأول : من الدعوة إلى الثورة :

كانت بداية الدعوة العباسية نابعة من شرق البلاد الإسلامية وقد انضم إليها جميع الفئات المظلومة التي عانت من جور بني أمية⁹ .. فشملت الموالى الشاكين من حرمان حقوقهم التي

⁵ يوسف العش : محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ، د ط ، مطبعة فتي العرب ، دمشق ، سنة 1977 ، ص : 7
صالح أحمد العلي : عمر بن عبد العزيز ، ط 1 ، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ، بيروت ، سنة 2000 ، ص : 182

⁶ * الحميمة : هي قرية صغيرة في أرض الشراة بين الشام و الحجاز . ابن خلكان : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، ت احسان عباس ، د ط ، ج 3 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1971 ، ص : 278

⁷ * محمد بن علي العباسي : أبو عبد الله والد المنصور و السفاح ، ولد سنة 50 هـ ، و توفي سنة 126 هـ .
المصدر نفسه ، ج 4 ، ص : 188

⁸ أنظر رأي مختلف في مدى صحة هذه الرواية التاريخية في :

محمود شاكِر : التاريخ الإسلامي ، ط 2 ، ج 5 ، الكتب الإسلامية ، بيروت ، سنة 1985 ، ص : 45

⁹ الهادي حمودة : الشعر الأموي في خراسان و البلاد الإيرانية ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، سنة 1976 ، ص

كفلها لهم الإسلام ، و المطالبين بعلاقة متكافئة مع إخوانهم المسلمين العرب ، و كان ولاء قطاع كبير من الموالي يتوجه إلى أهل البيت ، ليشمل التذمر حتّى أهل الذمّة الذين طالما اشتكوا جور الأمويين ، والذين كان بعض الولاة يُمانعون في دخولهم إلى الإسلام خوفاً من هبوط الدخل المالي العائد منهم¹⁰.

ولهذا استطاع الدعاة استقطاب جميع فئات المجتمع وتوظيفها و استغلال حنقها ، فقد كانت الفئات التي تعاطفت أو ساهمت في إنجاح ثورة الحلف العلوي — العباسي تأمل في تحقيق الأهداف التي أعلنها قادة الثورة و تضمنتها الشعارات التي رفعوها¹¹ ، حيث انتشر الدعاة في أواخر الحكم الأمويّ في أرجاء البلاد الإسلاميّة خاصّة في خراسان والعراق ، يمهّدون للثورة على مظالم بني أميّة ويبشّرون الناس باقتراب تحقق الوعد الإلهيّ بانتصار الحقّ على الباطل¹² من خلال نجاح للثورة ؛ ويمنّوهم بإرساء قواعد حكم يقوم على الحقّ والعدل . و يبثون البشارة على قرب الفرج بالتتويه بـ " الرضا من آل محمّد " وعودة الحقّ إلى أهله ؛ أهل بيت النبيّ صلّى الله عليه وآله الذين يُقيمون الحقّ والعدل ؛ الأمر الذي لقي نجاحاً لم يقدر لمحاولات العلويين السابقة .

الدور الثاني : من الثورة إلى الدولة :

في سنة 125هـ توفي محمد بن علي فآلت إمارة الدعوة لابنه إبراهيم الذي لم يدخر و سعا في التنظيم و السهر على الإشراف على أمر الدعوة¹³ . و قد اصطنع في الكوفة شاباً كان مقدراً له قيادة الدعوة إلى النجاح ؛ و هو أبا مسلم الخراساني ، فكان في خدمة إبراهيم ينقل رسائله إلى الدعاة في الكوفة و غيرها ، وفي سنة 128هـ — 746م أرسله إلى

¹⁰ محمد نصر مهنا : الفتوحات الإسلامية و العلاقات السياسية في آسيا ، د ط ، دار المعارف ، الإسكندرية ، سنة 1990 ، ص : 219

دانيال دينيت : الجزية في الإسلام ، تـ فوزي جاد الله ، د ط ، منشورات مكتبة الحياة ، د ت ، ص : 178

طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، سنة 1996 ، ص : 61

¹¹ أحمد عبد الرزاق أحمد : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، بيروت ، سنة 1999 ، ص : 225

¹² أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي و الأندلسي ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ت ، ص : 17

¹³ عماد الدين إسماعيل بن الفداء : المختصر في تاريخ البشر ، د ط ، م 1 ، ج 1 ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، د ت ، ص : 209

أبو حنيفة الدينوري : الأخبار الطوال ، ت عبد المنعم عامر و آخرون ، د ط ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د ت ، ص : 339

خراسان مثلاً له في الدعوة السرية هناك ؛ إذ تجلت قدراته السياسية و العسكرية التي عجلت بدفع الثورة إلى الظهور ثم الانتصار¹⁴ ، و قد خاض أبو مسلم حروباً و وقائع مع القادة الأمويين في خراسان كشفت القاعدة المتهترئة التي كان عليها الحكم الأموي ؛ الذي نخرته الخلافات القبلية في صميمه و أصابته في مقتل ، الأمر الذي أحسن أبو مسلم استغلاله .

و في سنة 131 هـ — 748م بلغ أمره أسماع الخليفة مروان بن محمد فأرسل من يعتقله . و لما علم بنهايته أوصى إلى أخيه أبي العباس أوصاه بشيعته و أهل بيته و أهل خراسان و أهل الكوفة¹⁵ . فلما علم بذلك أبو العباس خرج من الحميمة يريد الكوفة و كان أول أهله خروجاً خوفاً على نفسه و على مصير المهمة التي أُوكِلت إليه ، فدخلها «... وكانت المسودة مع أبي سلمة بالكوفة فأنزلهم داراً .. و أخفى أمر أبي العباس و مَنْ معه و وكلّ بهم وكيلاً ...»¹⁶ .

وهنا تأتي محاولة أبي سلمة في نقل الخلافة إلى العلويين . وتجمع المصادر التاريخية على أن أبا سلمة حاول نقل الأمر من آل العباس إلى آل علي فأخفى أبو العباس ولم يعلن ظهوره ويعلل المسعودي سبب هذه المحاولة بخوف أبي سلمة من انتقاض الأمر وفساده إثر مقتل إبراهيم الإمام¹⁷ ، وقد يكون أبو سلمة مدفوعاً بميوله العلوية ؛ فالكوفة علوية والخلال يميل لبني علي ، ثم أن المجال كان مفسوحاً أمامه ليحقق ما يميل إليه وخاصة أن المدعو له لم يكن معروفاً لدى العامة من الناس .

وقد أرسل أبو سلمة خلال رسالتين إلى كل من جعفر بن محمد الصادق¹⁸* و عبد الله بن الحسن بن الحسن ، فأحرق الصادق الكتاب ، أما عبد الله فبالرغم من تحذير جعفر الصادق

¹⁴ فاروق عمر : التاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين ، ط 2 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1985 ، ص ص :

142 — 143

¹⁵ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، د ط ، ج 2 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1960 ، ص : 342

السيوطي : تاريخ الخلفاء ، المصدر السابق ، ص : 257

¹⁶ أبو الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب و معادن الجواهر ، د ط ، ج 3 ، موفم للنشر ، الجزائر ، سنة 1989 ،

ص : 320

¹⁷ نفس المصدر ، نفس الصفحة

¹⁸ * جعفر الصادق : كان رأس آل البيت بالمدينة ، له مواقف مشهورة مع المنصور ، توفي سنة 148 هـ .

له : «... يَا أَبَا مُحَمَّدٍ وَ مَتَى كَانَ أَهْلُ خُرَّاسَانَ شِيعَةً لَكَ أَأَنْتَ بَعَثْتَ أَبَا مُسْلِمٍ إِلَى خُرَّاسَانَ : أَنْتَ أَمَرْتَهُ بَلْبَسَ السَّوَادَ ، وَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ قَدِمُوا إِلَى الْعِرَاقِ أَكُنْتَ سَبَبَ قُدُومِهِمْ أَوْ وَجَّهْتَ فِيهِمْ وَهَلْ تَعْرِفُ مِنْهُمْ أَحَدًا... »¹⁹. إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصْغِ إِلَى هَذَا التَّحْذِيرِ فَأَجَابَ .

وقد كانت نتيجة هذه المحاولة الفشل ؛ لأنها لم تجد صدى من قِبل العلويين ما عدا عبد الله بن الحسن ؛ إضافة إلى ذلك فقد عارض بعض كبار القادة²⁰ هذا المشروع فألحوا على أبي سلمة بالإعلان عن أبي العباس، ولما كُشِفَتْ محاولته ؛ جاء الخراسانيون إلى أبي العباس ومعهم أصحابهم فبايعوه وبايعه خلال²¹ .

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة سنة 132 هـ - 749م وخطب بالكوفة فقال : «... الحمد لله الذي اصْطَفَى الْإِسْلَامَ دِينًا لِنَفْسِهِ فَكَرَّمَهُ وَشَرَّفَهُ ... واختاره لنا وأَيَّدَهُ بنا وجعلنا أَهْلَهُ وَكَهْفَهُ وَحِصْنَهُ ... وَخَصَّنَا بِعَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ... وَأَنْشَأَنَا مِنْ شَجَرَتِهِ وَاشْتَقْنَا مِنْ نَبْعَتِهِ فَوَضَعْنَا مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِالْمَوْضِعِ الرَّفِيعِ ، وَذَكَرْنَا فِي كِتَابِهِ الْمَنْزِلَ ثُمَّ جَعَلْنَا وَرَثَتَهُ وَعُصْبَتَهُ ... »

وكان أبو العباس موعوكاً فقام عمه داود بن علي وخطب مكانه ؛ و قال مبيناً السبب الذي دعاهم إلى الخروج : «... وَإِنَّمَا أَخْرَجْتَنَا الْأَنْفَةُ مِنْ إِبْتِزَازِهِمْ حَقًّا وَالْغَضَبُ لِبَنِي عَمِّنَا .. لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ وَذِمَّةُ الْعَبَّاسِ أَنْ نَحْكُمَ فِيكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَنَعْمَلْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَنَسِيرَ فِي الْعَامَّةِ مِنْكُمْ وَالْخَاصَّةِ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ... » ، ثم أشاد بجهود أهل الكوفة وأهل خراسان²²

= أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ت شعيب الأرنؤوط و آخرون ، ط 9 ، ج 6 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة 1413 ، ص : 296

¹⁹ المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 320 - 322

²⁰ لم يورد المصدر أسماء القادة و النص كالتالي : «... لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد، أراد أبو سلمة خلال أن يحول الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب، فغلبه بقية النقباء والامراء، وأحضروا أبا العباس السفاح وسلموا عليه بالخلافة... » أبو الفداء بن كثير الدمشقي : البداية و النهاية ، ت علي معوض و آخرون ، ط 2 ، م 5 ، ج 10 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1997 ، ص : 34

²¹ المصدر نفسه ن نفس الصفحة

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 59

²² ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ص ص : 34 - 35

وهكذا فإن استقراء الخطب و النصوص التي صدرت عن الخلفاء العباسيين الأوائل و كبار قادتهم تفصح عن الأسس و المستندات التي اعتمدوا عليها في شرعية وصولهم للحكم حيث أبانوا منذ البداية أنهم جاؤوا إلى هذا الأمر لكونهم استنادا لحق وراثته النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنهم آل البيت وقد ذكرهم الله في القرآن ، و أنهم إنما خرجوا طلباً للثأر ممن قتل أبناء عمهم ، كذا الانتصاف للأمة من جور بني أمية الذين اغتصبوا الخلافة من دون حق ولا أهلية ، وإحياء للعدل بين الناس . كما أكدوا أنهم سيسرون بسيرة الرسول ويعملون بكتاب الله و تحقيق " العدل في القضية " و " القسمة بالسوية " ²³ .

وهكذا فإن الانتماء الشيعي لدى العباسيين كان ظاهراً معترفاً به من طرفهم و يقرون بارتباطهم التاريخي بأبي هاشم بن محمد بن الحنفية ²⁴ وقد بقي هذا ردحاً من الزمن حتى خرج محمد ذو النفس الزكية ²⁵ في عهد المنصور سنة 145هـ — 762م ، و طالب بحقه في الخلافة بمقتضى البيعة التي سبقت له ، و دارت بينهما مراسلات سجالية عامرة بالمستندات التاريخية وطرق الاحتجاج السياسي — الديني للحق في الحكم ²⁶ ، حينها أظهر المنصور أن الخلافة جاءتهم عن طريق العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ومضى يحتاج طويلاً في تأكيد أحقية العباس بالخلافة ²⁷ ، الأمر الذي غدا موضوع جدال ساهم فيه الشعراء كقول القائل :

²³ د محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية و الإدارية العائدة للعصر العباسي الأول ، ط 4 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة 1985 ، ص ص : 70 — 71

²⁴ العبادي : المرجع السابق ، ص : 19

²⁵ هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم بالمدينة، وكان قد بوع له في كثير من الأمصار، وكان يُدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه، وكان مستخفياً من المنصور، ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله، قتل سنة 145هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 372 — 374

²⁶ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص ص : 69 — 71

برنارد لويس : أصول الإسماعيلية و الفاطمية و القرطبية ، ط 1 ، دار الحداثة ، بيروت ، سنة 1980 ، ص ص : 62—63

²⁷ محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم و الملوك ، د ط ، ج 9 ، ، دار القاموس الحديث ، بيروت ، د ت ص ص : 211 — 212

عبد الرحمن بن خلدون : العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر ، د ط ، م 3 ، ج 5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1981 ، ص ص : 404 — 408

أَنْى يَكُونُ وَ لَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَأْتُهُ الْأَعْمَامَ²⁸

— البحر الكامل —

وهكذا انفرد العباسيون بالخلافة بعد أن عرفوا كيف يستغلون الميراث العلوي واتخذوه وسيلة للوصول إلى العرش ، و أحبطوا محاولة الخلال ، و لزموا الحذر من العلويين خاصة بعد الثورة الفاشلة لذي النفس الزكية .

ولما استتب العرش لهم و توطدت دعائمه ، و ظهر عمق الخلاف بينهم و بين العلويين للحد الذي غدا عسيرا على الإصلاح ، عمدوا إلى التحرر من الانتماء الفكري الشيعي بل انقلبوا عليه سياسيا لصالح الانتماء السني ، و هذا أمر مفهوم لسببين :

السبب الأول : تحول علاقتهم مع العلويين من التحالف إلى التشاحن .

السبب الثاني : لكون الجمهور الأعظم الذين يشكلون أغلبية الرعية ؛ هم من أهل السنة . ولا يَصِفُو حكم لدولة تعتقد خلاف عقيدة الرعية .

وقد تجلّى ذلك واضحا ابتداء من عهد المنصور؛ حيث حرص على إنشاء علاقات وطيدة مع كبار ممثلي الاتجاه السني كالإمام مالك و ابن أبي ذئب²⁹ ، و حاول مرارا أن يخطب ود أبي حنيفة و الأوزاعي وغيرهما ممن امتنعوا عن الاقتراب من حاشية الدولة ؛ كما سيأتي مفصلا ، ومد علاقاته حتى مع المعتزلة ممثلين في شخص عمرو بن عبيد ، لكن علاقته مع جعفر الصادق كان يشوبها حذر متبادل³⁰ . و مضى المهدي³¹ عل سُنَّة المنصور ، و أبدى حرصا خاصا على التعرف على الملل و النحل المنتشرة في طول البلاد

²⁸ العبادي : المرجع السابق ، ص : 20 — 21 . لا يرد في النص اسم قائل البيت الشعري

²⁹ * ابن أبي ذئب : أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن صاحب الإمام مالك ، أحد فقهاء المدينة ، ولد سنة 81 هـ و توفي بالكوفة سنة 159 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 183

³⁰ عبد الوهاب الشعراني : الطبقات الكبرى ، ط 1 ، ج 1 ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر، سنة 1954 ، ص : 32

³¹ المهدي : أبو عبد الله ، ولد سنة 127 هـ و تولى الخلافة اثر وفاة المنصور سنة 158 هـ و توفي سنة 169 هـ .

المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 391

الإسلامية عرضها³². و هكذا استمر بنو العباس محسوبين في أهل السنة و الجماعة إلى غاية سقوط دولتهم³³.

حكم أبو جعفر المنصور بين سنتي : 137هـ — 158 هـ³⁴، فكان حكمه قائماً على الشدة ودقة الاستقصاء ، و التتقير في أمور البلاد و أخبارها³⁵ ، كما عُرف بتقديره الشديد وسعيه لجمع الأموال و كنزها ، فخلّف لابنه للمهدي الذي أعقبه على الحكم 158هـ — 169 هـ³⁶ ثروة طائلة قيل أنّها تكفيه لإدارة الدولة عشر سنين³⁷.

استعان في بداية أمره بأبي مسلم الخراساني في السيطرة على المؤيدين للعلويين في خراسان الذين رأوا أنّ خلفاء بني العباس لا يقلّون في سفك الدماء عن أسلافهم الأمويين، ثم تخوّف منه فدبر له المكائد حتى قتله سنة 137هـ — 754م.³⁸

واستمر في إرساء قواعد حكمه بالعزم و الحزم و الشدة ؛ خاصة في ظل تخوّفه من نهوض العلويين ليستردوا حقّهم الضائع ، فأمر باعتقال جماعة من أهل البيت ثمّ أمر بقتلهم³⁹. لكنّ الإجراءات القمعية لم تُقلّ في عزم الطالبيين ، بل أجّبت الثورات ضدّ العباسيين في أطراف البلاد الإسلامية، ومنها : الكوفة، والبصرة، والمدينة، وهي ثورات قادها علويون من أهل البيت أو من أتباع أهل البيت . و فكر جدياً في توحيد مرجعية الفتوى بدلاً من فوضى المذاهب فأوعز لمالك بن أنس إمام أهل المدينة بكتابة الموطأ ، لكن مالك لم يطاوعه على هذه الفكرة نظراً لتشبّث كل مصرّ بموروثه عن كبار الصحابة ممن بقيت آثاره و فتاواه . و هي فكرة ألّفها إليه ابن المقفع في الرسالة التي اشتهرت بـ " رسالة الصحابة " ؛ والتي كانت عبارة عن مشروع كامل و رؤيا تخص مسألة إصلاح قطاعات مهمة من

³² محمد جعفر شمس الدين : " وجوه الخطاب السياسي للملوك العباسيين " ، " مجلة المنطلق " ، الإتحاد اللبناني للطلبة المسلمين ، العدد 64 ، آذار 1990 ، ص : 109

³³ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص : 264 — 266 . كذلك ج 7 ، ص : 331

³⁴ 754م — 775م

³⁵ عارف عبد الغني : نظم الاستخبارات عند العرب و المسلمين ، ط 1 ، دار الهدى ، الجزائر، سنة 1411هـ — 1991م ، ص ص : 105 — 115

³⁶ 775م — 785م

³⁷ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 103

³⁸ الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 155

³⁹ المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 377

الدولة بما يتناسب والوضع السياسي الجديد ؛ تمسُّ قطاع الجند و القضاء و إصلاح تدابير الخراج⁴⁰ وغيرها.

ولما تولى المهدي سلك في سياسة الرعية نهجا آخر ، فاشتهر بحُسن المعاشرة ، و سعة الصدر و التَّحَنُّن إلى الرعية ، فأوعز بمجرد وصوله إلى عرش الخلافة بإطلاق سراح السجناء وإعادة الأموال التي صُودرت في عهد أبيه إلى أصحابها ، فوجد الطالبيون في عهده فَرَجاً و سَعَةً بالمقارنة ممّا كانوا يعانونه سابقا ، تجلّى ذلك في سلوكات مختلفة منها تقريبه ليعقوب بن داود صنيعة العلويين و رفعه لمنصب الوزارة⁴¹.

ولم يكتفِ المهدي العبّاسي — في نشره للاستقرار في المجتمع — بإطلاق سراح السجناء، بل كان يصلهم ويخلع عليهم الخلع بما يناسب حالهم⁴². ولعل أهم ما يميز عهده إضافة إلى ما ذكر، هو استفحال أمر " الزنادقة "⁴³ ، وإفصاحهم دون وجل عن أهدافهم و مراميمهم ، فأنشأ المهدي ديوانا اختص بمحاربتهم و مطاردتهم ، حيث عين رجلا عهد إليه بتولي أمورهم سماه " صاحب الزنادقة " ، و بلغ به الأمر سنة 167هـ — 783م إلى أن كان يقتل على الظنّة والاشتباه وأوصى الهادي ابنه بأن يتجرد لهذه العصابة⁴⁴.

⁴⁰ بشار قويدر : الإصلاح السياسي و الاجتماعي للدولة الإسلامية — من خلال رسالة الصحابة لابن المقفع — ، د ط ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1990 ، ص ص : 83 — 99

س ، د ، جواتيابين : دراسات في التاريخ الإسلامي و النظم الإسلامية ، تـ عطية القوصي ، ط 1 ، وكالة المطبوعات الكويت ، سنة 1980 ، ص ص : 57 — 87

رضوان السيد : : الأُمة و الجماعة و السلطة — دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي — ، ط 2 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986 ، ص ص : 104 — 105

⁴¹ أبو الحسن علي بن محمد ، بن الأثير : الكامل في التاريخ ، ط 3 ، ج 5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1980 ص : 52

⁴² اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 394

⁴³ الزنادقة هم الفئة المتهمون بالزندقة وقد اشتهر هؤلاء عهد المهدي . و يورد المسعودي نصا يكشف عن ماهية الزندقة:

« ... وأمعن في قتل الملحدين، والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعقاداتهم في خلافته؛ لما انتشر من كتب ماني وابن ذيَّصان، ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع، وغيره، وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنّفه في ذلك ابن أبي العرجاء، وحماد عَجْرَدٍ، ويحيى بن زياد، ومطيع بن إياس: من تأييد المذاهب المانية، والذَّيَّصَانِيَّة، والمَرْقِيُونِيَّة، فكثُر بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس...» المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 384

⁴⁴ عاطف شكري : الزندقة و الزنادقة ، د ط ، دار الفكر ، الأردن ، د ت ، 161 — 62

عبد الرحمن بدوي ، من تاريخ الإلحاد في الإسلام ، ط 2 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، 1980

وشهد عهده ثورة المُفَنِّع بخراسان سنة 161هـ — 778م⁴⁵ ، وفي السنة الموالية خرج المُحَمَّرَة بجرجان⁴⁶ ، كذلك خرج بَقَنْسَرَيْن⁴⁷ * ثائر يدعى عبد السلام اليشكري تم القضاء عليه⁴⁸.

دام حكم المهدي عشر سنوات ، فخلفه ابنه الهادي، الذي كان حكمه قصيراً، حيث انتهى بعد سنة واحدة بسبب الدَّسائس التي حيكت ضده من قِبَل قُوَى في البلاط ، وقد واصل الهادي⁴⁹ سياسة المهدي في مطاردة الزنادقة ، كما انشغل بملاحقة الطالبين وقطع أرزاقهم⁵⁰ ، وفي أيامه خرج عليه الحسين بن علي بن الحسن ، فقتله في موقعة " فَخَّ " سنة 169هـ — 785م⁵¹.

أعقب هارونُ الرِّشيدُ⁵² الهادي على كرسي الخلافة من سنة 170هـ لغاية 193هـ⁵³ ، حيث باشرها بالاستعانة بخدمات عائلة آل بَرْمَك⁵⁴ في توطيد دعائم الملك ؛ للحد الذي أطلق بأيديهم جميع شؤون الدولة و الرعية ، الأمر الذي مكَّن البرامكة من صناعة أسطورة كاملة في الرِّقاه و التَّعَمُّ و البذل و العطاء و أسر القلوب بالامتنان و صِدْق الولاء ، فكان أن صبغوا عهد الرشيد بلونٍ ظَلَّ يتردد صداه في تفاصيل ألف ليلة و الطرائف التي غصت بها

⁴⁵ و هو رجل كان قَصَّاراً يمارس السحر و ما أشبه ادَّعى القول بإمامة أبي مسلم الخراساني ثم ادعى الألوهية

⁴⁶ المحمرة إحدى الفرق المجوسية ، انظر: بو الفرج محمد بن إسحاق النديم: **الفهرست** ، د ط ، دار المعرفة ، بيروت ، سنة 1978 ، ص: 479

⁴⁷ * قَنْسَرَيْن : كورة بالشام ، منها حلب ، و بينها و بين حلب مرحلة من جهة حمص . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 400

⁴⁸ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 61 — 62

⁴⁹ **الهادي** : موس بن المهدي ، تولى الخلافة اثر وفاة المهدي سنة 169هـ و توفي سنة 170هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 411

⁵⁰ اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 404

⁵¹ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 74 — 75

⁵² **هارون الرشيد** : من أشهر الخلفاء العباسيين ، تولى الخلافة بعد وفاة الهادي سنة 170هـ و توفي سنة 193هـ .

المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 427

⁵³ 786م — 809م

⁵⁴ **البرامكة** : أسرة آل برمك و هي أسرة مجوسية الأصل فارسية صعد نجمها بفضل نشاط خالد ثم يحيى ابنه و بلغت من القوة لحد الاستبداد بالحكم في عهد الرشيد و انتهت بتصفية هذا الأخير لها سنة 187هـ اشتهر من أبنائها يحي و ابنه

جعفر و الفضل. ابن النديم : المصدر السابق ، ص : 96

مجاميع الأدب و الأخبار و صحائف الإخباريين⁵⁵ . رغم انتباه بعض المؤرخين لفشل سياستهم المالية و سوء الاستغلال لما وضعه الرشيد بأيديهم⁵⁶ . لكن سلطانهم لم يستمر؛ إذ قلب لهم ظهر المِجَنّ وتكرّر لهم وقتل كبار رجالهم شرّ قتلة و كان ذلك سنة 187هـ — 803م⁵⁷.

و يعتبر عهد الرشيد العصر الذهبي للدولة العباسية الذي بلغت فيه الدولة أوج قوتها رغم أنه عرف أيضا أولى بوادر الانقسام و التَشَظّي ؛ خاصة في بلاد المغرب⁵⁸، ولعل أخطر صنيع ارتكبه الرشيد بحق الخلافة ؛ هو تقسيمه سلطان الخلافة على أبنائه⁵⁹، في العهد الشهير الذي علّقه في الكعبة ، و الذي أشعل فيما بعد أوار الحرب بين ولديه ، فيما عرف " بفتنة الأمين⁶⁰ والمأمون " ؛ عندما احتدم الصراع بين الطرفين و وقف العنصر العربي إلى

⁵⁵ جلال الدين السيوطي : المستظرف من أخبار الجوّاري ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، سنة 1991 ، ص : 25

أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري : المصون في الأدب ، تـ عبد السلام هارون ، ط 2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، سنة 1982 ، ص : 210

أبو سعد منصور بن الحسين الأبي : نثر الدر ، تـ عثمان بوغانمي ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، سنة 1983 ، ص : 141

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : المحاسن و الأضداد ، ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، سنة 1997 ، ص : 294
إبراهيم بن محمد البيهقي : المحاسن و المساويء ، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط ، مكتبة نهضة مصر القاهرة
ص ص : 369 — 377

أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحبيب : عقلاء المجانين ، تـ عمر الأسعد ، ط 1 ، دار النفائس ، بيروت ، 1987
ص : 303

أحمد محمد الحوفي : تيارات ثقافية بين العرب و الفرس ، د ط ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د تـ ، ص : 116 — 118

⁵⁶ محمد عبد الحي محمد شعبان : الدولة العباسية ، ص : 50

⁵⁷ راجع هامش صفحة 9

⁵⁸ انقسام بلاد المغرب إلى : دولة الأغالبة و دول الأدارسة و دولة الرستميين ، و كيانات سياسية أخرى لا تدين بالولاء للعباسيين ، إضافة إلى الدولة الأموية بالأندلس . يوسف العش : المرجع السابق ، ص ص : 48 — 49

⁵⁹ الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 72. جاء فيه :

« ... ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة قال بعض العامة قد أحكم أمر الملك وقال بعضهم بل ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية...» ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 154

⁶⁰ الأمين : محمد بن الرشيد ، تولى الخلافة بعد أبيه هارون سنة 193هـ و قتل أثناء صراعه مع أخيه المأمون سنة

198هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 491

صف الأمين في حين ساند العنصر الفارسي المأمون⁶¹، وكانت مواجهة دامية بين الأخوين دشّن الأمين انطلاقها بنقضه العهد الذي علقه الرشيد على الكعبة و أشهد عليه الأمة في موسم الحج⁶² ، و انتهت بمقتله سنة 198هـ - 813 م وتولّى المأمون عرش الخلافة ، حيث كانت بغداد ساحة المعركة والبغاددة هم من تحمل عبئها وعبء تفاصيل ذلك الصراع المرير الذي استحق مسمى " الفتنة " تشبيها لها بـ " الفتنة الكبرى " التي أعقبت مقتل عثمان .

وقد عرف عن المأمون حزم و ولع خاص باستطلاع الأوضاع في الدولة المترامية الأطراف عبر جهازه التجسسي و خواص رجاله الذين اصطنعهم لهذه المهمة ، و بلغ به حدا صار به أعجوبة بين الخلفاء « ... لم يكن أحداً من ذوي السلطان الأعظم أشدّ فحْصاً و بحثاً منه عن أمور الناس حتى بلغ هذا المبلغ من الاستقصاء و جعله أكبر شغلٍه و أكثرَ همٍّه في ليله و نهاره ...»⁶³، ولعل جزءا كبيرا من انشغال المأمون هذا يعود إلى التغيرات العميقة التي حصلت في النسيج السياسي وعلاقات القوى التي كانت تضبط توازن السلطة في عهد الرشيد ومن قبله ، خاصة التوازن الذي كان قائما بين العصبيتين : العرب و الفرس⁶⁴ ؛ و الذي عصفت به أهواء الإنفراد بالسلطة و الانتفاع من خيراتها ، و النكوص عن المكسب الذي يحسب في مزايا العباسيين ، وهو تحقيق قسط كبير من النجاح في العودة إلى مفهوم " الأمة " كما نوّه به الإسلام⁶⁵ ، و الذي جرى تناسيه خلال الفترة الأموية .

⁶¹ ابن العبري: المصدر السابق ، ص ص : 132 - 135 . والمسعودي : مروج الذهب ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 494 ، 520. و د نبيلة حسن محمد : في تاريخ الدولة العباسية ، ص : 157. و د حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، المرجع السابق ، ص ص : 146 - 147

⁶² الذهبي : العبر في أخبار من غير ، ج 1 ص : 314. والمسعودي : المروج ، المصدر السابق ، ص ، 448 أنظر : محمد عبد الحي محمد شعبان : الدولة العباسية ، المرجع السابق ، ص ص : 58 - 56 د نبيلة حسن محمد : المرجع السابق ، ص : 151. فيه تحليل جيد للدوافع التي أفضت بالرشيد إلى أن يجترح هذا الشكل غير المسبوق في ولاية العهد إذ جعلها ثلاثية ؛ بادئا بالأمين و مثنيا بالمأمون و مثلتا بالمؤتمن ، الأمر الذي كرس المشاكل أكثر مما حلها .

⁶³ المسعودي : المصدر السابق ، ص : 236

⁶⁴ د زاهية قدورة : الشعوبية وأثرها الاجتماعي و السياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول ، ط 1 دار الكتاب العربي بيروت ، سنة 1972 ، ص : 222

⁶⁵ د رضوان السيد : الرجوع السابق ، ص : 102

إنَّ الفتنة تلك بين الأخوين — بما حفلت بها تفاصيلها من أحقاد و حزازات سكنت أعماق النفوس — هي التي فرضت على المأمون كل ذلك الحس الأمني الدقيق . ولقد كان المأمون في جوانب كثيرة نموذجا للحاكم الحازم المتعلم و المستنير والسلطان اليقظ والمدرِك لحقيقة المشاكل التي تحيط بحكمه ، و حقيقة القوى المتصارعة على السلطة ، والاتجاهات الدينية و السياسية التي كانت تمور بها الحياة الإسلامية آنذاك ؛ بقدر وعيه لحقيقة تداخل المضمون السياسي في الخطاب الديني ؛ إذ كانت جنّات الدولة الإسلامية حافلة بتحركات الشيعة الثورية و السياسية ومحاولاتهم استعادة حقهم المسلوب وانشغال الأئمة منهم بتطوير المذهب وتقعيده علميا من طريق الرواية و النقل وتدوين الآثار التي تثبت حقهم في الخلافة أو من خلال التأسيس الفلسفي والتوسع في آلية التأويل للقرآن خصوصا ، لصنع المستند الديني المُقنع لمطالبهم السياسية . كذا الانتشار و التوسّع اللذين عرفهما نشاط الزنادقة بعد ركودهم و خمولهم طيلة عهد المهدي و الهادي و الرشيد ، وذلك يعود لجدية الخلفاء الثلاثة في استئصال شأفتهم .

أما الاتجاهات الإسلامية الأخرى و المتمثلة في أهل السنة و المعتزلة و المرجئة⁶⁶ والنيّار الذي أخذ في الأدبيات الكلامية مسمى " الحشويّة " فلم تكن تشكل خطرا على الحكم ؛ لإنصراف أصحابها إلى المُسالمة القائمة على اجتهادات دينية و فتاوى تجعل من الثورة عملا غير مشروع أو انصراف قادتها إلى الدرس العلمي و البحوث النقلية و العقلية .

إن هذه الفترة من المحطات المهمة في تاريخ الإسلام الديني و السياسي و الثقافي بخاصة؛ إذ أنها الفترة التي تمكنت فيها اغلب القوى المتصارعة على السلطة من تأسيس مذاهبها و تشييد أنساقها الفكرية ؛ بحيث يمكننا الكلام عن مذاهب و مدارس مُوصّلة و مُحكّمة و مُتميّزة أيضا . لذلك جاءت مسلكية المأمون مطبوعة بالطابع العلمي العميق ، الذي لا بد منه لمن هو في محلّه ومسؤوليته ، و لمن هو حريص على فهم ما يدور من حواليه في العلن و ما هو قيد التدبير و التخطيط في السر ، كذا تفهم الأسس التي يرى كل فريق من هؤلاء أن مشروعيته تقوم عليها وان مطالبه تستند إليها . لأجل ذلك كله حرص

⁶⁶ المرجئة : و تعود في بعض الروايات إلى الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ، و هي فرقة اعتمدت مبدأ عدم التكفير و يرجئون الحكم في عقائد الناس من المسلمين إلى الله ، و يحصرّون الإيمان في مجرد المعرفة و التصديق القلبي ، دون اشتراط الأعمال. عبد القادر الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق ، تـ عبد الكريم العجم ، ط 1 ، م 1 ، ج 1 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1996 ، ص : 114. و محمد علي أبو ريان : المرجع السابق ، ص ص 127 — 128

على أن يشهد بلاطه مجادلات تتم من طرف المتكلمون الذين كانوا نوابا عن هذه التيارات ؛ يبسطون الرؤى و يعرضون الحجج و الدلائل و البراهين و يتكلمون في كل شيء ، ليصل حديثهم و حوارهم منصب الخلافة أمام الخليفة ذاته ، و قد أورد المسعودي في « مروجه » جملة صالحة من الأخبار في هذا المعنى اجتزأ منها هذا الخبر : « ... وكان يحيى بن أكتم يقول : كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فإذا حضر الفقهاء و من يُناظرهم من سائر أهل المقالات أدخلوا حُجْرَةً مفروشة و قيل لهم انزعوا أخفافكم ثم أحضرت الموائد ... فاستدناهم حتى يدنوا منه ، و يُناظرهم أحسن مناظرة و أنصفها و أحسنها و أبعداها من مناظرة المتجبرين ... » ؛ ويمضي يصف دخول رجل غريب يطلب المناظرة فأذن له المأمون بالدخول و الاقتراب من مجلسه فيفاجئه الرجل بسؤاله : « ... أخبرني عن هذا المجلس الذي قد جلستَه أباجتماع من المسلمين عليك ، و رضا منك ، أم بالمُغالبة لهم و القوة عليهم بسلطانك ؟ ... » فأجابه المأمون جواب هادئ رخي البال و وصف له كيفية وصوله العرش إلى قوله « ... فقمْتُ بهذا الأمر حيَاطَةً للمسلمين ، ومجاهدا في البحث عن رجل تتفق كلمتهم على الرضا به ، فأسلم الأمر إليه ، فمتى اجتمعوا على رجل و رضوا به خرجتُ إليه من هذا الأمر ، فقال الرجل : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، و قام ... » فأرسل المأمون على إثره من يتقصى خبره فإذا هو مجتمع مع خمسة عشرة رجلا في هيئته و زيّه في أحد المساجد يسألونه: لَقِيتَ الرَّجُلَ ؟ وماذا قال لك ؟ فأجابهم : خيرا، فقالوا : ما نَرَى بهذا بأسا و افترقوا ، فما كان من المأمون إلا أن علق على الأمر بقوله « ... كُفِينَا مُؤَنَةً هؤلاء بِأَيْسَرِ خَطْبٍ ... »⁶⁷ .

إذن لقد أراد المأمون أن يكون منفتحاً انفتاح الواقع الثقافي آنذاك و لعله كان يريد من ذلك أن يصنع من ذاته كلمة إجماع ترمم الصدوع و ترأب ما انكسر في سنوات الفتنة ، الشيء الذي تبدى في اجتماع جل الفرق الإسلامية في شخصه و قراراته ، فقد أراد أن يولي إثر انتصاره على الأمين علي بن موسى الرضا⁶⁸ العلوي و مضى في ذلك شوطا مهما انتهى بثورة آل العباس و موالوهم في بغداد عليه للحد الذي أفضى بهم لنقض بيعته و إقامة عمه

⁶⁷ المسعودي المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 20 — 22

⁶⁸ علي بن موسى الرضا أحد كبار العلويين وصفه الذهبي : « ... وابنه علي بن موسى الرضا كبير الشأن له علم وبيان ووقع في النفوس صيره المأمون ولي عهده لجلالته فتوفي سنة ثلاث ومئتين... » . الذهبي : السير ، المصدر السابق ،

إبراهيم بن المهدي⁶⁹* مكانه رغم سيرة هذا الأخير التي هي ابعد ما يكون عن حزم الخلافة و وقارها فانتهى الأمر بموت علي الرضا في ظروف غامضة ، كذلك تَبَنَّىه لجملة من أفكار أهل السنة ومعتقداتهم فيما يخص الإمامة و جملة العقائد التي لم يختلف معهم إلا في مسألة القرآن ، الأمر الذي دفع ثمامة بن الأشرس المعتزلي⁷⁰* إلى القول : «...إن المأمون عامي لتركه القول بالقدر...»⁷¹ ، و اهتمامه بحفظ الحديث و روايته و تقربه من كبار الفقهاء و المحدثين⁷² كذا فتح قنوات الحوار ولعل أهم فكرة تبناها المأمون هي مقولة « خَلَقَ الْقُرْآنَ » ؛ تلك الفكرة التي صبغت سيرته و مسلكيته كحَاكِم نقطة سوداء ، نظرا للأسلوب العنيف و الطريقة المخالفة لما عُرِف عنه من تسامح و انفساح في الأفق و اعتراف بحق الاختلاف ؛ الشيء الذي شكل للمؤرخين و المفكرين نقطة استشكال و استفهام ، حاول بعضهم تحليلها و إضفاء المعقولية عليها ، ولعل أكثر التعليقات إقناعا تلك التي ذهبت إلى أن المدة التي استغرقها صراع المأمون مع أخيه الأمين والغياب عن العاصمة بغداد أفضت إلى حالة من السوء والفوضى ؛ حيث شكّل اختفاء هيبة الدولة و سلطتها مناسبة لتخطي القانون ، و حيث تعمل القوى التي تمتلك القوة وفقاً لأهوائها و مصالحها و قد روت المصادر : «... أن فُسَّاق الحَرَبِيَّة⁷³ والشُّطَّار الذين كانوا ببغداد والكَرَّخ⁷⁴* آذوا

⁶⁹ * إبراهيم بن المهدي : أبو إسحاق ، أخو هارون الرشيد ، له اليد الطولى في الغناء و حسن المنادمة ، ولد سنة 162 هـ

هـ

ببيع بالخلافة سنة 200 هـ و أقام بها سنتين بعيد فتنة الأمين — المأمون ، و توفي سنة 224 هـ .

ابن خلكان : الوفيات ، ج 1 ، ص ص : 39 — 42

⁷⁰ * ثمامة بن الأشرس : أحد كبار شيوخ المعتزلة ، كانت له منزلة كبيرة عند المأمون و كان له دور مهم في إقناع المأمون بعبادة خلق القرآن . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 177 . انظر كذلك محمد الخضري بك : محمد الخضري بك : الدولة العباسية ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 2005 ، ص : 194

⁷¹ محمد الخضري بك : المرجع نفسه ، ص : 194

⁷² السيوطي : التاريخ ، المصدر السابق ، ص : 307 جاء فيه «... كان المأمون أمارا بالعدل فقيه النفس يعد من كبار العلماء....»

⁷³ * الحربية : محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي وأحمد بن حنبل وغيرهما تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي ويعرف بالراوندي أحمد قواد أبي جعفر المنصور وكان يتولى شرطة بغداد أبي جعفر المنصور وقال أبو سعد سمعت القاضي أبا بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري ببغداد يقول إذا جاوزت جامع المنصور فجميع تلك المحال يقال لها الحربية وينسب إليها طائفة من أهل العلم منهم إبراهيم بن إسحاق الحربي . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المصدر السابق ج 2 ص : 237

⁷⁴ * الكرخ : قرية فوق بغداد على ميل منها ، القزويني : زكريا بن محمد القزويني : آثار البلاد و أخبار العباد ، د ط ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة 1979 ص : 444

الناس أذى شديدا وأظهروا الفسق و قطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع ...»⁷⁵، ويضيف الطبري في وصف شناعاتهم : «... وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لا سلطان يمنعهم ولا يقدر على ذلك منهم ...»⁷⁶، ولم يتوقف نشاطهم عند هذا الحد بل «... كانوا يجيئون المارة في الطرق والسفن .. ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم ، وكان الناس منهم في بلاء عظيم ، ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قطربل فانتهبوها علانية وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك وأدخلوها بغداد وجعلوا يبيعونها علانية ...»⁷⁷. كل ذلك حصل ببغداد بمنطوق هذه الشهادة ، ولما كان الأمر أكبر من أن يسكت عليه «... قام صلحاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم ، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفساق وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم ...»⁷⁸ وأخذت هذه الفكرة طريقها للتحقق على يد رجال صالحين «... فقام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل بيته وأهل محلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك ، وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه وأرادوا قتاله ، إلا أنه كان لا يرى أن يغير على السلطان شيئا ...»⁷⁹ . والنص واضح في إشارته للطابع الإصلاحى الاجتماعى من دون أن يحول مبادرته هذه إلى عمل سياسى ؛ بعبارة أخرى لم يشأ أن يستغل الوضع المتردى لهيبة الدولة في التفكير في إطماع سياسية ؛ الشيء الذى سنراه مع نظيره سهل بن

⁷⁵ الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص: 241 – 243

أنظر: السيوطي : التاريخ ، المصدر السابق ، ص : 299 . جاء فيه :«... وفسد الحال على الأمين جدا وتلف أمر العسكر ونفدت خزائنه وساعت حال الناس بسبب ذلك وعظم الشر وكثر الخراب والهدم من القتال ورمى المجانيق والنفط حتى درست محاسن بغداد وعملت فيها المراثي ...»

⁷⁶ الطبري : المصدر السابق ، نفس الصفحة

⁷⁷ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁷⁸ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁷⁹ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

سلامة والذي كان سببا لخلاف كبير بينه و بين أحمد بن حنبل هذا الذي رغم استيائه مثل غيره لسوء أحوال بغداد ومساندته لمبادرة هؤلاء القوم إلا انه كان ضد أي تصعيد سياسي للأمر قد يفضي إلى فتنة أشد

ويعصف ابن الأثير حركة ابن سلامة بما يلي : «... ثم قام من بعده رجل من أهل الحربية يقال له سهل بن سلامة الأنصاري من أهل خراسان ؛ يكنى أبا حاتم فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب و السنة وعلّق مصحفا في عنقه...»⁸⁰. ويستمر يعرض طريقته في العمل « .. ثم بدأ بجيرانه وأهل محلّته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك ؛ الشريف منهم والوضيع ؛ بني هاشم ومن دونهم ، وجعل له ديواناً يُنْبِت فيه اسم من أتاه منهم فبايعه على ذلك ، وقتل من خالفه وخالف ما دعا إليه كائنا من كان فاتاه خلق كثير فبايعوا ، ثم إن طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبي المارة والمُخْتَلِفَة ...»⁸¹.

ومن خلال السياق و الأخبار المفصلة التي يعرضها الطبري في هذا الشأن نفهم أن المبادرات التي نهض بها هؤلاء " صلحاء كل ربض " اتسع نطاقها و نشاط عملها للحد الذي تحولت فيه رقما مهما في معادلة الصراع الذي تشهده بغداد ، و النص التالي للطبري يبين الأمر : «...إن الدريوش⁸² قال : أنا لا أعيب على السلطان شيئا ولا أغیره ولا أقاتله ولا أمره بشيء ولا أنهاء وقال سهل بن سلامة : لكنّي أقاتلُ كلَّ من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان سلطانا أو غيره و الحق قائم في الناس أجمعين فمن بايعني على هذا قَبِلْتُه ومن خالفني قاتلته...»⁸³ واستمر على أمره من اجتماع الناس عليه ورغبته في إخراج الخلافة من آل الرشيد حتى تحقق النصر كلية للمأمون و أخذ سهل فيمن أخذ و انتهى سعيه إلى السجن ناعيا على أناس (الحربية) غدرهم و تقاعسهم⁸⁴.

⁸⁰ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 183 – 184

⁸¹ الطبري : المصدر السابق ، ج 10، ص ص : 242

⁸² لا يوجد للدريوش و لا لابن سلامة ترجمة في كتب التراجم و الطبقات المتاحة ن عدا ذكرهم لدى المصادر التاريخية التي تصف هذه الأحداث .

⁸³ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁸⁴ الطبري : ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 249. و د نبيلة حسن محمد : المرجع السابق ، ص : 180

إن كانت هذه الأحداث من أهم ما شهدته تلك الفترة ، حيث كادت أن تعصف بالدولة العباسية ، و ظلت آثارها راسخة في الواقع البغدادي والذاكرة ، و لعلها سبب من بين الأسباب التي دفعت المأمون لأن ينصح المعتصم⁸⁵ بالبحث عن عنصر آخر غير العرب و الفرس يكون مادة الدولة و سندها⁸⁶ و ذلك تجديدا لدماء الدولة القتالية من جهة و من جهة أخرى فرض عصبية جديدة محل العصبيتين المتناحرتين تمكن الخليفة من امتلاك مجالا لحرية أوسع⁸⁷ .

وبولاية المعتصم في رجب سنة 118هـ — 833 م بدأ عهد جديد بالنسبة لعصبية الحكم حيث اهتم المعتصم بالعنصر التركي للاستنهاض به ف : «...جَمَعَهُمْ وَاصْطَنَعَهُمْ وَاسْتَكْتَرَّ مِنْهُمْ وَ اسْتَخْدَمَهُمْ فِي الْجَيْشِ وَالبَلَاط ... »⁸⁸ . يعود ذلك لأسباب عديدة منها أن العنصر التركي عنصرا محاربا بامتياز متصفا بخصائص الجندية و القدرة على الصبر و الصمود في ساحات القتال ؛ هذه الصفات التي امتلكها من خلال طبيعة الحياة و خشونة العيش و خصوصية البيئة التي انحدر منها لكنه إلى ذلك ما كان بمستطاعه أن يتصف بما كان يتصف به العنصران العربي و الفارسي من خصال التحضر و المعرفة بما يجوز و ما لا يجوز في عرف السياسة و شروطها ، لذلك تجلّى هذا القصور في العجرفة و القسوة و خشونة المعاملة⁸⁹ وخرق كل آداب و شروط و تعاليم الممارسة السياسية في دهاليز الحكم ، أو في العلاقة بالعامّة في الشوارع و الطرقات ؛ الأمر الذي كثيرا ما أثار سخط العامة و استيائها . و لما أدرك المعتصم عواقب كل ذلك انتقل بهم إلى " سامراء " *⁹⁰ .

⁸⁵ **المعتصم** : حكم بين 218هـ — 227هـ . المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 55

⁸⁶ محمود شاكر : **التاريخ الإسلامي** ، ط 2 ، ج 5 ، الكتب الإسلامية ، بيروت ، سنة 1985 ، ص : 180

⁸⁷ أنظر تحليل رضوان السيد لواقع صراع العصبيات على السلطة في تلك الفترة ، و يستند للأقصوصة التي كتبها سهل بن هارون ، و عنوانها " كتاب النمر و الثعلب " رضوان السيد ، المرجع السابق ، ص

= ص : 112 — 113

= سهل بن هارون : **كتاب النمر و الثعلب** ، تد عبد القادر المهيري ، د ط ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، سنة 1973 ، ص : 173

⁸⁸ فاروق عمر : المرجع السابق ، ص : 335

⁸⁹ ابن خلدون : **التاريخ** ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 547

*⁹⁰ **سامراء** : مدينة عظيمة كانت على طرفي شرق دجلة بين بغداد و تكريت . القزويني : **المصدر السابق** ، ص : 385

ياقوت الحموي : **معجم البلدان** ، المصدر السابق ، ص : 174 . جاء فيه :

لقد كانت علاقة المعتصم بأهل بغداد سيئة ، حيث أنه لم يكن يجد انسجاماً بين نزوعه الفطري و العسكري للشدة و روح الفروسية ، و ما كانت عليه بغداد من ترف و لين ، فوجد ما كان يرجوه في الأرومة التركية ، الأمر الذي استاء له العرب و دفعهم إلى محاولة اغتياله و الانقلاب على حكمه و مبايعة العباس بن المأمون سنة 222هـ إلا أن هذه المغامرة باءت بالفشل و نتج عنها أخطر مما كان يشكو منه العرب ؛ إذ عاقبهم بإسقاطهم من ديوان العطاء حيث لم تقم لهم قائمة بعد⁹¹ . و استبد الترك بمقدرات الخلافة و قوي نفوذهم خاصة بعد أن فضل الواثق⁹² الاستمرار على ذات السياسة ، للحد الذي جعله يعين أشناس التركي نائباً له مدة غيابه عن العاصمة .

جاء المتوكل⁹³ إلى عرش الخلافة و في برنامجه التقليل من سلطة الترك⁹⁴ ، و إعادة الاعتبار لمؤسسة الخلافة و هيئة الخليفة و التحرر من التضييق و الاستبداد الذي ضل يمارسه هؤلاء في الدولة و عليه⁹⁵ ، فعمل على إبعاد نفسه منهم من خلال تركه لسامراء و رغبته في الإقامة في دمشق ، لكنها كانت محاولة فاشلة ، أفضت به إلى بناء المتوكلية⁹⁶* و ربط الصلة بالقوة الحقيقية التي كانت تحضى بالدعم الشعبي في بغداد وهي قوة الفقهاء و المحدثين السنة فكان الانقلاب السني الذي اخذ صورة التصحيح على مستوى العقيدة ، هو

«...وكان لما ضاقت بغداد عن عسكره؛ وكان إذا ركب يموت جماعة من العميان والضعفاء لازدحام الخيل وضغطها ، فاجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا : إما أن تخرج من بغداد فإن الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك ، فقال : كيف تحاربونني ؟ قالوا : نحاربك بسهام السحر ، قال : وما سهام السحر ؟ قالوا : ندعو عليك ، فقال المعتصم : لا طاقة لي بذلك وخرج من بغداد ونزل سامراء...»

المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 64 – 66

⁹¹ فاروق عمر ، المرجع السابق ، ص ص : 336 – 337

⁹² الواثق : هارون بن محمد بن هارون ، تولى الخلافة بعد المعتصم سنة 227هـ و توفي سنة 232هـ .

المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 79

⁹³ المتوكل : جعفر بن محمد بن هارون تولى الخلافة سنة 232هـ بعد وفاة أخيه الواثق و قتل سنة 247هـ . المسعودي

: المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 103

⁹⁴ فاروق عمر : المرجع السابق ، ص : 338

⁹⁵ يوسف العش : المرجع السابق ، ص ص : 92 – 93

H.gibb: government and islam under theEarly Abbasids,the poltical collapse of islam, in
Lelaboration delislam, paris:Centers detudes superiors specializes pressesUniversitaires de
france , 1984, pp:120 ,121

⁹⁶ * المتوكلية : مدينة بناها المتوكل على الله قرب سامرا ، بنى فيها قصرا سماه الجعفري وبها قتل في فانتقل الناس

عنها إلى سامرا ، وخربت . ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 53

طلب لقوة و دعم وشرعية على صعيد السياسة ، لوقف الاستبداد التركي ، و تحويل قاعدة الأمان للدولة من الجند التركي المحارب إلى أن تصير العامة المتسنة عبر رموزها و قادتها هي التي تسند الدولة وتحميها ، الأمر الذي يمنحنا فهم المسلكية السياسية للمتوكل و ما عرف به من لين و تساهل وتلطف بله و تحنن و تقرب للعوام و الفئات الشعبية من أهل السنة خاصة ⁹⁷ .

لكن سياسة المتوكل لم يقدر لها النجاح ، فراح ضحية انتباه القادة العسكريين الأتراك لما يخططه لهم فتآمروا عليه مع ابنه المنتصر ⁹⁸ لتنتهي به محاولته مجنونا في دمه ، و ليستأنف هؤلاء أكثر مشاهد التاريخ الإسلامي عبثية و فساد و سوء استغلال للنفوذ و استهتار بمنصب الخلافة و شخص الخليفة و المصلحة العامة للرعية ⁹⁹ .

- المعارضة السياسية للحكم العباسي في دوره الأول :

لقد ورث العباسيون التركيبية نفسها من المعارضة التي شهدها العهد الأموي ؛ كالشيعة والخوارج ، كذا الخلافات العصبية بين القبائل العربية الكبيرة و التي تؤدي في بعض من الأحيان إلى صراعات دموية . كما شهد هذا العصر جملة أخرى من الثورات و الانتفاضات نستعرض أهمها فيما يلي :

1 - النزاعات والعصبيات القبليّة :

نَجَمَتُ العصبية الجاهلية بقرنها بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، وتفاقت حتى آتت ثمارها المُرّة في حكم الخليفة الثالث عثمان ، وتمثّلت في أجلى صورها خلال تمكن بني أمية من الوصول إلى عرش الخلافة و الإشراف على مقدّرات الأمة الإسلامية .

⁹⁷ أنظر التحليل العميق في : فاروق عمر : المصدر نفسه ، ص : 338

⁹⁸ المنتصر : محمد بن جعفر تولى الخلافة اثر مقتل أبيه المتوكل سنة 247هـ ومات سنة 248هـ . المسعودي :

المصدر السابق ، ج 4، ص : 157

⁹⁹ عصام محمد شبارو : السلاطين في المشرق العربي ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1994 ، ص : 10

وأقام الأمويون دولتهم على أساس من العصبية القبلية، ثم انهار سلطانهم بسبب منها ، و لم يُقَصِّر الدعاة للرضا من آل محمد في الإفادة منها ؛ ولعل أوضح صورة لذلك تتجلى خلال تفاصيل نشاط أبي مسلم الخراساني. حيث ينقل المؤرخون عبارة له تفصح عن مدى سروره بهذه الاختلافات بين طائفتين كبيرتين من الأمويين في خراسان، حيث قال : « اللهم أفرغ عليهما الصبر ، وانزع منهما النصر »¹⁰⁰.

لكن هذه العصبية ظلت حية تعمل عملها حتى بعد نجاح الثورة ، فاشتعلت في زمن الخلفاء العباسيين الأوائل منهم الخلافات والنزاعات القبلية . ونقل المؤرخون أن الحرب دارت في الشام بين المضريّة واليمانيّة، فسقط لهم أعداد كبيرة من الطرفين قتلى¹⁰¹؛ وظهرت العصبية بحمص*¹⁰² و هي المركز الثاني لبلاد الشام¹⁰³.

وحدثت فتنة عطف بن سفيان الأزدي¹⁰⁴ من قبائل عرب الجنوب ، فقد ثار في الموصل*¹⁰⁵ سنة 177 هـ - 793 م ، وأجبر هارون على التحرك لمساعدة عامله على الموصل و كانت نتيجة ذلك تدمير برج الموصل وتخريبها وإخماد فتنة الأزدي، فسار عطف إلى أرمينية*¹⁰⁶ ثم إلى الرقة*¹⁰⁷ فأقام فيها¹⁰⁸.

واشتعلت الفتنة في مصر، وظهرت العصبية القبلية، وتمردت قبائل قيس وقضاعة ؛ فاضطرّ الرشيد إلى إرسال قائده هرثمة بن أعين لإخماد الفتنة¹⁰⁹. و هكذا اشتعلت الخلافات بين العصبية المختلفة وعمّت النزاعات القبلية أرجاء خراسان في عصر هارون¹¹⁰ ،

¹⁰⁰ اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 341

¹⁰¹ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ج 2 ، ص : 47

¹⁰² * حمص : مدينة بأرض الشام كانت حصينة ، وهي أصح بلاد الشام هواء و تربة. القزويني : آثار البلاد ، المصدر السابق ، ص : 184

¹⁰³ اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 410

¹⁰⁴ لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة للطبقات عدا ما يرد ذكره في الأحداث .

¹⁰⁵ * الموصل : المدينة العظيمة المشهورة بالقرب من نهر دجلة بالعراق. القزويني : ، المصدر السابق ، ص : 361

¹⁰⁶ * أرمينية : ناحية بين أذربيجان و الروم ذات مدن و قرى وقلاع كثيرة . القزويني : ، المصدر السابق ، ص : 495

¹⁰⁷ * الرقة : مدينة مشهورة على الفرات ، بينها و بين حران ثلاثة أيام ، تقع على الجانب الشرقي من الفرات .

ياقوت الحموي : معجم ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 59

¹⁰⁸ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 144. و ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 69

¹⁰⁹ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 467

¹¹⁰ ابن كثير : المصدر السابق ، ص ص : 154 - 153

ونشبت الصراعات بينها لتستعيد سيرتها كما كانت أيام بني أمية ، و تصنع ذات الخطر الذي صنعته للدولة حينها .

2 – ثورات العلويين :

شهد عهد المنصور سوء علاقة بين الدولة و آل البيت ، نظرا لسببين :

أولا : تخوّف المنصور من قيامهم بالمطالبة بحقهم في الخلافة لأنها تحققت بفضل شعبيتهم ؛ إذ أن البيعة الأولى كانت أساسا لمحمد بن عبد الله المكنى بذي النفس الزكية .

ثانيا : عزم أبناء عبد الله بن الحسن على الاستمرار في المطالبة بحقهم التاريخي و الشرعي ، بمقتضى البيعة التي بادر إليها المنصور ذاته للنفس الزكية . لذلك سلكت الدولة مسلك المراقبة المستمرة و التضيق الدائم لتحركات العلويين و آل الحسن بوجه خاص . فكان ما خشيه المنصور ، حيث ثار محمد في المدينة مع طائفة من العلويين وجماعة من أتباعه ، و جرت بينها مكاتبات تدور في مجملها حول الحق الشرعي في الخلافة و المآخذ التي يأخذها كل طرف على الآخر¹¹¹ ، و امتدت الثورة إلى البصرة و منها إلى الكوفة بقيادة أخيه إبراهيم حيث التقى بجيش المنصور ودارت بينهما وقائع كادت أن تعصف بالمنصور ذاته لكن إبراهيم قُتل وفشلت ثورته¹¹² .

ثم كانت ثورة الحسين بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، وكان حسن السيرة ، كاملاً فاضلاً، ثار على الهادي سنة 169 هـ — 785م إثر موسم الحجّ ، لكنّ ثورته قُمعت في منطقة فح¹¹³ * قرب مكة¹¹⁴ ، وهرب الأخ الثالث يحيى بن عبد الله بعد قتل محمد النفس الزكية متخفياً من بلد إلى بلد، ثمّ طرق سمع الرشيد أنّ يحيى في بلاد الدَّيْلَم¹¹⁵ * ، فعين

¹¹¹ الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، ص ص : 211 — 212

محمد عبد الغني حسن : دراسات في الأدب العربي و التاريخ ، د ط ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة ، د تـ

ص : 262 — 263

¹¹² المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 373 — 376

¹¹³ * فح : واد بمكة ، قتل فيه الحسين بن علي بن الحسن . ياقوت الحموي : معجم ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص :

237

¹¹⁴ محمد الخضري بك : المرجع السابق ، ص : 92 . و عبد المنعم ماجد : العصر العباسي ، المرجع السابق ، ج 1 ،

ص : 186

¹¹⁵ * الديلم : بلاد قرب قزوین ، كثيرة الجبال و الوهاد . القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 330

الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي¹¹⁶ * حاكماً على خراسان وشمال إيران وأمره بقتله، فجّهز الفضل جيشاً قوامه خمسون ألف رجل وتوجّه إلى جرجان و طبرستان¹¹⁷ * . ولمّا رأى يحيى عجزه عن مقابلة جيش الفضل ذاكراًه وطلب منه أن يأخذ له أماناً من هارون ، فأمنه الرشيد . ثمّ إنّ يحيى بن عبد الله قدّم مع الفضل إلى بغداد ، فأكرمه الرشيد ، ثمّ ألقاه في السجن¹¹⁸ .

لقد غدا مجرّد الاتّهام بمناصرة العلويين وأهل البيت كافياً لتعريض المتّهم للمراقبة . فاستخدم الاتّهام بالزندقة أحياناً لقمع أنصار أهل البيت ، وسبق أنّ ذكرنا أن المهدي العبّاسي بدأ حكمه بتخفيف الوطء عن أهل البيت والطالبين إلى حدّ ما ، لكنّه لم يلبث إلاّ يسيراً حتّى شدّد النكير عليهم ، فصار الاتّهام بالزندقة كافياً لتعريض حتّى المقربين للحاكم للحبس والقتل . يقول المسعودي : « ... ثمّ اختصّ المهديّ يعقوب بن داود السلمي¹¹⁹ * ، وخرج كتابه إلى الدواوين « أن أمير المؤمنين قدّ آخاه » ، وكان يعقوب يصل إليه في كلّ وقت دون الناس كلّهم، ثمّ اتّهمه بشيءٍ من الطالبين فهم بقتله ... » ، ثمّ حبسه فبقي في حبسه إلى أيّام الرشيد، فأطلقه الرشيد¹²⁰ .

ونقل الكثير من المؤرّخين قصّة البرامكة : يحيى وولديه الفضل وجعفر، وتحدّثوا عن النفوذ الواسع الذي اكتسبوه في بلاط هارون الرشيد، و أنّ اقتدار هارون وشوكته ترجع إلى جهودهم. ثمّ ذكر هؤلاء المؤرّخون أنّ أحد أسباب سقوط البرامكة اتّهامهم بمناصرة العلويين ، حيث أدين الفضل — بصورة خاصّة — بهذا الاتّهام . وربما حاك خصوم البرامكة هذه التهمة في ظل التنافس الفارسي — العربي على السلطة¹²¹ .

¹¹⁶ * **الفضل بن يحيى** : أبو العبّاس البرمكي ، من أكثر البرامكة كرماً و جوداً ، توفي في السجن منكوباً من طرف الرشيد سنة 193 هـ . ابن خلّكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 27 — 36

¹¹⁷ * **طبرستان** : ناحية بين العراق و خراسان ذات مدن و قرى كثيرة . القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 219

¹¹⁸ نفس المصدر ، ص : 106

ابن خلّكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 19 — 26

¹¹⁹ * **يعقوب بن داود** : أحد رجال الدولة العبّاسية في عهد المهدي قبل أن ينكبه و يحبسه حتّى أطلقه الرشيد ، توفي سنة

182 هـ . ابن خلّكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 19 — 26

¹²⁰ المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 395

¹²¹ يوسف العش : المرجع السابق : ص : 58

و خرج كذلك محمد بن إبراهيم بن الفضل الحسني المكنى بأبي السرايا على عهد المأمون سنة 199هـ — 814م¹²² ، و خرج باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر سنة 200هـ وقد تمكن المأمون من القضاء عليهما¹²³ . و استمرت ثورات العلويين تشتعل كلما و جددت ظروفًا مناسبة ، حيث شهد عهد المعتصم خروج محمد بن القاسم العلوي في خراسان فكانت نهايته كسابقه¹²⁴ ، أما عهد المتوكل ، رغم انحرافه المعلن و الاستفزازي عن آل البيت إلا أن عهده سلم من محاولاتهم ، ليستأنفوا في العهود التالية .

لست بصدد بحث ثورات العلويين في هذه الفترة على نحو كامل، لكننا بصدد مناقشة موضوع ثورات العلويين بوصفه واحداً من المسائل الموجودة في المجتمع الإسلامي آنذاك وواحداً من المشكلات التي واجهها الحكم العباسي، من أجل أن نتعرف على نحو أفضل على الشرائط الاجتماعية الحاكمة في تلك الفترة .

3 — سائر الثورات

لقد تقاسم الخوارج ، و المَحْمَرَّة من أتباع أبي مسلم الخراساني والباطنية أهم الثورات التي ضايقَت الحكم العباسي في هذه الفترة .

أ — ثورات الخوارج :

اشتهر الخوارج بثوراتهم على الحكم الأموي، وقد استمرت ثوراتهم على العباسيين في عصر الحكم العباسي أيضاً، فسببوا له مشكلات عديدة .

والملاحظ في هذه الفترة أن أهم ثورات الخوارج قد حدثت في خراسان ، ربما مرده للكيفية التي كان حاكم خراسان علي بن عيسى بن ماهان يدير بها الوضع هناك ، و قد عُرف علي بقسوته وفضاظته ، كما كان وضع خراسان في تلك الفترة مضطرباً بعد تحملها عبء الثورة على الحكم الأموي¹²⁵ .

¹²² عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الأول ، د ط ، ج 1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، سنة 1973 ، ص : 308

¹²³ محمد الخضري بك : المرجع السابق ، ص ص : 162 — 164

¹²⁴ المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 62

¹²⁵ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 120 — 121

أما الخوارج فقد ثاروا في خراسان سنة 177 هـ — 793م بقيادة رجل منهم يُدعى الحُصين الخارجي — وكان من الموالي — فتمكّن من السيطرة على نواحي بوشنج¹²⁶ * و هرات¹²⁷ * وسائر بلاد الشرق الإسلامي، ثم قُتل في النهاية على يد عامل خراسان¹²⁸ .

وثار في سنة 179 هـ — 795م حمزة بن أترك السجستاني على عليّ بن عيسى وعمّاله في خراسان وهرات وبوشنج ثم انهزم جيشه أمام القادة الذين أرسلهم هارون — ومن بينهم عليّ بن عيسى — وقُمعت ثورته. وقد استطاعت هذه الثورات أن تشكّل تهديداً جدياً للحكم القائم، وأن تكسب تعاطفا نسبيا معها¹²⁹ .

ب — ثورات المُحمّرة، الباطنيّة، وسواها :

نظراً لموقع شمال بلاد فارس الطبيعيّ المتميز بصعوبة مسالكه و وعورة أرضه ، فإنّه غداً مناسباً لكل من تسول له نفسه الثورة على الدولة القائمة ، إذ لم تكن السيطرة على تلك المناطق أمراً ميسوراً للولاة والعمّال . فثار المحمّرة في جُرجان¹³⁰ * سنة 162 هـ — 779م زمن المهدي ، وكانوا يلقّبون بأصحاب الراية الحمراء، فاتّحدوا مع الخرميّة¹³¹ وقالوا إنّ أبا مسلم الخراساني حيّ يُرزق، وطالبوا باسترجاع الملك، وأمّروا عليهم أحد أبناء أبي مسلم الخراساني¹³²

كما ثارت الخرميّة والباطنيّة في أصفهان¹³³ * و همدان¹³⁴ * في عهد الرشيد ، فتغلّب عليهم ، وأوقع فيهم مقتلة عظيمة، وساق ذراريهم سبايا إلى بغداد¹³⁵ .

¹²⁶ * بوشنج : مدينة كبيرة من مدن خراسان ذات مياه و بساتين كثيرة . القزويني : المصدر السابق ، ص : 337

¹²⁷ * هرات : مدينة بفارس قرب اصطخر كثيرة البساتين والخيرات . القزويني : المصدر نفسه، ص : 281

¹²⁸ محمود شاكر : المرجع السابق ، ص : 167

¹²⁹ الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 69 — 72

¹³⁰ * جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان فبعض ، قيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن

أبي صفرة . القزويني : المصدر السابق : ص : 348 . و ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 119

¹³¹ الخرميّة : وهي الفرقة التي تتولى أبا مسلم وتدعى بالمسلمية القائلون بأبي مسلم وإمامته، وقد تنازعوا في ذلك بعد وفاته فمنهم من رأى أنّه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملاً الأرض عدلاً، وفرقة قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة، وهؤلاء يُدعَوْنَ الفاطمية . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 371

¹³² الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، 342 . و اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 397

¹³³ * أصفهان : مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ويسرفون في وصف عظمها حتى يتجاوزوا حد الاقتصاد إلى غاية الإسراف . وأصفهان اسم للإقليم بأسره ، وكانت مدينتها أولاً جيا ثم صارت اليهودية ، وهي من نواحي الجبل

ج - الانتفاضات :

حصلت في طول الفترة التاريخية لهذا العصر جملة من الانتفاضات في أصقاع متعددة من الرقعة الإسلامية ، كخراسان و الموصل و الشام و مصر و الجزيرة¹³⁶* و غيرها ، احتجاجاً على أمر عديدة أهمها قضايا العصبية و ميل الولاة و العمال لقبيلة دون الأخرى ، و جباية الخراج و عَسَف الولاة و سوء المعاملة وأمور أخرى ، فكان من بينها ثورة ثروان بن سيف بسواد العراق سنة 191هـ ، و ثورة أهل خراسان على علي بن عيسى و التفافهم حول رافع بن نصر (أو رافع بن الليث) سنة 190هـ - 806م ، إذ تبعه منهم عدد كبير وعلماً أمرهم حتى أجبر الرشيد على السفر بنفسه إلى خراسان¹³⁷ و غيرها¹³⁸.

الوجه الحضاري الدنيوي للحكم العباسي :

نستطيع ملاحظة صدق نظرية ابن خلدون في مراحل تشكل الدولة التي تبدأ من الثورة التي يكون جيلها من القادة موسومين بالقوة و الصلابة و الجلد لغاية استقرارها و قوتها و قد كان عصر السفّاح والمنصور و المهدي عصر البناء و التثبيت ، تلاءم عصر الاستمتاع بالحكم وقطف ثماره، وهو عصر بلغ أوجه في زمن هارون الرشيد. وقد امتازت طريقة العيش - وخاصة لدى الحكّام - بكونها خليطاً من حياة سكّنة الحجاز وبلاد فارس الساسانية، فقد جسّدت بعض وجوه الحياة في ذلك العصر عادات البادية، بينما

كانت مساحة وأصبهان ثمانين فرسخاً في مثلها وهي ستة عشر رستاقاً كل رستاق ثلاثمائة وستون قرية قديمة سوى المحدثه .

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 206 - 207

¹³⁴ * **همذان** : مدينة مشهورة من مدن الجبال ، لها رقعة واسعة لم تزل محل سرير الملوك ، كثيرة البرد .

القزويني : المصدر السابق : ص : 483

¹³⁵ اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 397

¹³⁶ * **الجزيرة** : بلاد تشتمل على ديار بكر و مضرو ربيعة ، و إنما سميت بالجزيرة لأنها بين دجلة و الفرات .

القزويني : آثار البلاد ، المصدر السابق ، ص : 351

¹³⁷ : « وفيها (في سنة 191 هـ) غلظ أمر رافع بن ليث بسمرقند ، وفيها كتب أهل « نَسَف » إلى رافع يعطونه الطاعة

ويسألونه أن يوجّه إليهم من يُعينهم على قتل عيسى بن علي .. فأثّوا عيسى بن علي فأحدقوا به وقتلوه ... » .

الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 100

¹³⁸ مثل: ثورة نصر بن شيث بحلب على المأمون ، و بني نمير في اليمامة على المعتصم. أنظر :

جمال سرور : الحياة السياسية ، لمرجع السابق ، ص : 227 . والخضري بك : المرجع السابق ، ص : 228

امتازت الوجوه الأخرى — إثر نفوذ الفرس في البلاط — بالرفاهية والترف الذي اشتهر به الملوك الساسانيون . و شاع اتخاذ الجواري ، والقيان و المحضيات . الأمر الذي أفرز ثقافة كاملة و أدبيات اختصت في الحديث عن التفاصيل التي عجت بها القصور المنتزهات و مجالس الطرب و الأنس ، بحيث نستطيع أن نجعله العصر الذي أسس لمجمل ما نطلق عليه الحضارة الإسلامية و نعني الوجه المادي لها .

فجاء هارون الرشيد وحاشيته نموذجاً لأخلاق الناس في عصره ، و كان أصدق صورة لما عرفه تطور الحياة ، الأمر الذي صنع أسطوره المستقرة في ذاكرة التاريخ و الحضارة الإسلامية ، فكانت سيرته مثار التساؤل و الاستغراب ، للمتناقضات التي وجدت لها اصطلاحاً في شخصيته ، أين يجتمع سرور المتعة في دهايز القصر و المقصورات مع البكاء الحار لدى سماع أشعار أبي العتاهية و و عذ الوعاظ¹³⁹ ، و قد تواتر النقل أن هارون كان يصلي مائة ركعة في اليوم، وأنه سار على قدميه إلى مكة للحج في إحدى السنوات، وأنه كان إذا حج اصطحب معه مائة نفر من الفقهاء، وأنه إذا لم يتمكن من الحج سنة أرسل ثلاثمائة فقيهاً للحج على نفقته بالنفقة السابعة و الكسوة التامة¹⁴⁰ .

أما الصورة الأخرى فقد توسع المسعودي في وصف تفاصيلها ؛ بحيث ترك انطباعاتاً يختلف اختلافاً جذرياً عن صورته حاجاً غازياً¹⁴¹ ، و ذكر غيره من المؤرخين أن قصر هارون كان يعج بالجواري المجيدات لكل صنوف المتعة و اللهو ، و ذكروا كثيراً من قصص السمر وحكايات الترف ، وكان الولاة يتقربون إلى « الخليفة » بإرسال الهدايا الثمينة بلا حساب، وكانت هداياهم تتناسب مع ذوق الخليفة وتلبي رغبات البلاط وتتسجم مع الجو السائد في بغداد¹⁴² . وفي زمن هارون مات محمد بن سليمان والي البصرة، وكان هارون قد نقم عليه بدسياسة من أخيه جعفر، فقبض أمواله بالبصرة فكان مبلغها نيفا و خمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات، كما نقل المسعودي أنه كان يغل كل يوم مائة ألف

¹³⁹ أبو سعيد الآبي : نشر الدر ، ت عثمان بو غانمي ، د ط ، الدار التونسي للنشر ، تونس ، سنة 1983 ص : 114

¹⁴⁰ ابن كثير : المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 178

¹⁴¹ المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 456 — 457

« ... وكان أبو صدقة يوقع بالقضيب ، مطبوعاً حاذقاً، طيب العشرة مليح البادرة، فاقترح الرشيد — وقد عمل فيه النبيذ — صوتاً فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنيه، ففعل ، فلم يطرب عليه... » . أنظر كذلك صفحة 455 — 456

¹⁴² ابن عاصم الغرناطي : حقائق الأزاهر ، ت عبد اللطيف عبد الحليم ، د ط ، المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة 1992

درهم¹⁴³ . و جاءت الروايات عن البرامكة في هذا الصدد ما يكاد يقترب من الأساطير، خاصة منها المتعلقة بجعفر البرمكي ؛ حيث جاء عنه في باب الترف و المتعة أنه : « ... اشترى جارية بأربعين ألف دينار... » و « ... كانت أمه ترسل إليه كل يوم جمعة جارية بكرا عذراء ، وكان لا يطأ الجارية حتى يأخذ شيئاً من النبيذ ... »¹⁴⁴ . وقد أشار اليعقوبي في تاريخه إلى بعض السبل المتعسفة التي اتبعتها الرشيد في كسب هذه الثروات العظيمة، فقال: « ... وأخذ الرشيدُ العُمالَ والبُناةَ والدَّهَّاقينَ وأصحاب الضياع والمُبْتَاعين للغلات والمقبّلين — وكان عليهم أموال مجتمعة — فولّى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم بن سلم¹⁴⁵ فطلبهم بصنوفٍ من العذاب ... »¹⁴⁶ .

و يقص المؤرخون كيف أن عليّ بن عيسى أرسل للرشيد هدية لم يُرسلها أحد قبله ، فلمّا عُرِضت هديّته على الرشيد بُهت وتحيّر وسرّ سروراً كبيراً ، ثمّ قال لجعفر البرمكي : أين كانت هذه أيام أخيك ؟ ، فأجابه جعفر معرضاً بالظلم الحاصل من علي : كانت في منازل أربابها فلم تُعجب هارونَ إجابةً جعفر¹⁴⁷ .

وقد افرز العصر مجموعة الشعراء الذين عرفوا بالتهتك و الخلاعة و رقّة الدين ، و كان أبو نواس ممثلاً لها و الذائد عن مذهبها في جل أشعاره ، حيث كان يدور بجماعته على الحانات وأديرة أطراف بغداد، حيث يُعاقرون الخمرة ويرتكبون فنون المجون ليصفها في شعره¹⁴⁸ .

¹⁴³ المصدر نفسه ، ص : 428

¹⁴⁴ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 332 — 333

¹⁴⁵ لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة

¹⁴⁶ اليعقوبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 415

¹⁴⁷ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 344

¹⁴⁸ إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني : المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبيذة و الخمور : ت عبد الحفيظ منصور ،

د ط ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، سنة 1976 ، ص : 220 — 234

حامد حفني داود : تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ط 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة

1993 ، ص ص : 23 — 24

مصطفى بيطام : مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1995 ، ص ص : 75 — 88

و قد جهد ابن خلدون في — خضم سيل النصوص و الأخبار التي عجت بها المجاميع الأدبية بخاصة — في الدفاع عن هارون ، مؤولا ما لم يستطع دفعه من الروايات مع ما يتناسب مع مسلكية خليفة يغزو و يحج و يعاشر الفقهاء و يسامر الزهاد¹⁴⁹ .

وعلى أي حال ، كان عصر هارون عصر الحكايات الخيالية لألف ليلة وليلة، وكان عصر الملذات التي لا حصر لها ، لكنه أيضا عصر القوة و صلابة الدولة ، و وفرة الرخاء الاقتصادي . حيث المال يبحث عن مصادر صرفه¹⁵⁰ ، و حيث رقة الدين مدعاة لتطوير أشكال المتع حتى ما يعارض الفطرة السوية منها .

أهل السنة و الجماعة ؛ النشأة و التكوين :

المفهوم :

* تعريف السنة لغة : " الطريقة المسلوكة وأصلها من قولهم سننت الشيء بالمسن إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنا أي طريا وقيل هي الطريقة المعتادة سواء كانت حسنة أو سيئة ، كما في الحديث الصحيح : " مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " ¹⁵¹

¹⁴⁹ ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص ص : 39 — 30

¹⁵⁰ حسن أحمد محمود و آخرون : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، د ط ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د ت ، ص

171 :

أحمد عبد الرزاق أحمد : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة 1999

ص ص : 150 — 151

¹⁵¹ الحديث صحيح ورد في صحيح مسلم أنظر : مسلم بن الحجاج النيسابوري : صحيح مسلم ، ت محمد فؤاد عبد الباقي ،

د ط ، ج 4 ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، د ت ، ص : 2059

وتطلق في عرف الفقهاء على ما يقابل البدعة ، ويراد بها كل حكم يستند إلى أصول الشريعة . في مقابل البدعة فإنها تطلق على " ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة " ¹⁵² . أما عند الأصوليين فهم متفقون على صدقها على " ما صدر عن النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير ¹⁵³ .

من خلال هذه التعريفات يتبين أن لـ " السنة " في الاصطلاح مفهومين أو معنيين :

الأول : ما يقابل البدعة أو ما ليس له أساس في الشرع ¹⁵⁴ .

الثاني : قول الرسول وفعله وتقريره . أما قولنا " أهل السنة " أي أصحاب أو أتباع المقتدون بسنة النبي من فعل وقول وتقرير ¹⁵⁵ .

النشأة التاريخية :

لقد كانت الفتنة وما صاحبها من أحداث ثم ما تلاها من وقائع ؛ المنبع الذي صدرت عنه مختلف الاتجاهات الإسلامية التي أخذت في المدونات الكلامية مسمى الفرق فأفرزت ما كان يعتل ببطء في أعماق المجتمع الإسلامي ، وما ظل يتأسس منذ نجاح حركة الفتوح

¹⁵² سليمان الندوي : تحقيق معنى السنة ، تـ عبد الجبار الدهلوي ، د ط ، دار الفجر دمشق ، د ت ، ص ص : 71 —

74

¹⁵³ نفس المرجع ، نفس الصفحة

عبد الكريم الرديني : مباحث في تاريخ الحديث و مصطلحه ، د ط ، شركة شهاب ، الجزائر ، د ت ، ص ص : 12 —

15

أنظر وجهة نظر حديثة : محمد أركون : الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد ، تـ هاشم صالح ، ط 3 ، دار الساقي ، المغرب
سنة 1998 ، ص ص : 101 — 102

¹⁵⁴ أبو محمد حسن بن علي البربهاري : شرح السنة ، د ط ، دار الإمام مالك ، الجزائر ، سنة 2003 ، ص ص :

14 — 15

¹⁵⁵ جلال الدين السيوطي: مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، ط 2 ، مطابع الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ،

سنة 1408هـ — ص : 72

التي أورثت الأمة الإسلامية تركة الإمبراطوريتين الفارسية و الرومانية ، وما كان مستطاعا استيعاب الوتيرة المتسارعة التي تحققت بها الفتوحات وما كانت تقتضيها من تدابير ورؤى.

لقد كان عمر بابا مقفلا على الفتنة ، و كأنها كانت تنتظر مقتله ليَهيجَ هَيْجُهَا¹⁵⁶ ، وما كان بمستطاع عثمان وقد سلك سياسة مرنة منفتحة أن يستوعب الصراع الذي كان قد بدأ يحتدم في الأمصار، إذ أخذت بذور الشقاق و الاختلاف تنمو بادئة من صميم القرآن ، حيث أرسل إليه أحد الصحابة¹⁵⁷ : «...أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كاختلاف اليهود والنصارى...»¹⁵⁸. في الحين الذي ذاعت فيه صيحات التذمر و النقد مستهدفة مسلكيته¹⁵⁹ ، متهمة إياه تهما شتى . وتوالت الأحداث و تطورت بوتيرة متسارعة في جو لا يخلو من غموض ؛ مما يوحي بوجود أصابع مغرضة كانت تعبث بمكتسبات الأمة لتجهضها ، سواء من الفرس الموتورين أو من اليهود الذين أجلاهم عمر من الجزيرة العربية دون رجعة .¹⁶⁰ يعضد هذه الأهداف الأجنبية رغبة أموية في احتكار خيرات السواد وعوائد الغنائم و الفيء ممن أعشت خضرة السواد أعينهم عن الوفاء بمبدأ المساواة الإسلامي «...إِنْ هَذَا السَّوَادُ بُسْتَانٌ لِقْرِيشٍ...»¹⁶¹. و ينتهي عثمان نهاية دموية بعد حصار مرير في داره بعد أن أطلق نبوءته المنذرة : « ... فوا لله لئن قتلتموني لا تحاربون بعدي جميعاً ، و لا تُصلون بعدي جميعاً ، ولا تقاتلون بعدي جميعاً عدواً أبداً...»¹⁶² . وتطورت الأحداث لتصل إلى الصراع

¹⁵⁶ نفس المصدر ، ص : 219

¹⁵⁷ هو الصحابي حذيفة بن اليمان

¹⁵⁸ ابن كثير : المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 174

¹⁵⁹ عبد الله بن مسلم بن قتيبة : الإمامة و السياسة ، د ط ، ج 1 ، تـ طه محمد الزيني ، دار المعرفة ، بيروت ، د ت

ص : 35

¹⁶⁰ لقد قتل عمر على يد أبي لؤلؤة المجوسي ثأراً للفرس ، أما اليهود فيحضرون ممثلين في شخصية عبد الله بن سبأ الغريبة .

¹⁶¹ المسعودي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 401 — 402 . جاء فيه : « ... فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن

يصعد المنبر حتى يُغسل ، وأمر بغسله ، وقال: إن الوليد كان نجساً رجساً، فلما أتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة فاستبد بالأموال، وقال في بعض الأيام أو كتب به عثمان : إنما هذا السواد قطين لقريش، فقال له الأشتر، وهو مالك بن الحارث النخعي: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رامحنا بستاناً لك ولقومك؟ ثم خرج إلى عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة فذكروا سوء سيرة سعيد بن العاص، وسألوا عزله عنهم...»

ابن كثير: المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص ص : 133 — 134

¹⁶² ابن كثير : المصدر السابق ، ص : 148

بين الإمام علي و معاوية للحد الذي غدا مستعصيا على التفاهم إلا من خلال السيف ، لأن علي ظل مصرا على استحصال الطاعة من معاوية و من معه من أهل الشام بمقتضى حق الخلافة¹⁶³ ، في الوقت الذي استمر معاوية يطالب فيه بالمبادرة بالثأر من قتلة عثمان و اتهام علي بحمايتهم¹⁶⁴ ، الأمر الذي جر غالبية الأمة إلى الوقوف إما على جانب علي أو معاوية ، في الوقت الذي فضل بعض كبار الصحابة و صغارهم اعتزال الصراع وانتظار النتيجة التي ينكشف عنها¹⁶⁵ .

و كانت الأفكار تصاحب الأحداث و تتطور بتطورها¹⁶⁶ ، و كان صف علي أكثر تنوعا و أقل انسجاما ، الشيء الذي عرضه لانقسامات عديدة في صفوفه ، جعلته يخضع من غير رضا منه إلى الحل السلمي عبر ما عرف بـ " التحكيم "¹⁶⁷ ، لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح فعاد ينظم صفوفه للاستمرار في نضاله ، لكن الإختلالات العميقة في صفه أدت في النهاية إلى إفراز جماعة من القراء المتعنتين الذين حملوا بعد ذلك مسمى " الخوارج " ¹⁶⁸؛ و بلغ اختلافه معهم لحد الصدام المسلح¹⁶⁹ حيث انتصر عليهم ، فولت فلولهم تدبر مكيدة

¹⁶³ ابن قتيبة : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 48 — 49

¹⁶⁴ سالم البهنساوي : الخلافة و الخلفاء الراشدون بين الشورى و الديمقراطية ، ط 1 ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة

سنة 1991 ، ص ص : 277 — 278

¹⁶⁵ أبو محمد بن قتيبة : الإمامة و السياسة ، ت طه محمد الزيني ، د ط ، دار المعرفة ، بيروت ، د ت ص ص : 89 — 91

¹⁶⁶ موسى لقبال : " الخلافة أساس الفكر السياسي و الحزبية في المجتمع الإسلامي في عصوره الأولى " ، مجلة الدراسات التاريخية ، جامعة الجزائر ، العدد الرابع ، سنة 1988 ، ص ص : 23 — 28

¹⁶⁷ أبو بكر بن العربي : العواصم من القواصم ، تـ عمار طالبي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، د ت ، ص ص : 418 — 421

¹⁶⁸ المسعودي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 487 — 490

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1996

عمار طالبي : آراء الخوارج الكلامية ، د ط ، ج 1 ، المكتب المصري الحديث للطباعة و النشر ، الإسكندرية ، د ت ،

ص : 16

إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج ، ط 4 ، دار الشروق ، بيروت ، سنة 1982 ، ص ص : 43 — 44

¹⁶⁹ محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1976 ، ص

الخلاص ممن اعتبروهم رؤوس الفتنة ؛ علي و معاوية و عمرو بن العاص ، و هكذا قتل علي و نجا الآخرون . وقد دفعت النهاية المأساوية للإمام علي و ما تلاها من أحداث فريق آخر من مناصريه و محبيه إلى الالتزام بقضيته و التأكيد على فضله و أحقيته ، هذا الفريق الذي شكل بذرة للتيار الذي سيعرف فيما بعد مسمى " الشيعة " ¹⁷⁰ ، أما في الجهة الأخرى ؛ في أرض الشام فقد كانت الانتماء الأموي آخذاً في التعمق و الرسوخ انطلاقاً من " العثمانية " التي تمتلك تبرير وجودها في ذكرى الخليفة المقتول ، إلى التعلق بـ " القبيلة " القرشية العريقة في الشرف والوجاهة ¹⁷¹ . و هكذا انقسمت وحدة الجماعة الإسلامية إلى فرق أقرب في مضمونها إلى الأحزاب السياسية المعاصرة لكونها تتبنى مطالب سياسية وتدعي حقوقاً في السلطة مغلفة بالمقولات و المبررات الدينية .

وإثر مقتل علي آلت خلافته لابنه الحسن ، و يبدو أن للحسن رأي يختلف عن رأي أبيه في فهم الصراع و الآليات التي تحكمه ، و له رأي في طبيعة الجيش الذي أصبح يقوده ، كما يبدو أنه يملك طبيعة شخصية تختلف عن طبيعة والده ، فلم يكن يحبذ الاستمرار في القتال ، خاصة مع التخاذل الموجود في صفه ، فجنح للحل السلمي ¹⁷² ؛ و قد تم في العام الأربعين من الهجرة ؛ الذي أخذ اسم " عام الجماعة " ، احتفاءً بعودة الأمة إلى وحدتها ، و إن ظلت منقوصة الأطراف ، لإصرار الخوارج على استعمال السلاح و منابذة الأمة ، و

1 الشيعة : هي الفئة من المسلمين التي ناصرت علياً في مطالبته بالخلافة ثم تطورت عبر الأحداث و من خلال التضييق الأموي إلى فرقة كلامية لها أفكارها ثم ما فتئت تتطور و تتعمق إبان الحكم العباسي لتشكل جمهوراً من المسلمين يقابل في العادة جمهور السنة . دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ت محمد عبد الهادي أبو ريدة ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، د ت ، ص : 28

ديلاسي أوليري : الفكر العربي و مكانته في التاريخ ، ت تمام حسان ، د ط ، عالم الكتب ، القاهرة ، د ت ، ص : 110

حسين أحمد أمين : دليل المسلم الحزين ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر ، د ت ، ص ص : 115 — 120

ي . هل : الحضارة العربية ، ت إبراهيم العدوي ، د ط ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، د ت ، ص : 63

¹⁷¹ المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 36 — 37

¹⁷² نفس المصدر ، ج 2 ، ص ص : 521 — 523 .

ابن قتيبة : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 140 — 141

محمد أمين غالب الطويل : تاريخ العلويين ، ط 4 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1981 ، ص : 177

=

= لقد جاءت أحاديث عن النبي صلى الله عليه و سلم تبشر و تنوء بفعل الحسن ، و هي من قبيل النبوءات . راجع :

أبو العباس أحمد بن تيمية : الخلافة و الملك ، ت حماد سلامة ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، د ت ، ص : 84

تأكيد شيعة علي على حقه و حق أبنائه في الخلافة ، و رفض شرعية السلطة الأموية ، و مضى الاتجاهان للتطور والتعمق ، حيث خاض الخوارج سلسلة طويلة من الثورات و الغارات على طول تاريخ الحكم الأموي ؛ أرهقت الدولة و عجلت بسقوطه¹⁷³ ، و اتجه الشيعة إلى تطوير جملة من الأفكار الغالية لم تكن معزولة عن الأحداث المأساوية التي شهدها آل البيت طيلة الحكم الأموي ، والقيام ببعض الانتفاضات الفاشلة التي زادت في التضيق و المتابعة الأموية لكل من يدعي الهوى العلوي . أما الجمهور الأعظم فقد التف حول الدولة بدرجات مختلفة من القرب و البعد مدفوعا ببواعث و علل ونوايا متنوعة و متباينة .

إذن لقد أفصحت الفتنة و ما نتج عنها على اتجاهات ثلاثة : الاتجاه الخارجي ، و الاتجاه الشيعي ، و بقية الأمة " الجمهور الأعظم " . و ضم كل اتجاه في داخله جملة متباينة من القناعات و الرؤى و الإجهادات ، حيث تطورت إلى انقسامات و انشقاقات لم تتورع عن الوصول إلى الصراع المسلح .

ولقد كان الجمهور الأعظم جبة فضفاضة واسعة¹⁷⁴ ؛ غير متجانسة و غير منسجمة ، يجمع عناصرها الخضوع للدولة مجسدة في شخص معاوية و أنصاره و يفرقها الدواعي الضرورات المختلفة لهذا الخضوع ، بحيث نستطيع من خلال استقراء الروايات و الآثار إجمال هذه الدواعي في التالي :

— قسم وقف مع معاوية منذ البداية ملتزم بالولاء له و الطاعة : يمثلته العائلة الأموية وقطاع مهم من قريش و أهل الشام الذين شكلوا " عصبه الحكم " .

— قسم تحول إلى صف معاوية بعد مقتل علي : و هذا القسم يتوزع على فئات مختلفة يجمعها اعترافها بالدولة القائمة و تفرقها النوايا المختلفة ، و هي كالتالي :

¹⁷³ لقد حاول عمر بن عبد العزيز رأب الصدع ، إلا أن قصر مدة حكمه حال دون نجاح ذلك . أنظر :

أبو محمد عبد الله بن الحكم : عمر بن عبد العزيز ، ط 1 ، تـ أحمد عبيد ، دار الهدى ، مليلة ، سنة 1996 ، ص :

130

عبد الرحمن الشرقاوي : خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز ، ط 1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1987 ، ص

ص : 223 — 228

¹⁷⁴ إبراهيم رحمانى : محاضرات في المدخل للتشريع الإسلامي ، ط 1 ، شركة مزوار الوادي — الجزائر ، سنة 2005

ص : 71

• فئة استمرت مع علي و ابنه الحسن لغاية تنازله ، ثم انخرطت في صف معاوية طلبا لثمرات الحكم التي لوح إليها معاوية في خطابه الشهير بالمدينة ؛ و التي أخذت صفة المشاركة الحسنة و المؤكلة الجميلة ، و يمثل هؤلاء زياد بن أبيه عامل علي على بلاد فارس .

• فئة وقفت مع علي و الحسن حتى النهاية ، ثم انخرطت في الدولة بمقتضى اتفاق الجماعة بين الحسن و معاوية طلبا لرأب الصدع و تجاوز الفتنة¹⁷⁵ .

• فئة كانت قد اعتزلت الصراع خشية الخوض في الدماء ثم عادت لتدعم الدولة كضرورة لاستتباب الأمن و ضمان مصالح الأمة الدينية و الدنيوية ، و من بين هؤلاء عبد الله بن عمر و عبد الله بن عمرو و غيرهما .

و يجمع فئات هذا القسم مساندة الدولة الأموية القائمة لمقتضى الضرورة أو الاتفاق ويفرقها أيضا مسلكيتها و علاقتها المباشرة مع جهاز الدولة ؛ إذ يكشف استقرار النصوص المتعلقة بهذا القسم عن التمييز بين : فريق ساند الدولة و لم يجد غضاضة في العمل لها ومبادلتها المنافع والمصالح المادية كبعض الأشراف و الأعيان و وجوه الناس الذين حفظ لهم معاوية مكانتهم في خطته لإعادة هيكلة الأمة و استيعابها¹⁷⁶ ، و فريق آخر فضل

¹⁷⁵ و يمثل هؤلاء الأحنف بن قيس سيد بني تميم : «...كان من جلة التابعين وأكابرهم، وكان سيد قومه، موصوفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم، روى عن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وروى عنه الحسن البصري وأهل البصرة، وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين، ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين...». «...ولما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوماً فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة، فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أعمادها، وإن تدن من الحرب فترا ندن منها شبراً، وإن تمش إليها نهول إليها، ثم قام وخرج. وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين، من هذا الذي يتهدد ويتوعد قال: هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب...». أنظر :

ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 499-500

¹⁷⁶ مثل زياد ابن أبيه الذي كان عاملاً لعلي في بلاد فارس ثم قبل العمل في دولة معاوية بعدما ألحقه معاوية بنسب أبي سفيان «...ولما استلحق معاوية زياداً وقربه وأحسن إليه وولاه ، صار من أكبر الأعوان على بني علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه،...» .

ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 6 ، ص ص : 359

=

= ويورد ابن خلكان أيضا النص التالي «...ثم إن عبيد الله جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية .. فقال لهم معاوية: اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون

الاعتراف بالدولة انطلاقاً من كونها ضرورة لازمة للعودة بالأمة إلى وحدتها و تجاوز انقساماتها ، فانحصر تعامله مع جهاز الدولة في دائرة الضرورة و الضرورة تقدر بقدرها ؛ و قدرها لدى هؤلاء في الاكتفاء بتأييد الدولة مع الإصرار على اعتزال دوائر السلطة ، و التوقف نهائياً في أمر مشاركتها في السياسة و الحكم ، و صرف الوقت في العبادة و الجهاد و تعليم الناس¹⁷⁷ . في حين اكتفى فريق آخر بقبول بعض الوظائف الدينية اللازمة كالقضاء من غير مشاركة في التمتع بثمرات الحكم و التمرغ في نعمته¹⁷⁸ .

يعني هذا أن الدولة الأموية لم يقدر لها الحصول على إجماع الأمة الإسلامية على قبولها ومساندتها و الرضا بحكمها ، فأخذ الصراع السياسي منذ البداية طابع الجدل الديني ؛ بحيث كان الموقف السياسي عادة ما يعرض في صيغة الحكم الشرعي ، و استعرض الاختلاف السياسي نفسه في الساحة الإسلامية في صورة الفرق الكلامية ؛ بحيث كان واضحاً المعنى السياسي لكل من الخوارج و الشيعة والجمهور الأعظم الذي أخذ مسمى " أهل السنة والجماعة " المتحدّد بالموقف من الدولة الأموية قبولاً و رفضاً و بهوية صاحب الحق في أن يكون على عرش الخلافة ، و خاضت هذه الاتجاهات جدلاً كلامياً قاسياً مفعماً بالتكفير و التبديع و التفسير والإخراج من الملة و تطبيق هذه الأحكام في الواقع¹⁷⁹ ، لكن لم تمنع القسوة من حصول بعض مستويات الجدل الهادئ و النقاش والحوار العميق ، حيث نتج عنه

إلى بعد ثلاثة أيام. فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم وفيهم من عين غيره وسعوا في السر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه فجعل كل واحد يذكر شخصاً، وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت ... » .

ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 503

¹⁷⁷ مثل عبد الله بن عمر و عبد الله بن عمرو

¹⁷⁸ مثل القاضي شريح «...استقضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة، فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة لم

يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير، واستغفى الحجاج بن يوسف من القضاء فأعفاه... »

ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 460

¹⁷⁹ عبد القاهر البغدادي : كتاب الملل و النحل ، تـ ألبير نصري نادر ، ط 2 ، دار المشرق ، بيروت ، د ت ، ص

ص : 154 – 159

أحمد بن يحيى المرتضى : المنية و الأمل في شرح كتاب الملل والنحل ، تـ توما أرنولد ، د ط ، دار صادر بيروت ،

سنة 1316 هـ ، ص : 20

تكون اتجاه القدريّة¹⁸⁰ الذي تطور في بداية العهد العباسي و أخذ مسمى " المعتزلة " ، و جاء في بدايته نتاجا لتداخل سني — شيعي¹⁸¹ ، و تكون اتجاه " الإباضية " الذي جاء نتاج تداخل سني — خارجي¹⁸² ، و نشوء اتجاه " الزيدية " الذي كان نتاج تداخل سني — معتزلي — شيعي¹⁸³ .

وظلت الاتجاهات المناوئة للدولة تنتشط في الأمصار القاصية عن دمشق عاصمة الدولة نشاطا مسلحا ظاهرا كثيرا ما استطاعت الدولة تطويقه و التغلب العسكري عليه ، لكن نشاطا آخر كان يتنامى مستغلا هامش الحرية الكلامية التي أقرها معاوية لتجد فيه المعارضة الفاشلة أو الخائفة مجالا لممارسة السياسة على صعيد العلم و القول الديني ، و قد تناول الكلام بداية جملة من المسائل العقدية التي أفرزتها أوضاع ما بعد عثمان ، و تمس مفاهيم : الإيمان والإسلام و الكفر و الفسق و النفاق و الحكم في مرتكبي الذنوب و المعاصي ، و الفرق بين الصغائر و الكبائر ، و قد كانت هذه المسائل غارقة في صميم الراهن التاريخي ، صادرة عن انشغال ديني — سياسي ، رغم أنها تبدو متعالية و منفصلة و بعيدة عن الواقع . و لما كان كل اتجاه يعتقد انه يمتلك الحقيقة و الصواب و حق تقريرهما دون غيره و لما كانت الحقيقة في ذلك الوقت لا تعني شيئا غير الإسلام ؛ فقد نتج عن ذلك دعاوى احتكار كل اتجاه للإسلام ، مما يعني أن الآخرين فاسقين أو منافقين أو مارقين أو كفرة ؛ الأمر الذي

¹⁸⁰ القدريّة : فرقة نشأت في العراق ، سميت كذلك لقول أصحابها بحرية إرادة الإنسان ، و يقال أن أول من تكلم بالقدر هو

غيلان الدمشقي ، و قد تطورت في أواخر الحكم الأموي لتصير ما عرف بالمعتزلة ، على يد واصل بن عطاء و صاحبه عمرو بن عبيد ، و واضح أن قولها بالحرية ردة فعل على فكرة الجبر التي حاول بنو أمية نشرها لتبرير وصولهم للحكم . و يلاحظ ثمة تأثير متبادل بين الشيعة و المعتزلة ، إذ تأثر شيوخ المعتزلة بأئمة آل البيت في البداية ، ثم عاد الشيعة ليقتبسوا من أفكار المعتزلة ، ولعل دليل ذلك العلاقة الوطيدة بين الزيدية و المعتزلة . أنظر :

= جمال الدين بن نباتة المصري : شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط ، دار الفكر العربي ، د مكان النشر ، د ت ، ص ص : 289 — 290

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني و الثقافي والاجتماعي ، ط 14 ، ج 2 دار الجيل ، بيروت ، سنة 1996 ، ص ص : 11 — 12

¹⁸¹ نفس المصدر ، ص ص : 83 — 84

¹⁸² يحيى محمد بكوش : فقه الإمام جابر بن زيد ، ط 2 ، ج 1 ، دون ذكر دار النشر ، سنة 1988 ، ص ص : 26 — 29
عمار طالبي : المرجع السابق ، ص ص : 206 — 210 ، ص ص : 215 — 220

¹⁸³ علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ط 4 ، ج 2 ، دار المعارف ، مصر ، سنة 1969 ، ص : 149

توضحه المسيرة التاريخية للخوارج الذين استباح بعضهم قتل أولاد و نساء المسلمين و استحلال دمائهم وأموالهم فضلا عن الرجال ، في حين أعطوا الأمان و الحماية للكافرين حقيقة¹⁸⁴ ، وما تكشفها العلاقات المتوترة بين الشيعة و من ظل مساندا للدولة الأموية معترفا بها ، كذا المطاردات و الملاحقات التي شنها فقهاء الجمهور لمُتَكَلِّمي الاتجاهات الأخرى عبر الفتاوى والأحكام¹⁸⁵ .

إذن يمكننا أن نقول أن تيار أهل السنة و الجماعة تحدد في البداية من خلال موقف الولاء للخلفاء الصحابة الأربعة دون فرق¹⁸⁶ ، ثم للخضوع السياسي للحكم الأموي و الاعتراف بالدولة الأموية ، و كان ذلك هو موقف جمهور المسلمين في مقدمتهم بقية صحابة النبي صلى الله عليه و سلم ، بغض النظر عن الممارسات الخاطئة و الباطلة لجهاز الدولة ، في سياق البحث عن تسوية سياسية تتجاوز الفتنة و تعود بالأمة إلى وحدة صفها¹⁸⁷ ، الأمر الذي يبدو في تميز أهل السنة عن غيرهم بقناعات عديدة منها : تولي جميع الصحابة و الترحم عليهم و ترك الخوض في أخطائهم و اعتبار ما صدر عنهم أيام الفتنة محض اجتهد لا ينفكون فيه من أجر أو اثنتين¹⁸⁸ ، وتجويز الصلاة و الجهاد مع الحاكم الفاسق و أداء الزكاة

¹⁸⁴ عمر سليمان الأشقر : **الأضواء السنية** ، د ط ، دار الشهاب ، الجزائر ، د ت ، ص ص : 16 — 17

¹⁸⁵ علي مصطفى الغرابي : **تاريخ الفرق الإسلامية** ، د ط ، مطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، د ت ، ص ص : 21

— 22

¹⁸⁶ أبو العباس أحمد بن تيمية : **منهاج السنة النبوية** ، تـ محمد رشاد سالم ، ط 1 ، ج 2 ، مؤسسة قرطبة ، بيروت ، سنة 1406 هـ ، ص : 221 . و فيه : « ... فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة ، فيدخل في ذلك جميع الطوائف ، إلا الرافضة ، وقد يراد به أهل الحديث و السنة المحضة ، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ، ويقول إن القرآن غير مخلوق ، وإن الله يرى في الآخرة و يثبت القدر و غير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث و السنة ... » .

انظر : محمد عابد الجابري : **تكوين العقل العربي** ، ط 2 ، دار الطليعة ، بيروت ، سنة 1985 ، ص ص : 107 — 109

¹⁸⁷ الفضل شلق : **الأمة و الدولة — جدليات الجماعة و السلطة في المجال العربي الإسلامي** — ، ط 1 ، دار المنتخب

، بيروت سنة 1993 ، ص ص : 24 — 25

¹⁸⁸ ابن تيمية : **الخلافة** ، المصدر السابق ، ص : 60

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني : **سنن أبي داود** ، تـ محمد محي الدين عبد الحميد ، د ط ، ج 4 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ص ص : 214 — 215

محمد عابد الجابري : **التكوين** ، المرجع السابق ، نفس الصفحة

إليه ، و النفور من التمرد و الثورة ، و غيرها من الآراء التي اتخذت في عصور لاحقة مسمى " العقائد " ¹⁸⁹

إذن لقد كان القول في العقائد هو الذي أعطى لكل اتجاه خصوصيته و اسمه ؛ والارتباط الذي سلف التنبيه إليه بين العقيدة و السياسة يمكننا من الوصول إلى القول أن الكلام في السياسة هو المسؤول على التفرق الذي نخر في الأمة ، و لما كان الجمهور الأعظم الذي اتخذ فيما بعد اسم " أهل السنة و الجماعة " قد وقف إلى جانب الدولة الأموية فإن ذلك يجعله صاحب السلطة بشكل أو بآخر ؛ الأمر الذي يعني أن مهمته إزاء الدولة تتحدد بالمساندة و الدعم المطلق والدفاع عنها و في أسوء أحوال العلاقة بينهما لا يصل الأمر إلى مساندة أعدائها ، الشيء الذي كان سببا في تأخر أهل السنة عن القول بالمنظم العلمي في مسألة " الإمامة " بالقياس إلى غيرهم كالشيعة بأطرافها و المعتزلة و غيرهما ¹⁹⁰ .

لابد من الانتباه لحقيقة أن تفاصيل الأفكار و العقائد لم تنشأ مرة واحدة مكتملة كما تعرض في مصنفات المتكلمين المتأخرة ، و إنما جاءت متتالية متأثرة بالأحداث و الوقائع و خاضعة لسنة التاريخ في التغير و التطور و مستجيبة للجدل و الكلام الذي كان سمة العصر ، و محاولة النظر فيها و إعادة بنائها تقتضي جهدا كبيرا مركزا في جمع النصوص و تحقيقها و مقابلتها لبعضها ؛ و تحاشي الوقوع في أسر المبالغات و التهم و جميع صور التخوين و التكفير ، كذا إعادة ربط المقولات النظرية بتربتها الواقعية التي أفرزتها و عشت

¹⁸⁹ راجع :عبد الملك علي الكليب : صفات التابعين ، تـ اشرف بن عبد المقصود ، د ط ، دار الشهاب ، الجزائر

د ت ، ص ص : 72 — 86

: أبو جعفر أحمد الطحاوي : العقيدة الطحاوية ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص ص : 19 —

22

: ابوحامد الغزالي : قواعد العقائد ، ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص : 21

=

= : ابو حفص عمر بن محمد النسفي : العقائد النسفية ، ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص

ص : 28 — 30

: ابن أبي زيد القيرواني : العقيدة الإسلامية التي ينشأ عليها الصغار ، تـ عبد الفاتح أبو غدة ، ط 3 ، دار السلام ،

مصر سنة 2001 ، ص ص : 53 — 58

¹⁹⁰ الجابري ، التكوين ، المرجع السابق ، ص : 108

هي فيها¹⁹¹ ، الأمر الذي يوضح الظروف و الملابسات التي ساهمت في ظهور الشيعة و الخوارج ثم القدرية والمرجئة و الجبرية¹⁹² و وقد ظهر كل اتجاه من هذه الاتجاهات في إقليم معين و في ظروف خاصة و استجابة لحيثيات معينة¹⁹³ ، و تأثر و تكيف بمؤثرات مختلفة تبعا لطبيعة الإقليم و موقعه الجغرافي و طبيعة الفئات الاجتماعية التي تقطنه ، مع الانتباه لرسوخ " القبيلة " كوحدة ناظمة لأغلب المجتمعات الإسلامية آنذاك ، و نوعية علاقات الزعامات التي تحكمها بجهاز الدولة ، لكن هذا الافتراق و التوزع ، وحدة الصراع أحيانا لم يمنع من حدوث تقارب و تأثير و تأثر كلما كانت مساحة الحوار واسعة و اللقاء الهادي مضمونا ؛ الأمر الذي تؤكد الروايات حدوثه¹⁹⁴ .

¹⁹¹ تبذل الآن مجهودات مهمة في هذا السياق رغم ما تكتنفها من صعوبات منهجية و شك من طرف التصورات السائدة الموروثة عن الماضي ، من ذلك أعمال كل من : محمد عابد الجابري و محمد أركون و حسن حنفي و فهمي جدعان و عبد الله العروي و علي أومليل و كمال عبد اللطيف و محمود إسماعيل و ... و غيرهم كثير .

¹⁹² **الجبرية** : المراد بالجبر هو كون العبد مسير بالإرادة الإلهية تسييرا مطلقا لا يملك أي قدرة و لا لإرادة على أي شيء ، و أول من نادى بهذه الفكرة هو جهم بن صفوان ونشرها في بلخ و ترمذ و سمرقند قبل أن تنتشر في طول العالم الإسلامي و عرضه . أنظر :

علي سامي النشار : نشأة ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص : 473

يوسف فرحات : **الفلسفة الإسلامية و أعلامها** ، ط 1 ، الشركة الشرقية للمطبوعات ، د كان النشر ، سنة 1986 ، ص : 27

¹⁹³ يتضح ذلك في وصف الإمام محمد بن علي العباسي للأهواء السائدة في عصره : « ... أما الكوفة و سواها فشيعة علي ، و أما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، و أما الجزيرة فحرورية و أعراب كأعلاج .. و أما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية و طاعة بني أمية و عداوة راسخة و جهل متراكم و أما مكة و المدينة فقد غلب عليهم أبو بكر و عمر ... » .

حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص : 15 – 16

¹⁹⁴ أبو بكر الخطيب البغدادي : **الكفاية في علم الرواية** ، تـ احمد عمر هاشم ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1986 ، ص : 153 . أثرت نقل هذا النص منه رغم طوله لأهميته ، فيه أسماء أعلام من أهل السنة و بيان تأثيرهم بآراء الفرق الأخرى :

« ... اشتهر من قبول الصحابة أخبار الخوارج وشهاداتهم ومن جرى مجراهم من الفساق بالتأويل ، ثم استمرار عمل التابعين والخالفين بعدهم على ذلك ؛ لما رأوا من تحريم الصدق وتعظيمهم الكذب وحفظهم أنفسهم عن المحظورات من الأفعال وإنكارهم على أهل الريب والطرائق المذمومة ، ورواياتهم الأحاديث التي تخالف آراءهم ، ويتعلق بها مخالفوهم في الاحتجاج فاحتجوا برواية عمران بن حطان ، وهو من الخوارج ، وعمر بن دينار وكان ممن يذهب الى القدر والتشيع ، وكان عكرمة إياضيا ، وابن أبي نجيح وكان معتزليا ، وعبد الوارث بن سعيد وشبل بن عباد وسيف بن سليمان وهشام الدستوائي وسعيد بن أبي عروبة وسلام بن مسكين ، وكانوا قدرية ، علقمة بن مرثد وعمر بن مرة ومسعر بن كدام ، وكانوا مرجئة ، وعبيد الله بن موسى وخالد بن مخلد وعبد الرزاق بن همام ، وكانوا يذهبون إلى التشيع في خلق كثير يتسع ذكرهم ، دون أهل العلم قديما وحديثا رواياتهم واحتجوا بأخبارهم فصار ذلك كالإجماع منهم وهو أكبر الحجج في هذا الباب وبه يقوى الظن في مقاربة الصواب ... »

كل الذي سبق التعرض له من الشقاق و النزاع و الاختلاف الذي قضم ظهر الأمة و فرق الملة كان يحتدم على ساحة الكلام في الاعتقاد و الذي كان قولاً في السياسة أيضاً ، إذ لا نجد صداه في علم ديني عملي بالأساس ، هو الفقه ، إذ يبدو أن الفقه كان ملكية خالصة لأهل السنة لم ينازعهم فيها إلا الشيعة في مرحلة تالية لما استقر و اكتمل تدوين العلوم و المعارف .وما كان تفرقه العقائد كانت تجمعها مذاهب الفقه ¹⁹⁵.

الفقهَاء :

الفقه لغة يعني الفهم والفتنة ، و في الحديث : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » ¹⁹⁶ . وهو ملكة تمكن صاحبها من فهم مراد الشارع فيما يخص الأمور و المنهيات ¹⁹⁷

ويحتل الفقيه منزلة الوساطة بين مضامين الدين كما جاءت في الكتاب و السنة و بين الأمة المتلقية لتحقيق هذه المضامين في الواقع ، وتأتي هذه المنزلة مبينة في الآية : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ¹⁹⁸ وفي ما وصلنا من أحاديث النبي و سنته ¹⁹⁹ .

¹⁹⁵ لقد درس مؤسسوا الفرق على يد الصحابة و كبار التابعين ، و عنهم أخذوا الأحكام الفقهية ، و لم يكن لهم طريق للوصول إلى أغراض الشرع و مطالبه السلوكية غيره .

¹⁹⁶ أبو القاسم جار الله الزمخشري : أساس البلاغة ، د ط ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة 2000 ، ص : 479 الخطيب البغدادي : صحيح الفقيه و المتفقه ، تعليق عادل العزاوي ، ط 1 ، دار الوطن ، الرياض ، سنة 1997 ص : 36

أبو عبد الله محمد الحكيم الترمذي : نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ، د ط ، دار صادر ، بيروت ، د ت ، ص : 365 — 366

الحديث صحيح ، أنظر : مسلم ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 718

¹⁹⁷ محمد مصطفى شلبي : أصول الفقه الإسلامي ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1978 ، ص : 17

عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ، ط 12 ، دار القلم للطباعة و النشر ، الكويت ، سنة 1978 ، ص : 15

¹⁹⁸ سورة التوبة / 122

¹⁹⁹ انظر على سبيل المثال: ابن رجب الحنبلي : ورثة الأنبياء ، تـ أشرف بن عبد المقصود ، د ط ، دار الشهاب ، الجزائر

د ت ، ص ص : 19 — 21 .

و أبو حامد محمد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ط 1 ، ج 1 ، دار القلم ، بيروت ، د ت ، ص ص : 10 — 18

وظهور هذه الوظيفة أمر لازم تحتمة طبيعة الإسلام بما هو دين قائم على كتاب محفوظ وعلى مآثورات نبيه الشارحة و المفسرة للكتاب ، ثم الميزة الأخرى و هي وفرة المطالب العملية السلوكية التي تشمل جميع فعاليات المسلم في حياته من أبسط الأمور إلى أكثرها أهمية ، الشيء الذي يقتضي بحثا و طلبا و استخبارا ، و يستلزم تخصصا و جهدا²⁰⁰ ، و قد تميز بعض الصحابة في حياة النبي صلى الله عليه و سلم بامتلاك هذه الملكة حتى شهد لهم بها، و مارسوها دون²⁰¹ غيرهم و عرفوا بها²⁰² .

ومع نجاح حركة الفتوح واتساعها الجغرافي شكل ذلك تحديا لمؤسسة الخلافة الشيء الذي يعني ضرورة استيعاب الأوضاع و المشاكل التي أفرزتها الانتصارات كإدارة الغنائم و الفئ و ضبط الأمور الاقتصادية و مراقبة تطبيق مضامين العهود و الموائيق التي أبرمت مع الشعوب المفتوحة واختلاف أحكام الأرض المفتوحة عنوة عن تلك المفتوحة صلحا وما أشبه ذلك فتجلت استجابة الجماعة الإسلامية و على رأسها الخليفة عمر لهذه التحديات بتفعيل آلية الاجتهاد²⁰³ وإنتاج الأحكام فيما لم تكن له سابقة في حياة النبي وما لم يرد فيه نص ، هذا من وجه ومن وجه آخر حرص عمر على إرسال فئة من كبار فقهاء الصحابة إلى الأمصار كمشرفين على تطبيق الأحكام من مواقعهم كولاة وعمال ، أو كمعلمين و مقرئين²⁰⁴ ، ويذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن عمر كان مشغولا بفكرة إنشاء كوادر للدولة ممثلين فيما أطلق عليه مسمى " القراء " يجمعون بين الفقه في الدين والكفاءة

²⁰⁰ عبد الوهاب خلاف : المرجع السابق ، ص : 15. و محمد حسين فضل الله : " موقع الفقيه في الدولة الإسلامية " ، مجلة المنطلق ، الإتحاد اللبناني للطلبة المسلمين ، العدد 64 ، آذار 1990

201201

²⁰² أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، تـ قاسم الشماخي ، ط 1 ، ج 3 ، دار القلم ، بيروت ، سنة 1987 ، ص ص 107 — 108

²⁰³ انظر رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري في القضاء في : أبو الحسن علي بن محمد الماوردي : الأحكام السلطانية و الولايات الدينية ، تـ خالد السبع ، ط 3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1999 ، ص ص : 139 — 140 جبر محمود الفضيلات : القضاء في صدر الإسلام ، د ط شركة الشهاب ، الجزائر ، سنة 1987 ، ص : 175 حسني محمد غيطاس : الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ط 1 ، المكتب الإسلامي بيروت ، سنة 1985 ، ص ص : 120 — 137

صالح أحمد العلي : الإدارة في العهود الإسلامية الأولى ، ط 1 ، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ، بيروت ، سنة 2001 ص ص : 120 — 121

²⁰⁴ غالب عبد الكافي القرشي : أوليات الفاروق السياسية ، ط 1 ، دار الوفاء للطباعة و النشر ، المنصورة ، سنة 1990 ، ص ص : 116 — 117

الإدارية حتى يساهموا في إنجاح مشروع أسلمة الشعوب المفتوحة و استيعاب المشاكل المستحدثة²⁰⁵.

و باستيطان هؤلاء الفقهاء في الأمصار التي بعثوا إليها و مباشرتهم مهامهم داخل المساجد تكونت مجموعات من طلبة العلم لحفظ القرآن و سماع الحديث من أفواه هؤلاء الصحابة ، ثم لم يلبثوا حتى سنوا الرحلة في طلب العلم استدراكا لما فاتهم منه ، و بفناء جيل الصحابة تصدر هؤلاء الطلبة للتعليم و نشر الفقه وأخذوا لذلك مسمى " التابعين " . ولم يكن الفقه في ذلك العصر علما منظما مبوبا قائما بذاته ، ومضى الأمر على ذلك حتى شهد القرن الثاني الهجري ظهور مدرستين أساسيتين في الفقه الإسلامي، هما: مدرسة الرأي ومدرسة الحديث ، نشأت المدرسة الأولى في العراق، وهي امتداد لفقه عبد الله بن مسعود الذي أقام هناك، وحمل أصحابه علمه وقاموا بنشره، وكان ابن مسعود متأثراً بمنهج عمر بن الخطاب في الأخذ بالرأي، والبحث في علل الأحكام حين لا يوجد نص من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن أشهر تلامذة ابن مسعود الذين أخذوا عنه: علقمة بن قيس النخعي²⁰⁶، والأسود بن يزيد النخعي²⁰⁷، ومسروق بن الأجدع الهمداني²⁰⁸، و شريح القاضي²⁰⁹ * وهؤلاء كانوا من أبرز فقهاء القرن الأول الهجري.

ثم تزعم مدرسة الرأي بعدهم إبراهيم بن يزيد النخعي²¹⁰ * فقيه العراق بلا منازع، وعلى يديه تتلمذ حماد بن سليمان²¹¹ * ، وخلفه في درسه، وكان إماماً مجتهداً، كانت له

²⁰⁵ رضوان السيد : " السلطة و المعرفة في التاريخ العربي الإسلامي " ، مجلة دراسات عربية ، دار الطليعة ، بيروت ، العدد 11 السنة 15 ، سبتمبر 1979 ، ص ص : 25 — 26

²⁰⁶ * **علقمة بن قيس** : النخعي خال إبراهيم النخعي ، من سادات التابعين بالكوفة ، مات سنة 62 هـ .
ابو إسحاق الشيرازي : **طبقات الفقهاء** ، تـ إحسان عباس ، ط 2 ، دار الرائد العربي ، بيروت ، سنة 1981 ، ص : 79

²⁰⁷ * **الأسود بن يزيد** : أحد أعلام التابعين بالكوفة ، مات سنة 75 هـ . الشيرازي : **الطبقات** ، المصدر نفسه ، ص : 79

²⁰⁸ * **مسروق الأجدع** : أحد أعلام التابعين بالكوفة ، مات سنة 63 هـ . الشيرازي : **الطبقات** ، المصدر نفسه ، ص : 79

²⁰⁹ * **شريح** : قضى لعمر بن الخطاب و ظل على القضاء أكثر من سبعين سنة ، توفي سنة 82 هـ .
الشيرازي : **الطبقات** ، المصدر نفسه ، ص : 80

²¹⁰ * **إبراهيم النخعي** : أحد أئمة الكوفة المشاهير ، من التابعين ، يعتبر امام مدرسة الرأي ، توفي سنة 95 هـ .

بالكوفة حلقة عظيمة يؤمها طلاب العلم، وكان من بينهم أبو حنيفة النعمان الذي فاق أقرانه، وانتهت إليه رئاسة الفقه، وتقلد زعامة مدرسة الرأي من بعد شيخه، والتف حوله الراغبون في تعلم الفقه وبرز منهم تلاميذ بررة، على رأسهم أبو يوسف القاضي²¹²، ومحمد بن الحسن²¹³ وزفر²¹⁴* وغيرهم وعلى يد هؤلاء تبلورت طريقة مدرسة الرأي واستقر أمرها ووضح منهجها، وكون الكوفة هي المصر الذي شهد ظهور و تطور هذه المدرسة؛ فإن ذلك يعود لأسباب عدة بعضها تاريخي و بعضها الآخر جغرافي منحتها خصوصية ليست لغيرها إذ كانت البلد الذي احتضن منذ البدايات الأولى لتمصيرها العناصر و الفئات و القوى الاجتماعية و الإثنية المختلفة والمتباينة والمتعارضة أيضا في توجهاتها و مصالحها²¹⁵ و أفصحت منذ تلك البدايات عن وجهها الحقيقي وسمتها التي ستظل تتصف بها و تشكل شاغلا للدولة منذ أيام عمر بن الخطاب الذي اضطر أكثر من مرة لتغيير ولايته و عماله عليها بطلب من أهلها²¹⁶، إلى أيام عثمان حيث كانت هي الأرض التي بذرت فيها بذور الانشقاق و التمرد ثم الثورة على الخليفة²¹⁷، وكان تجبر بعض الولاة من أسباب استمرار الغليان و التذمر ثم تحولت إلى عاصمة للإمام علي و مقرا لإدارته وقيادته²¹⁸، فحفلت أرضها

ابن خلكان : الوفيات ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص ص : 25

²¹¹ حماد بن سليمان : أحد فقهاء الكوفة ، تتلمذ على إبراهيم النخعي ، توفي سنة 120 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 83

²¹² ستأتي ترجمته في الفصل الثالث

²¹³ أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني أحد تلامذة الإمام أبي حنيفة ، ولد سنة 132 هـ و توفي سنة 189 هـ و تولى

القضاء للرشيد. ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 185

²¹⁴ زفر : أبو الهذيل زفر بن الهذيل كان من أصحاب الحديث ثم غلب عليه الرأي ، و هو ممن جمع بين العلم و العبادة ، ولد سنة 110 هـ و توفي سنة 158 خـ . ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 317 — 319

²¹⁵ محمد عبد الحي محمد شعبان : صدر الإسلام و الدولة الأموية ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت ، سنة 1983 ، ص: 55

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 317 — 319

²¹⁶ أبو الحسن البلاذري : فتوح البلدان ، تـ رضوان محمد رضوان ، دط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1978 ص ص : 277 — 278

ابو عمر أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد ، تـ أحمد أمين و آخرون ، د ط ، ج 4 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة 1962 ، ص ص : 306 — 307

²¹⁷ ابن كثير : المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 133 . أنظر فيه حوادث سنة 32 هـ

²¹⁸ ابن عبد ربه : المصدر السابق ، ص : 337

بمختلف العناصر والاتجاهات والفئات المختلفة²¹⁹ ؛ حيث خرج من جيش الكوفة أولى الفرق الكلامية التي ستوجه و تكيف التاريخ الإسلامي بعدها ، ألا هي الخوارج و الشيعة وقد اعتمد كلاهما سياسة المعارضة الدائمة للدولة في دمشق إبان العهد الأموي ثم بغداد أيام الدولة العباسية ، كما جعل كلاهما السيف ووسيلة من وسائل إبداء الرفض و الثورة .

إن تحقق في الكوفة جميع المواصفات التي جعلتها مصرا معارضا بامتياز ، ولم تكن معارضة ساكنة نائمة و إنما كانت فاعلة و نشطة لم تكف عن التوتر و الغليان حتى في ظل حكم أعتى الولاة²²⁰ .

ولما كانت السلطة في الإسلام تأخذ مشروعيتها من الدين بمصدره القرآن و السنة ، فإنه كان لزاما على من يريد استلام السلطة أن يؤسس شرعية حكمه بناء على الدين ، بمعنى تقديم قراءة للدين و تأويلا لنصوصه ، بحيث تمكنه من استصدار قبول و تأييد الجماعة الإسلامية ، الأمر الذي حرص الأمويون على القيام به بمساندة بعض الفقهاء ، فلم يكن غريبا أن تلجأ الدولة الأموية إلى نشر و إذاعة نصوصا بعينها من القرآن و الحديث الشريف تجعل من حكم الأمويين حقيقة قدرية أرادها الله و جبرا لا مناص من قبوله و الرضا به²²¹ ، وتصف أي محاولة للخروج عليه ضربا للوحدة و شقا لعصا الجماعة و استدراجا للفتنة و البغي و الفساد ، وعليه فإن على أي معارضة جادة أن تجد قراءة أخرى و تأويلا آخر في الدين مختلفا عن مستند الدولة القائمة ، لذلك اتجه التيار المناهض للأمويين في الكوفة إلى الاستثمار السياسي في العلم الذي كان يعني فقه الكتاب و الحديث الشريف²²² .

إن احتضان الكوفة للمعارضة السياسية من بعض أسباب نشاط العلم بها وخصوصيته فيها إذ أمدّها موقعها الجغرافي ميزة مهمة جعلتها تختلف عن مكة وعن المدينة عاصمة رسول

²¹⁹ محمد عبد الحي شعبان : صدر الإسلام ، المصدر السابق ، ص : 80 . صالح أحمد العلي ، عمر ، المرجع السابق ، ص : 234

شاكر الفحام : الفرزدق ، د ط ، دار الفكر ، دمشق ، سنة 1977 ، ص ص : 50 — 52

²²⁰ إبراهيم بيبضون : تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول من دولة عمر إلى دولة عبد الملك ، ط 2 ، دار اقرأ بيروت ، سنة 1986 ، ص ص : 152 — 153

شاكر الفحام : المرجع السابق ، ص : 50

²²¹ رضوان السيد : : الأمة و الجماعة و السلطة — دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي — ، ط 2 ، دار اقرأ ،

بيروت ، سنة 1986 ، ص : 129

²²² نفس المرجع ، ص ص : 132 — 134

الله صلى الله عليه وسلم وعاصمة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل ، التي ظلت حافظة لتراث النبي و آثاره و سنته التي غدت عرفا جعل فقيها كبيرا كمالك يعتمد كـمصدر من مصادر التشريع ، حيث رسخ في الاعتقاد أن علم أهل المدينة هو الأكثر ثقة فيما يخص رواية الحديث و فقه المناسك من بقية الأمصار ، و الأوفر عددا و الأكثر أهمية ، كما تختلف الكوفة عن الشام عاصمة بني أمية و بني مروان و محل العصبية الأموية ، وعن مصر ثم بلاد المغرب بعد فتحها²²³ .

فطبع علم الكوفة بطابع خاص ، حيث تميز الكوفيين باستعمال العقل في مجال الفقه ؛ الإجراء الذي أخذ مسمى " الرأي " ²²⁴ مقابل " الحديث " و " الأثر " و " النقل " ²²⁵ ، وأثار نزاعا شديدا داخل دائرة أهل السنة ، ولدى علماء المدينة بوجه خاص ، ولم يكن توسع الكوفيين في الرأي إلا نتيجة طبيعية لواقع الكوفة الحافل بمختلف الاتجاهات الدينية – السياسية ، إذ من الطبيعي أن تتشط في ظل مثل هذا الوسط جميع وسائل استغلال النصوص الدينية ، بما فيها وضع الحديث و الكذب على النبي وأصحابه ، الأمر الذي زرع الريبة و التشدد في قبول الحديث و الاستعاضة عنه بالتوسع في الرأي²²⁶ . كذلك اعتماد الكوفيين على ميراث علي و ابن مسعود بصفة الأول إمام المسلمين و الثاني خازن بيت المال و مفتي

²²³ جورج طرابيشي : إشكاليات العقل العربي ، ط 2 ، دار الساقى ، بيروت ، سنة 2002 ، ص : 42

²²⁴ « ... وإنما سموا أصحاب الرأي لأن أكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام ، وبناء الحوادث عليها ، وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار... » . أنظر :

محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : الملل والنحل ، تـ محمد سيد كيلاني ، د ط ، ج 1 ، دار المعرفة ، بيروت ، ص : 207

²²⁵ الجابري : التكوين ، المرجع السابق ، ص : 106

²²⁶ طه جابر فياض العلواني : أدب الاختلاف في الإسلام : د ط ، دار الشهاب ، باتنة ، سنة : 1985 ، ص ص : 79 –

81

ابو محمد عبد القادر القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، د ط ، مير محمد كتب خانة ، كراتشي ، د ت ، ص : 31 . أنظر تعليلا لقلة رواية أبي حنيفة للحديث :

« ... املاً علينا أبو يوسف قال : قال أبو حنيفة : لا ينبغي للرجل أن يحدث من الحديث إلا بما حفظه من يوم سمعه إلى يوم يحدث به .. ولهذا قلت رواية أبي حنيفة لهذه العلة لا لعل أخرى زعمها المتحملون عليه » .

مصطفى الشكعة : الإمام الأعظم ابو حنيفة النعمان ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة 1983 ، ص ص :

الكوفة و فقيهاها و مقرئها أيام عمر و عثمان²²⁷ ، و قد عرف كلاهما بالاجتهاد و عمق الفقه و استعمال الرأي²²⁸ .

وأما مدرسة الحديث، فقد نشأت بالحجاز، وهي امتداد لمدرسة عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعائشة وغيرهم من فقهاء الصحابة الذين أقاموا بمكة والمدينة، وكان يمثلها عدد كبير من كبار الأئمة، منهم سعيد بن المسيب²²⁹ ، وعروة بن الزبير²³⁰ ، وابن شهاب الزهري²³¹ ، والليث بن سعد، ومالك بن أنس. وتمتاز تلك المدرسة بالوقوف عند نصوص الكتاب والسنة، فإن لم تجد التمسست آثار الصحابة، ولم تلجئهم مستجدات الحوادث التي كانت قليلة في الحجاز إلى التوسع في الاستنباط بخلاف ما كان عليه الحال في أهل السنة ، وجاء الشافعي والجدل مشتعل بين المدرسين فأخذ موقفاً وسطاً، وحسم الجدل الفقهي القائم بينهما بما تيسر له من الجمع بين المدرستين، بعد أن تلقى العلم وتتلذذ على كبار أعلامهما مثل مالك بن أنس من مدرسة الحديث، ومحمد بن الحسن الشيباني من مدرسة الرأي²³² .

²²⁷ صالح أحمد العلي : الإدارة في العهود الإسلامية الأولى ، ط 1 ، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ، سنة 2001

ص : 349

²²⁸ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج:5 ، ص: 236 «... فأفقه أهل الكوفة علي وابن مسعود وأفقه أصحابهما علقمة وأفقه أصحابه إبراهيم وأفقه أصحاب إبراهيم حماد وأفقه أصحاب حماد أبو حنيفة وأفقه أصحابه أبو يوسف وانتشر أصحاب أبي يوسف في الأفاق...»

²²⁹ * سعيد بن المسيب : أبو محمد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، و هو سيد التابعين ، جمع بين العلم و العبادة ، توفي بالمدينة سنة 91 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 378 - 378

²³⁰ * عروة بن الزبير : ولد سنة 26 هـ ت و مات سنة 94 هـ يعد من كبار تابعي المدينة . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص 58 :

²³¹ * الزهري : أبو بكر محمد بن مسلم ، أحد أعلام المدينة من الفقهاء و المحدثين ، و المقربين إلى خلفاء بني أمية ، ولد سنة 51 هـ ، و توفي بالمدينة سنة 124 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 177 - 178

²³² ولي الله الدهلوي : الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، تـ عبد الفتاح أبو غدة ، ط 8 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1977 ص ص : 41 — 42

محمد أركون : تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، تـ هاشم صالح ، ط 13 ، لمركز الثقافي العربي ، المغرب ، سنة 1998 ص ص : 75 — 78

الفصل الأول

الطاعة اعتقاداً و المفاصلة سلوكاً :

- توطئة :

أورد الفيروزآبادي في القاموس المحيط أن الفصل : هو الحاجزُ بين الشيئين ، و فاصَلَ الرجلَ شريكَه بآينَه²³³ ، من هنا ارتأيت استعمال دلالة هذا اللفظ لوصف مضمون العلاقة التي كانت بين جماعة من الفقهاء و بين الدولة العباسية في هذا العصر ؛ حيث المفاصلة هي المباينة و ما نسميه بلغة عصرنا بالقطيعة .

نستطيع أن نقول منذ البداية بأن المواجهة بين الطرفين أمر لا يمكن تلافيه ، إذ أن خصوصية التاريخ الإسلامي و طبيعته هي التي جعلت من الفقهاء هم الوكلاء الشرعيين لهذا الدين و الناطقين باسمه ؛ و من ثمة هم قادة الجماعة الإسلامية التي أسسها الدين و صاغت تشريعاته ، و في المراحل الانتقالية و التحولات الكبرى التي تتميز بالاضطراب و الاهتزاز كذا فقدان الأمن السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي كالذي حصل إبان الثورة العباسية على الحكم الأموي ، حينها يتحول الدين إلى مصدر عزاء و أمان للخائفين ، أو طاقة دافعة للحركات الثورية التي ترغب في استثمار مثل هذه الأوضاع ، و يزداد تشبث المجتمعات الإسلامية بالفقهاء ، و لما كان كل من السياسي و الفقيه يجتمعان في أن كلا منهما يتخذ من المجتمع موضوعاً لفعله و تأثيره فإن المواجهة بينهما كانت حتمية .

إن الذي أعنيه بالمفاصلة هو واقع القطيعة في العلاقة بين بعض الفقهاء المنتسبين لأهل السنة و الجماعة و بين رجال الدولة على رأسهم الخليفة ؛ القطيعة التي يهمنها التنبيه إلى أن هؤلاء الفقهاء المقاطعين هم الذين بدعوا بها و بادروا إليها و تحملوا تبعاتها ، إذ أن الخلفاء العباسيين كانوا بحاجة لدعم كبار الفقهاء السنة لتحقيق كامل الشرعية لسلطانهم ؛ الذي كان يترشح تحت مطالبات العلويين الشرعية و التاريخية بحقهم في الخلافة ، و تحت شكل الوسيلة التي أوصلتهم إلى الحكم ، و هي الثورة ؛ البعيدة عن الأساليب التي أقرها الإسلام و تحققت بها الخلافة الراشدة . خاصة و أن مستند الحركة الناجحة التي سحبت الحكم من تحت بني أمية إنما استمدت قوتها من خلال التأكيد على ضلال التجربة الأموية و انحرافها عن

²³³ مجد الدين الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، د ط ، دار العلم للجميع ، بيروت ، د ت ، ج 4 ، ص : 30

مقتضيات الدين فلم يأت أداء العباسيين مختلفاً عن الأداء الأموي ، بل لقد و صف أحد الفقهاء في البلاط العباسي الأمويين بأنهم كانوا : « ... أُنْفَعُ للناس ... » ؛ و إن عاد ليرفع الحرج أمام الخليفة الذي كان يسمع هذه الشهادة بأن يصف بني العباس بأنهم كانوا : « ... أقومٌ للصلاة ... »²³⁴ . إذن فليست من مصلحة العباسيين نبذ الفقهاء ؛ خاصة السنة لأنهم اعتمدوا الاتجاه السني عقيدة للدولة ؛ بما أن القاعدة العريضة من المسلمين كانوا سنة . ثم لم يكن ثمة بديل آخر عن السنة غير التشيع ، و هو عقيدة الذين صنفهم العباسيون في خانة العدو . أما الفقهاء فقد بادروا إلى هذا الموقف لاعتبارات عدة لا تخرج عن مقتضيات دينية صرفة : كالزهد و الورع و ضمان استقلالية الرأي و الفتوى²³⁵ ، ثم أمر آخر هو النظر إلى الحكم العباسي كحالة اشتباه ، منشؤه الطريقة التي وصل بها العباسيون للحكم ؛ و هي بعيدة عن أن تكون شورى و اختيار حر من الأمة ، كذا الاشتباه في كثير من تفاصيل الملك ؛ كشكل و مضمون الأداء السياسي الذي لم يكن في مستوى الشعارات التي طالما رفعها الثوار إبان الحكم الأموي " العدل في القضية و القسمة بالسوية " . فجاءت المفاصلة من طرف هذا الفريق من الفقهاء ذات مضمون نقدي ؛ يعلن عن نفسه لا من طريق الفعل السياسي و الثورة و التحريض و ما أشبه ، و إنما من طريق الهجر والكف و الامتناع و اصطناع أسلوب الدعاء و الصبر ، بعبارة أخرى اعتبار الواقع " شر لا بد منه " و ضرورة تبيح محذور القبول بها ، لكنها كضرورة تقدر بقدرها ، و قدرها هو الاعتراف بالدولة القائمة مراعاة للمصلحة العامة للأمة و صيانة لدماء و أموال المسلمين وحماية للمصالح الدينية و الدنيوية²³⁶ .

²³⁴ ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص 47

²³⁵ لقد قال أبو حازم لأبي شهاب الزهري الفقيه المحدث في لقاء جمعه به يعاتبه على « ... إن العلماء كانوا يفرون من السلطان و هو يطلبهم و إنهم اليوم يأتون أبواب السلاطين و السلطان يفرمهم ... » . و قال أبو قلابة ينصح صديقاً له : « ... إياك و أبواب السلطان و إياك و مجالسة أصحاب الأهواء و ألزم السوق فإنه من العافية ... »

أبو عمر يوسف بن عبد البر : جامع بيان العلم و فضله و ما ينبغي في روايته و حملته ، د ط ، ج 1 ، دار الكتب العلمية بيروت ، د ت ، ص : 164

²³⁶ محمد بن خلف وكيع : أخبار القضاة ، د ط ، ج 3 ، عالم الكتب ، بيروت ، د ت ، ص : 154 « ... ذكر لعباد بن العوام رجل ولي القضاء من عفافه وصلاحه ، فقال عباد : من ظن أنه يلي لهؤلاء شيئاً فيخلون بينه وبين العدل فبئسما ظن... » .

لقد سادت في الأدبيات الدينية و الأدبية رؤيا قاتمة فيما يخص حياة الساسة ، و هي قاتمة بالنسبة للصورة التي يرغب بعض من الفقهاء و المحدثين أن يعيشوها وفقا لما يتبنونه من تعاليم و أخلاق و قيم ، حيث أن عالم السلطة يعني بمقتضى هذه الرؤيا عالم الدنيا و الشهوة التي حذر الله و رسوله من الوقوع في سحرها²³⁷ ، ثم إن التجربة التاريخية كما عايشها بعضهم تحت الحكم الأموي أو رواها و نقل أخبارها البعض الآخر تعزز هذا المذهب²³⁸ ، حيث تعني السلطة متعة الجاه و المال و المكانة الاجتماعية و قوة النفوذ و التأثير و القدرة على امتلاك وسائل الترف في المأكّل و المشرب و المطعم و الملبس و المنكح . و هي ما حرص هؤلاء على تحاشيه « ... اللهم لي ديني و لهم دنياهم ... »²³⁹ ، وتجلّى هذا التذمر في الإيقاع السريع الذي تمت فيه بلورة كثير من الأفكار و المفاهيم التي تدور حول رفض الدنيا و الإقبال على الآخرة و ما يساعد على هذه المهمة كالعزلة و الورع و الصبر و الرضا و الفقر و الجوع و السهر و مكابدة العبادات و

ولقد كان سفيان الثوري من أهم هؤلاء ، و رويت عنه أقوالا و أفعالا تتم عن حدة شديدة ورفض صارم غير قابل للمساومة ، حيث ورد أنه : كان يرى أن النظر إلى وجه الظالم خطيئة و أن معاملة اليهود و النصارى أحب إليه من معاملة الأمراء و أن النظر في وجه الأئمة الظالمين من غير إنكار قلب إحباط للعمل²⁴⁰ ، و جعل من قبول أعطيات الحكام

²³⁷ قال الصحابي ابن مسعود : « ... إن على أبواب السلاطين فتنا كمبارك الإبل و الذي نفسي بيده لا يصيبون من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينهم مثله ... » . ابن عبد البر : الجامع ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 167

²³⁸ المصدر نفسه ، ص : 163 – 167

مر الحسن البصري ببعض القراء على أبواب بعض السلاطين فقال : فرطتم بغالكم و جئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم فزهدوا فيكم .. تفرقوا فرق الله بين أعضائكم ... » . أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : **صفة الصفوة** ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط 3 ، م 2 ، ج 3 ، دار الفكر ، بيروت ، 1419 هـ ، ص : 129

²³⁹ تأمل النص التالي : « ... مر طارق صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسري في موكبه فقال ابن شبرمة :

أراها و إن كانت تحب كأنها سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لي ديني و لهم دنياهم ، فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا .. فقال : يا بني إنهم يجدون مثل أبيك و إن أباك لا يجد مثلهم ، إن أباك أكل من حلوائهم فحط في أهوائهم ... »

أبو الحسن الماوردي : **أدب الدين و الدنيا** ، ت محمد كريم راجح ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986 ، ص : 32

²⁴⁰ أبو بكر الخلال : **كتاب الورع** ، ت محمد السيد زغلول ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة

استحلال لمحارم الله ، و أن التبسم في وجوههم علامة الرضا ، و إيمان النظر إليهم يमित القلب ، وأوصى صديقا له : « ... لا تكن من قراء الملوك ، و لا تكن فقيه السوق ، و ما أقبح قراءة ليس معها زهد ، و إن دعاك الملوك إلى أن تقرأ عليهم " قل هو الله احد " فلا تفعل ... »²⁴¹ ، كما كان شديد التحذير من شهوة الرئاسة و يراها أصعب شهوة : « ... ترى الرجل يزهد في الثياب و المال و المطعم ، فإذا نوزع في الرئاسة حامى عليها و عادى ... »²⁴² ، و انتهر تلميذه وكيع بن الجراح²⁴³ * لما رفع رأسه يشاهد دارا مشيدة عالية بإعجاب : « ... لا ترفع رأسك تنظر إليها إنما بنوها لأجل هذا ... »²⁴⁴ ، و قال لرجل عليه سمت الصلاح أرسله إليه شريك القاضي في بعض الأمور : « ... إن كانت سجادتك هذه لله فينبغي أن لا تكلم شريكا ، و إن كانت لشريك فينبغي لي أن لا أكلمك ... »²⁴⁵ ، و علق متأسفا على قبول شريك لقضاء الكوفة : « ... أي رجل أفسدوا ... »²⁴⁶ و كانت له مواقف مع المنصور و المهدي في غاية الحدة و الصرامة من ذلك أنه دخل على المهدي و رأى ما هياه للحج ، فقال له : ما هذا ؟ حج عمر بن الخطاب فأنفق ستة عشر دينارا فغضب المهدي و قال له : « ... تريد أن أكون مثل الذي أنت فيه ؟ فقال الثوري : إذا لم تكن في مثل أنا فيه ففي دون ما أنت فيه ، فقال المهدي : قد جاءتنا كتبك فأنفذتها ، فقال سفيان : ما كتبت إليك شيئا قط ... »²⁴⁷ . مثل هذه المواقف أفضت به إلى الهرب و

وقال : « ... من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فهو شريكهم في كل دم كان في المشرق و المغرب ... » و قال ينصح تلميذا له : « ... لا تجالس القاضي ، إذا قلت له عافاك الله فهو يرى أنك رضيت عمله ... » و قال : « ... ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال ... » . المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

²⁴¹ و كان سفيان كثيرا ما يقول : « ... في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك ... » . أنظر : ابن عبد البر : الجامع ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 165

²⁴² أبو بكر الخلال : الورع ، المصدر السابق ، ص ص : 75 — 79

²⁴³ * وكيع : أحد كبار فقهاء و محدثي الكوفة ، توفي سنة 179 هـ .

عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، د ط ، م 1 ، ج 1 ، المكتب التجاري للطباعة و النشر بيروت ، د ت ، ص : 349

²⁴⁴ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

²⁴⁵ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

²⁴⁶ وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 163

²⁴⁷ أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء و طبقات الأصفياء ، ط 3 ، م 3 ، ج 6 ، دار الكتاب العربي ، بيروت سنة

الفرار²⁴⁸ و انتهت حياته مختفيا مطاردا من عيون المهدي ؛ ينادى عليه في المواسم بمكة
يتنقل من دار إلى دار .²⁴⁹

و قد استطاع سفيان بمسلكيته هذه أن يكون نموذجا احتذى حذوه طلبته و محبوه و
المعجبون بأخلاقه و علمه و تحول إلى أسوة مهمة سار على نهجه أعلام كثيرون كأحمد بن
حنبل و غيره كما سيأتي . و قد مضى تلميذه وكيع بن الجراح على أثره ؛ حيث يروى أن
الرشيد طلب كلا من وكيع و عبد الله بن إدريس و حفص بن غياث²⁵⁰ * ليوليهم القضاء : «
... فأما ابن إدريس فقال : السلام عليكم و طَرَحَ نَفْسَهُ كَالْمَقْلُوجِ ، فقال هارون خذوا بيد
الشيخ لا فضل في هذا ، و أما وكيع فأشار إلى عينه و قال : ما أَبْصَرْتُ بها منذ سنة ، و
وضع أصبعه على عينه و عنى أصبعه فأعفاه و أما حفص بن غياث فقال : لولا غَلَبَةُ الدِّينِ
و العِيَالِ ما وَلَّيْتُ ...»²⁵¹ ، وكانت نتيجة قبوله القضاء أن هجره كلاهما . و يعبر شعيب بن
حرب²⁵² * عن نفسية هذا النمط من الفقهاء فيما يرويه عن نفسه ، و ذلك لما رأى الرشيد
بطريق مكة : « ... فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
فخوفتني فقالت : إنه الآن يضرب عنقك فقلت لا بد من ذلك فناديت فقلت : يا هارون : قد
أتعبت الأمة والبهايم ، فقال : خذوه ، فأدخلت عليه .. وهو جالس على كرسي ، فقال : ممن
الرجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين ، فقال : ثكلتك أمك ممن أنت ؟ ...» ، و هكذا يستمر
الحوار بينهما و يحسن فيه شعيب التخلص و امتصاص غضب الرشيد²⁵³ ، و قد كان الرشيد
أوسع خلفاء بني العباس صدرا في مواجهته لمثل هذه المواقف و تحفل المصادر بحكايات
كثيرة في هذا المجال و أحيانا تكون فيها شخصية الواعظ مجهولة مثل هذه الرواية : « ...
وبينما الرشيد يطوف يوما بالببيت إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن
أكلمك بكلام فيه غلظة ، فقال : لا ولا نعمت عين ، قد بعث الله من هو خير منك إلى من

²⁴⁸ ابن قتيبة : الإمامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 143 – 144

²⁴⁹ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

²⁵⁰ * حفص بن غياث : ولد سنة 117 هـ ، و لاه هارون القضاء ببغداد ، ثم الكوفة و مات بها سنة 194 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 390

²⁵¹ الخطيب البغدادي : التاريخ ، ج 9 ، ص : 419

²⁵² * شعيب بن حرب : أبو صالح من أبناء خراسان مذكور بالعبادة و الصلاح و الخير ، مات بمكة سنة 199 هـ .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 470 – 471

²⁵³ ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 180

هو شر مني فأمره أن يقول له قولاً لئلاً ...»²⁵⁴. و طلب مرة من حاجبه لقاء الفضيل بن عياض²⁵⁵ * فوعظه الفضيل وعظاً قاسياً طويلاً قال له فيه : يا صبيح الوجه إنك مسئول عن هؤلاء كلهم وقد قال تعالى : وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ²⁵⁶ أي الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ، فبكى الرشيد²⁵⁷ ، و لقيه مرة أخرى فوعظه و رفض أخذ ما أعطاه له من المال فلما طلب منه ابن عيينة أن يقبلها و يفرقها على الفقراء أجابه : « ... يا أبا محمد أنت فقيه البلد و تغلط هذا الغلط ، لو طابت لأولئك طابت لي ...»²⁵⁸.

و لما حج المهدي دخل المسجد النبوي فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب ، فقيل له : قم هذا أمير المؤمنين ، فقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، فقال المهدي : دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي ، و سبق لابن أبي ذئب أن واجه المنصور بقوله : « ... قد هلك الناس فلو أعنتهم من الفيء ، فقال : ويلك لولا ما سدَّدْتُ من الثُّغُورَ لَكُنْتَ تُؤْتَى في منزلِكَ فَتَذْبَحُ ، فقال ابن أبي ذئب : قد سد الثُّغُورَ و أعطى الناس من هو خير منك ؛ عمر رضي الله عنه ، فنكس المنصور رأسه و قال : هذا خير أهل الحجاز ...»²⁵⁹ ، و قال للمنصور مرة أخرى : « ... الظلم ببابك فاش ...»²⁶⁰. و كان حماد بن سلمة على هذا النهج من المفاصلة ، وكان يقول كما قال الثوري : « ... إن دعاك الأمير أن تقرأ : قل هو الله أحد فلا تأته ، و قد روي أنه دعاه السلطان فقال : أحمل لحية حمراء إلى هؤلاء ، و الله لا فعلت ...»²⁶¹.

²⁵⁴ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

²⁵⁵ * الفضيل بن عياض : أبو علي الزاهد المشهور ، ولد بأبيورد و سكن مكة و توفي بها ، سنة 187 هـ .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 47 — 49

²⁵⁶ سورة البقرة ، الآية 166

²⁵⁷ السيوطي : التاريخ ، المصدر السابق ، ص : 285

²⁵⁸ الحنبلي : شذرات الذهب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 279

²⁵⁹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 144

²⁶⁰ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

²⁶¹ السيوطي : طبقات الحفاظ ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1983 ، ص : 95

و لعل الصورة الأشد تعبيراً عن مسلكية هذا الفريق و الذي يختزل و يكتف حدة مواقفه ما صدر عن ابن المبارك²⁶²* و هو وجود بنفسه فاشتهدى سويقاً فلم يوجد إلا عند رجل كان يعمل للسلطان فذكر له ذلك فقال : « ... دعوه ، فمات و لم يشربه ... »²⁶³ .

أبو حنيفة :

الإمام الأعظم ، النعمان بن ثابت ، الفارسي الصميم « ... من أبناء فارس الأحرار ... »²⁶⁴ منشئ أولى المذاهب السنية²⁶⁵ المعتمدة في الإسلام، و كبير الفقهاء المسلمين .

ولد بالكوفة عام ثمانين للهجرة — 80 هـ — 699م²⁶⁶ ، ونشأ بها و ترعرع في أكنافها و بين جنباتها ، و تفتحت عيناه و أذناه ليرى و يصغي إلى ما كانت تعج به الكوفة من اتجاهات سياسية و ثقافية و دينية متباينة تصل أحيانا لحد التضارب و التصادم²⁶⁷ ، في ذلك الوقت الذي كان فيه الشأن السياسي يتداخل مع الديني ، وكانت المرامي الاجتماعية و السياسية و الثقافية لا تجد تعبيراً لها إلا في الدين و من خلاله ، حيث كان الدين هو القاعدة

²⁶² * ابن المبارك : عبد الله أبو عبد الرحمن المروزي ، أحد أعلام السنة جمع بين العلم و العبادة ، و كان شاعراً ، ولد بمرور سنة 118 هـ و توفي سنة 181 هـ بهيت . ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 34. ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 372
²⁶³ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 332

²⁶⁴ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج: 5 ، ص: 405

الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج: 6 ، ص: 390

ابن النديم: المصدر السابق ، ص: 28

²⁶⁵ قال أبو حنيفة : « ... لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء فقال : من أين أنت ؟ قلت من أهل الكوفة ، قال : أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعاً ، قلت : نعم ، قال : فمن أي الأصناف أنت ؟ قلت : ممن لا يسب السلف و يؤمن بالقدر و لا يكفر أحداً بذنب ، فقال لي عطاء : عرفت فألزم ... » . أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ،

م 2 ، ج 3 ، ص : 314

²⁶⁶ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ص: 391

²⁶⁷ شاكر الفحام : المرجع السابق ، ص ص : 50 — 52

التي تقوم عليها الحياة جميعها و الأساس الذي يَتَقَوَّم به أي نشاط ، و المرجعية التي يستند إليها أي مطلب و هدف وغاية²⁶⁸ .

في هذا المصر المتميز ولد أبو حنيفة و تلقى معارفه و علومه ، وفيه قضى جل عمره وأكثر حياته ، ولم أجد في المصادر التي اطلعت عليها ما يشير بالتفصيل و لا الإجمال لظروف نشأته في طفولته و شبابه ، ولعل أسرته كانت على شيء من اليسار و سعة العيش ، إذ لا تتردد أصداء الفقر و الحرمان في التفاصيل المعروفة من حياته ، إضافة إلى كونه قد عرف مبكرا الطريق إلى السوق و التجارة مما يمنحنا إمكانية احتمال أن يكون قد ورث هذه المهنة عن والده . أما نزوعه العلمي فقد جاءت فيه روايات متعددة لا تخلو من اضطراب وتباين ، تصف السبب و الكيفية التي تحول بها الشاب التاجر الباحث عن الربح و الثراء إلى الفقيه المجتهد ، من ذلك الرواية التالية :

قال أبو حنيفة «... مررت يوما على الشعبي²⁶⁹ * و هو جالس فدعاني ، فقال لي: إلى مَنْ تَخْتَلِفُ فقلت : أختلف إلى السوق ، فقال : لم أَعْنِ الاختلاف إلى السوق ، عنيت الاختلاف إلى العلماء فقلت : أنا قليل الاختلاف إليهم ، فقال لي : لا تَعْفَلْ ، و عليك بالنظر في العلم فإنني أرى فيك يقظة و حركة ، فوقع في قلبي من قوله ، فتركت الاختلاف إلى السوق و أخذت في العلم...»²⁷⁰

وثمة رواية أخرى تصف علة اختياره التخصص في الفقه دون بقية العلوم لا تخلو من الوضع

وقد طعن في صحتها الذهبي بعد أن أوردتها كاملة²⁷¹.

على أنها ليست الرواية الوحيدة التي تصف رحلته العلمية قبل أن يتخذ من الفقه اختصاصا له إذ ورد عنه في أحد الأخبار قوله : «... كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغا كان

²⁶⁸ محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي ، ط 6 ، دار النشر المغربية ، المغرب ، سنة 2003 ، ص : 16

²⁶⁹ * الشعبي : أبو عمرو عامر بن شراحيل ، أحد كبار التابعين ، توفي بالكوفة سنة 103 هـ . ابن خلكان : الوفيات ،

المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 12 — 15

²⁷⁰ أبو اليزيد أبو زيد العجمي : الفقهاء و بحوث العقيدة الإسلامية ، ص ص : 78 — 79

²⁷¹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص : 396 - 397

يشار إليّ فيه بالأصابع...»²⁷². كذلك ما نقله أحد الرواة : «... سمعت إبراهيم الحربي²⁷³ * يقول كان أبو حنيفة طلب النحو في أول أمره فذهب يقيس فلم يجئ وأراد أن يكون فيه أستاذًا فقال قلب وقلوب وكلب وكلوب فقل له كلب وكلاب فتركه ووقع في الفقه فكان يقيس...»²⁷⁴.

أما توجهه النهائي للاختصاص في الفقه فله قصة طريفة يرويها أبو حنيفة بنفسه ، قال :

« ... كنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان فجاءتني امرأة يوما فقالت لي : رجل له امرأة أمة أراد أن يطلقها للسنة كم يطلقها ؟ فلم أدر ما أقول ، فأمرتها أن تسأل حمادا ثم ترجع تخبرني...» و تمضي الرواية متتابعة... فرجعت فأخبرتني ، فقلت لا حاجة لي في الكلام وأخذت نعلي فجلست إلى حماد ، فكنت أسمع مسائله فأحفظ قوله ثم يعيدها من الغد فأحفظها ويخطئ أصحابه فقال : لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة...» . وقد دامت صحبته لحماد ثمانية عشرة سنة²⁷⁵ ، كان فيها أبو حنيفة يتضلع من علم حماد وطريقته في الفتوى حتى بلغ مبلغا انس فيه من نفسه القدرة على الاستقلال وإنشاء حلقة خاصة به كما أفصحت عنه الرواية التالية :

« ... فصحبته عشر سنين ثم نازعتني نفسي الطلب للرئاسة ، فأحببت أن أعترله وأجلس في حلقة لنفسي ، فخرجت يوما بالعشي وعزمني أن أفعل ، فلما رأيته لم تطب نفسي أن أعترله...»²⁷⁶ ، وظل تلميذا له إلى آخر يوم في حياة الشيخ ، وقد ظهر نبوغه وتميزه و دقة نظره و سعة عقله في حياة أستاذه ، الشيء الذي مكن له محبة في قلبه تصفها الرواية التالية : «... سمعت إسماعيل بن حماد بن أبي سليمان يقول: غاب أبي غيبة في سفر له ثم

²⁷² الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج 13 ، 333

مصطفى الشكعة : الإمام الأعظم ، المرجع السابق ، ص : 13

²⁷³ * إبراهيم الحربي : إمام في الحديث ، بغدادي ، توفي سنة 285 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص :

171

²⁷⁴ الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ، المصدر السابق ، ص : 332

²⁷⁵ الشيرازي : المصدر السابق ، ص : 86

²⁷⁶ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 398

عبد الحي بن العماد الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 228 . جاء فيه : «...وتفقه على حماد بن سليمان وكان من أذكى بني آدم في الفقه والعبادة والورع والسخاء...»

قدم فقلت له يا أبت إلى أي شيء كنت أشوق ، قال وأنا أرى أنه يقول إلى ابني فقال : إلى أبي حنيفة ولو أمكنني أن لا أرفع طرفي عنه فعلت...»²⁷⁷، وإثر وفاة حماد أجمع تلامذته على تقديم أبي حنيفة لأن يخلفه في التعليم و الإشراف على شؤون الجماعة العلمية ، فكانت تلك الحلقة هي النواة لما سيتوسع في قابل السنين ليصير مدرسة و منهاج و مذهباً كاملاً يعتبر أشهر مذهب في فقه الإسلام .

ورغم الحملة الشرسة التي شنّها بعض من كبار المحدثين على منهجية أبي حنيفة في التعامل مع النصوص النبوية ، و إغراقه في القياس ، و ما يبدو إهمالاً للحديث و الآثار المروية²⁷⁸، إلا أنه يظل أحد كبار رجال السنة الذين قرروا المذهب العقدي و بينوه و نافحوا عنه و ردوا على الفرق و المذاهب الأخرى ؛ يتضح ذلك في الاحترام الذي ناله في العصور اللاحقة من طرف فقهاء الحديث أنفسهم ؛ و قد جاءت روايات تجمّل مذهب أبي حنيفة من أهم المسائل التي كانت محل جدال في عصره من ذلك ما سجله أحد مرتاديّه : «... قال : سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر قال لا تكفر أحداً بذنب ولا تنفي أحداً من الإيمان وتأمّر بالمعروف وتنتهي عن المنكر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولا تتبرأ من أحد من أصحاب رسول الله ولا توالي أحداً دون أحد وأن ترد أمر عثمان وعلي رضي الله عنهما إلى الله تعالى...»²⁷⁹

²⁷⁷ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ص : 335

²⁷⁸ انظر : محمد بن زاهد الكوثري : تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1981 ، ص : 14

وهبي سليمان الألباني : ممن الرحمن على التابعي أبي حنيفة النعمان ، ط 1 ، مكتبة الإمام أبي حنيفة ، بيروت ، سنة 1994 ، ص : 15

²⁷⁹ محمد بن أبي يكرين قيم الجوزية : اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1984 ، ص : 73 - 74 . جاء فيه : « ... قلت : فأخبرني عن أفضل الفقه قال يتعلم الرجل الإيمان والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأئمة وذكر مسائل في الإيمان ثم ذكر مسائل في القدر... » .

«...سمعت أبا عصمة يقول : سألت أبا حنيفة : من أهل الجماعة ؟ قال : من فضل أبا بكر وعمر وأحب علياً وعثمان وآمن بالقدر خيره وشره من الله ومسح على الخفين ولم يكفر مؤمناً بذنب ولم يتكلم في الله بشيء...» . أنظر :

أحمد بن الحسين البيهقي : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث ، ت أحمد عصام الكاتب دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة 1401 هـ ، ص : 163

هاك نموذجاً عن التهم التي تعرض لها .

«...عن سفيان الثوري رضي الله عنه قال : قال لي حماد بن أبي سليمان : أبلغ أبا حنيفة المشرك أنى منه بريء . قال سليمان ثم قال سفيان : لأنه كان يقول القرآن مخلوق . وحاشى الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه من هذا القول ، بل هو زور وباطل ، فإن أبا

ويبدو أن أبا حنيفة مع لزومه العلم و التفقه ثم الإشراف على الحلقة و تسيرها لم يقطع صلته بالتجارة ، خاصة إذا انتبهنا إلى أن العلم في ذلك الوقت كان عملا من أعمال القربات من الله ، لا يبتغي العالم منه المال ، ولم تنشأ بعد المدارس التي تجعل للمعلم معلوما ، فكان على العالم أن يسلك طريقين : إما الالتزام بالزهد في حياته الشخصية و قبول ما يأتيه من هبات و هدايا من أصدقائه أو من رجال الدولة لينفقها على من هم تحت كنفه ، أو يجد نفسه مضطرا للامتهان و العمل . و قد كان أبو حنيفة من الصنف الذي يجد رغبة في التجميل وسعة العيش و الاهتمام بمظهره ، فظل على صلة بالتجارة ينفق منها على أهله و يتصدق منها و يبر بها من حوله من طلبته و الوافدين عليه ، حتى كان ذلك من الخصال التي شهرته و رفعته بين العامة في الكوفة و حبيبت فيه أهلها²⁸⁰، ولم أقع في جملة الروايات التي عجت بالطعن في طريقته الفقهية أو خياراته في فتاواه وأقضيته أي طعن على مسلكيته الاجتماعية ، بل كان كرمه و تنزهه و ورعه و بره و خيريه مما ضربت به الأمثال ، و أقر به العدو و الصديق²⁸¹.

و خلال ثلاثين سنة من العمل الدعوى كانت حلقة أبي حنيفة تتوسع ويزداد عدد المنتسبين إليها من الدائمين أو من العابرين ، ومن خلال التنوع الجغرافي ضمن المتلمذين عليه ؛ هؤلاء الذين تختلف مدة ملازمتهم له و لغيره حسب حاجاتهم و ظروفهم ، كانوا يعودون إلى

حنيفة من أفضل أهل السنة ...» . أنظر : أبو الحسن الأشعري : الإبانة عن أصول الديانة : د ط ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، د ت ، ص ص : 27 - 28

²⁸⁰ تجلت ثقة الناس في أبي حنيفة في الودائع الكثيرة التي كان يتحملها للناس. وقد جاء في ترجمة حماد بن أبي حنيفة :

«... ولما توفي أبوه كانت عنده ودائع كثيرة من ذهب وفضة وغير ذلك وأربابها غائبون...»

= ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 205 .

= و يتجلى رفعة قدره لدى العامة و حسن سيرته عندهم في النص التالي : «... وروى بشر بن الوليد عن القاضي أبي يوسف قال : بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمعت رجلا يقول لآخر هذا أبو حنيفة لا ينالم الليل. فقال أبو حنيفة : والله لا يتحدث عني بما لم أفعل ، فكان يحيى الليل صلاة و تضرعا و دعاء ...» . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ص : 39

²⁸¹ انظر الروايات التالية : جاء في حكاية إنفاق أبي حنيفة على تلميذه أبي يوسف « ... كان يتعاهدني وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاق شيء وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت ...» . ابن خلكان : المصدر السابق ج : 6 ، ص : 380

«... وعن حماد بن أبي حنيفة : قال كان أبي جميلا تلوه سمرة وله هيئة كثير التعطر هيويا لا يتكلم إلا جوابا ولا يخوض رحمه الله فيما لا يعنيه . وعن ابن المبارك قال ما رأيت رجلا أوفر في مجلسه ولا أحسن سمنا وحلما من أبي حنيفة . عن إبراهيم بن سعيد الجوهري عن المثني بن رجاء قال : جعل أبو حنيفة على نفسه إن حلف بالله صادقا أن يتصدق بدينار وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها ...» . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص : 399 - 400

أمصارهم يحملون علم الإمام و مناقبه ، فيستحثون بذلك غيرهم للوفود عليه و الأخذ منه .
ورغم قسوة بعض الاتهامات التي تعرض لها من طرف المتشددين من كبارا لمحدثين²⁸² ،
إلا أن ذلك لم يمنع المعجبين بفقهاء و قدرته على الاستبطن و براعة أجوبته في معضلات
المسائل ، خاصة الباب الذي برع فيه حتى غدا ملتصقا به ، وهو "باب الحيل" من الفقه .وقد
عزز موقع الكوفة الجغرافي بوصفها أحد طرق الحج المهمة من مهمة ذيوع المذهب و
انتشاره ، حتى قبل أن تكرسه الدولة ممثلا في شخص كل من أبي يوسف قاضي القضاة و
محمد بن الحسن الشيباني وغيرهما من أساطين المذهب الحنفي .

ولما لم يكن غرض البحث التوسع في تفاصيل حياة الإمام و أخباره وعلاقاته المختلفة
و المتباينة مع علماء عصره من مختلف الطوائف ، و التي تتدرج من الحب و التقدير
و الإعجاب و الثناء²⁸³ إلى اللامبالاة و التجاهل بل لغاية الكره الكبير و المقت الشديد و
الأحكام الظالمة و صنوف التهم المختلفة ، فإنني أجد نفسي مضطرا لركوب متن الاختصار
الشديد .

لقد عاصر أبو حنيفة الدولة الأموية وعاش أغلب عمره تحت حكمها ، إذ كان عمره لما
نجح العباسيون في ثورتهم يفوق الخمسين سنة ، ثم عاش في ظل الدولة العباسية دون
العشرين سنة . ولقد حاولت كلتا الدولتين الزج به كعامل من عمالها في المجال الذي يحسنه
و هو القضاء ، و ذلك لمكانته و علمه و بعد صيته و استطلاة شهرته ، إذ كان مشهورا
بالذكاء وحسن النظر إبان العهد الأموي ، خاصة إذا علمنا أن رأسته للحلقة كان قبل سقوط

²⁸² أبو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص: 258 - 259 . جاء فيه :

«... حدثني أخي إسحاق بن عيسى قال كنا عند حماد بن زيد ومعنا وهب ابن جرير ، فذكرنا شيئا من قول أبي حنيفة ، قال حماد بن زيد : اسكت لا يزال الرجل منكم داحضا في بوله يذكر أهل البدع في مجلس عشيرته حتى يسقط من أعينهم ، ثم أقبل علينا حماد فقال : أتدرون ما كان أبو حنيفة إنما كان يخاصم في الأرجاء ، فلما تخوف على مهجته تكلم في الرأي ، ففاس سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضها ببعض لبيطلها وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاس...» .

المصدر نفسه : ج: 6 ، ص: 259

و قد شحن كل من أبي نعيم و الخطيب البغدادي كتابيهما بجملة وافرة من آراء الذين انتقدوه و شنعوا عليه ولا يخفى
تعصبيهما عليه لانتسابهما لمدرسة أهل الحديث .

²⁸³ «...قال سمعت بن المبارك قال إن كان الأثر قد عرف واحتيج إلى الرأي فرأي مالك وسفيان وأبي حنيفة وأبو حنيفة أحسنهم وأدقهم
فطنة واغوصهم على الفقه وهو أفقه الثلاثة...» «... قال سمعت شداد بن حكيم يقول: ما رأيت أعلم من أبي حنيفة .. سمعت مكي بن
إبراهيم ذكر أبا حنيفة فقال : كان أعلم أهل زمانه .. سمعت مليح بن وكيع يقول سمعت أبي يقول : ما لقيت أحدا أفقه من أبي حنيفة ولا
أحسن صلاة منه .. سمعت النضر بن شميل يقول: كان الناس نياما عن الفقه حتى أبقظهم أبو حنيفة بما فقهه وبينه...» . الخطيب البغدادي
: المصدر السابق ، ج 13 ، ص : 345

الدولة الأموية بأكثر من عشرة سنين ، ثم أدركته الدولة العباسية و قد استقام إماما كبيرا من أهم أئمة الإسلام و أعمقهم أثرا ، إلا انه كان شديد النفور من أجواء السلطة ، عميق الحساسية لكرامته و حريته وسلامة ما يصدره من أحكام و فتاوى ، يعلم الثمن الذي يدفعه من كل ذلك إذا استجاب لإغراءاتها ؛ فكان أن رضي بما يجلبه عليه موقفه من نارها لينتظم كأحد البارزين في تاريخ من أمتحن في الإسلام .

هذا وأن نصيبا كبيرا من العنت الذي تعرض له ، يعود بصورة أساسية لرأيه و قناعاته الفقهية في مسألة الإمامة و شرعية الخلافة و ما يستتبع ذلك من مواقف عملية لا تعجب الدولة و سأحاول عرض مذهبه السياسي و مواقفه التاريخية مما يندرج في صلب البحث .

فقهه السياسي :

يشرح الجصاص مذهب أبي حنيفة في مسألة الخروج على إمام المسلمين إذا تحقق فسقه وعم ظلمه ، بقوله : «... و كان مذهبه مشهورا في قتال الظلمة و أئمة الجور و لذلك قال الأوزاعي : احتملنا أبا حنيفة على كل شيء حتى جاءنا بالسيف فلم نحتمله ، و كان من قوله وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فرض فإن لم يؤمر له فبالسيف...»²⁸⁴ . وينقل أيضا في موضع آخر على لسان أبي حنيفة مناظرة جرت بينه و بين أحد فقهاء خراسان في مسألة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في الأيام التي شهدت نجاحات أبي مسلم الخراساني في التمهيد للدولة العباسية ، وقد بلغ شأوا بعيدا في العسف و الظلم والقتل على الريبة : «...فسألني عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، إلى أن اتفقنا على أنه فريضة من الله تعالى فقال لي : مد يدك حتى أباعك ، فأظلمت الدنيا بيني و بينه...» وقد أوضح علة ذلك بقوله : « دعاني إلى حق من حقوق الله فامتنعت عليه ، وقلت له إن قام به رجل وحده قتل و لم يصلح للناس أمر ، و لكن إن وجد عليه أعوانا صالحين ورجلا يرأس عليهم مأمونا على دين الله لا يحول .. هذا أمر لا يصلح بواحد ، ما أطاقت الأنبياء حتى عقدت عليه من السماء...» ثم يوضح فكرته بقوله : «...وهذه فريضة ليست كسائر الفرائض لأن سائر الفرائض يقوم بها الرجل وحده ، وهذا متى أمر بها رجل وحده أشاط

بدمه و عرض نفسه للقتل فأخافان يعين على قتل نفسه، وإذا قتل الرجل لم يجترئ غيره أن يعرض نفسه .»²⁸⁵

وثمة نصوص أخرى ، تزيد الأمر وضوحاً من ذلك ما ذكره أحد طلبته : «... فقلت فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك ناس فيخرج عن الجماعة هل ترى ذلك قال لا قلت ولم وقد أمر الله تعالى رسوله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فريضة واجبة فقال كذلك لكن ما يفسدون أكثر ممن يصلحون من سفك الدماء واستحلال الحرام...»²⁸⁶

وقد تجلت قناعة أبي حنيفة في هذه المسألة في موقفه العملي الفعلي من أهم الثورات التي شهدها ، سواء منها التي قامت في وجه الأمويين أو التي اشتعلت على عهد بني العباس ، من أهمها ثورة زيد بن علي سنة 122 هـ — 740 م²⁸⁷ ، في عهد هشام بن عبد الملك ، وملخصها أن زيدا وفد الكوفة فاجتمع عليه شيعتها من أجل أن يقودهم في الثورة على الحكم الأموي و قالوا له : «... لنرجو أن يكون هذا الزمان الذي تهلك فيه بنو أمية ، و جعلوا يبايعونه سرا . فبايعه أربعة عشر ألفا على جهاد الظالمين و الرفع عن المستضعفين ...»²⁸⁸ . لكنهم رجعوا يسألونه في مسائل تمس اعتقادهم في الصحابة : «... فقالوا ما تقول في أبي بكر و عمر . قال : ما أقول فيهما إلا خيرا . فتبرؤوا منه و نكثوا بيعته ...»²⁸⁹ و قالوا له : «... فلم تطلب بدم آل البيت؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر ، و لكن القوم استأثروا علينا به و دفعونا عنه و لم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا ، و قد ولوا فعدلوا و عملوا بالكتاب و

²⁸⁵ الجصاص ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 39

²⁸⁶ راجع ما كتبه ابن حزم : «... وذهبت طوائف من أهل السنة وجميع المعتزلة وجميع الخوارج و الزيدية إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك قالوا فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا يبيسون من الظفر ففرض عليهم ذلك وإن كانوا في عدد لا يرجون لقاتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكل من معه من الصحابة .. ومن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن وهاشم بن بشر ومطر ومن أخرج مع إبراهيم بن عبد الله وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة و الحسن بن حيي ...» . أبو محمد علي بن حزم : **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ، ت محمد إبراهيم المصري و

آخرون د ط ، ج 5 دار الجيل بيروت ، سنة 1985 ، ص : 20

²⁸⁷ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 273 — 274

²⁸⁸ غريغوريوس الملطي ابن العبري : **مختصر تاريخ الدول** ، د ط ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، سنة 1958 ، ص :

السنة ...» فلم يعجبهم هذا الجواب المعتدل فعادوا يستفسرونه قالوا : فلم تقاتل هؤلاء إذا ؟ قال : « إن هؤلاء ليسوا كأولئك ، إن هؤلاء ظلموا الناس و ظلموا أنفسهم ، و إنني أدعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم و إحياء السنن و إماتة البدع ، فإن تسمعوا يكن خيرا لكم ولي ، و إن تأبوا فلست عليكم بوكيل ...»²⁹⁰ فتبرؤوا منه و سعوا به و لم يبق معه إلا عدد قليل . وبلغ خبره أسماع الدولة فاستعدت لخروجه استعدادا تاما، حيث انتهى أمره مقتولا ناعيا على شيعة الكوفة الخذلان قائلا: « ... جعلتموها حسينية ...»²⁹¹ .

والروايات تذكر أن أبا حنيفة ساعد زيدا في خروجه هذا و أمده بالمال و كان ينصح الناس ويشير عليهم بالخروج معه ، وشبه خروجه بخروج رسول الله في بدر ، في أهليته و وضوح الحق فيه . لكن لما جاءت رسالة زيد يطلب فيها العون منه ، قال لحاملها : «... لو علمت أن الناس لا يخذلونه و يقومون معه قيام صدق ، لكنت أتبعه و أجاهد معه من خالفه ، إنه إمام صدق ، و لكنني أخاف أن يخذلوه كما خذلوا أباه ؛ ، لكنني أعينه بمالي فيتقوى به على من خالفه .»²⁹² . و هذا الموقف منه يتطابق و يتماثل مع ما سلف ذكره في الجانب النظري من رأيه إذ كان أبو حنيفة يتوقع لثورة زيد المآل الذي انتهت إليه لضعف تنظيمها الداخلي ، و انحصارها داخل الكوفة ، وقلة عدد ثوارها ، إضافة إلى قلة الإمداد المادي الذي لا مناص منه لثورة تطمح لقلب نظام الحكم في عهد هشام الذي يعد من أحزم خلفاء بني أمية . كذلك سوء رأيه في شيعة الكوفة و علمه بتاريخ خذلانهم لآل البيت . إضافة إلى أن أبا حنيفة لم يكن قد بلغ في هذه الفترة المنزلة التي تسنمها بعد ذلك ، لأنه لم يكن في هذا التاريخ قد مر عليه أكثر من سنتين على موت حماد و جلوسه مكانه في الحلقة .

²⁹⁰ ابن كثير : المصدر السابق ، نفس الصفحة

²⁹¹ ابن العبري : المصدر السابق ، نفس الصفحة . راجع تفاصيل هذه الثورة في كل من :

المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 256 — 258

ابن عبد ربه : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 482 — 483 .

ابن قتيبة : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 104 . باختلاف ملحوظ فيما بينها

علي سامي النشار : نشأة ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص : 150 — 159

محمد إبراهيم الفيومي : الفرق الإسلامية و حق الأمة السياسي ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت ، سنة 1998 ، ص :

أما الثورة الثانية التي عاصرها أبو حنيفة و كان له منها موقفا واضحا ، فهي ثورة محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية و أخيه إبراهيم ، وهما من أولاد الحسن بن الحسن بن علي ، وقد حدثت ثورتها عام 145هـ - 762م، في الوقت الذي كان أبو حنيفة قد بلغ غاية الشهرة والسؤدد .

وتعود جذور هذه الثورة العلوية إلى العهد الأموي ضمن مخطط الانقلاب على الدولة الأموية بواسطة التأكيد على الحق العلوي في الخلافة ، في السياق العام الذي كانت تسير فيه الحركة الشيعية بمختلف أطرافها و اتجاهاتها . فقد سبق أن قدم المنصور ذاته بيعته لمحمد ذي النفس الزكية في الأيام التي كان فيها التحالف العلوي و العباسي يعمل في السر لإنجاح الثورة تحت شعار " الدعوة للرضا من آل البيت " . فلما تحقق للثورة مبتغاها و تحولت في ظروف لا تخلو من غموض إلى أن يحتكرها البيت العباسي رفض ذو النفس الزكية و أخوه وغيرهما من المتحمسين لحق البيت العلوي في الحكم الاعتراف بالأمر الواقع ، و فضلوا مواصلة العمل ومضوا على سنة الاختفاء و الكتمان شأن كل عمل سياسي لا ترضاه الدولة القائمة ، و قاموا ببث الدعوة في مختلف الأمصار كخراسان و الجزيرة و الري*²⁹³ و طبرستان و اليمن و شمال إفريقيا ، وجعل النفس الزكية مركزه بالحجاز كما استطاع ضمان نصره مائة ألف يحمون ظهره ، الأمر الذي اقض مضجع المنصور ، و نغص عليه هناءته لما يعلم من عمق الحب و التقدير الذي يحظى به خصمه في أوساط الناس . و قرر النفس الزكية أن يخرج في رجب من سنة 145 هـ بعد أن أرهقته مطاردات المنصور ، وجعل من المدينة مركز نشاطه وأرسل أخوه إبراهيم إلى البصرة . فترك المنصور بناء بغداد ووجه جهده للقضاء على خصمه و اعتبر الأمر مصيريا²⁹⁴ ، حيث تذكر الروايات مقدار الهم الذي ركب المنصور حتى شغله عن مطعمه و هيأته و عن أهله ، بل بلغ به الأمر إلى تجهيز كتيبة من الفرسان ليستظهر بهم حال انهزامه و فراره ، لكن الثورة آلت للفشل لإعتبارت عدة ليس أقلها سوء التخطيط و قصور التدبير كعادة الثورات الشيعية السابقة وانتهى النفس الزكية و أخاه مجندلين في المدينة و الكوفة . ذكرت أن أبا حنيفة شهد تفاصيل تلك الثورة وكان له فيها موقف علني ، إذ تورد الروايات

²⁹³ * الري : مدينة مشهورة من أمهات البلاد كثيرة الخيرات وافرة الغلات قديمة البناء .

القوزيني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 375

²⁹⁴ الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، ص ص: 212- 220

التاريخية انه كان ينصح الناس ويحضهم عل مساندة الثورة ، و أفقّى بان الخروج معها أفضل من الحج النفل خمسين أو سبعين مرة و قال لرجل اسمه أبو إسحاق الفزاري*²⁹⁵ : «... مَخْرَجَ أَخِيكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَخْرَجِكَ...» وكان اخو الفزاري ممن ساند النفس الزكية و أخاه ، في حين كان مخرج الفزاري لجهاد الكافرين في الثَّغور²⁹⁶ .

يعني موقفه هذا أن الجهاد لتخليص الأمة الإسلامية من سطوة الخليفة الفاسق أو الظالم أولى و أفضل من قتال الكفار²⁹⁷ .و كانت عين المنصور غير نائمة عما يدور في مجالس أبي حنيفة فكان يرسل من يتقصى خبره ، و كان هذا من الأمور التي أجبت غيظه عليه²⁹⁸ .

لقد جاء موقفه هذا مسايرا لنظريته التي تنص على وجوب الخروج على الخليفة إذا علم فسقه و جوره و عم ظلمه ، مع العلم انه لم ينفرد برأيه هذا في ثورة النفس الزكية خصوصا إذ كان للإمام مالك نفس الموقف التي تجلت في فتواه الشهيرة في بطلان طلاق المكره ، و حلف المكره و بيعه المكره . الأمر الذي عرضه لغضب والي المدينة فقام بجلده و التشهير به .

ولعل الأمر يزداد وضوحا فيما يخص آراء أبي حنيفة و مواقفه التاريخية التي تمس مسألة الخلافة إذا استعرضنا بقية مواقفه و والحوادث التي حصلت له سواء في العهد الأموي أو العباسي ؛ إذ أن استقرار الروايات يتجه نحو تصويره في صورة الذي يرفض أن يتولى أي عمل لكلا الدولتين ، و في كليتهما يتعرض لمحنة الضرب و الحبس .

²⁹⁵* الفزاري : ثقة فاضل نزل الجزيرة ، صاحب سنة وغزو ، مات بالمصيصة سنة 188 هـ

ابن سعد : الطبقات الكبرى ، د ط ، ج 7 ، دار صادر ، بيروت ، د ت ، ص : 313
²⁹⁶ الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج13 ، ص: 397 - 398

²⁹⁷ محمد علي قطب : الأئمة الأربعة ، د ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، د ت ، ص : 49

احمد الشرباصي : الأئمة الأربعة ، د ط ، دار الجيل ، بيروت ، د ت ، ص ص : 41 — 43

²⁹⁸ عرض ابن حزم لهذا الأمر و لخصه كالتالي : « ... الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان أبو حنيفة رحمه الله على بيعته و من جملة شيعته ، حتى رفع الأمر إلى المنصور فحبسه حبس الأبد ، حتى مات في الحبس . وقيل إنه إنما بايع محمد بن عبد الله الإمام في أيام المنصور . ولما قتل محمد بالمدينة بقي الإمام أبو حنيفة على تلك البيعة ، يعتقد موالاة أهل البيت ، فرفع حاله إلى المنصور ... » . ابن حزم : الفصل ، المصدر السابق

، ج 4 ، ص : 158

روي حفيده قال : «... مررت مع أبي بالكناسة فبكى فقلت له يا أبت ما يبكيك فقال يا بني في هذا الموضع ضُرب أبي عشرة أيام في كل يوم عشرة أسواط على أن يلي القضاء فلم يفعل والكناسة بضم الكاف موضع بالكوفة...»²⁹⁹. كان ذلك أيام الدولة الأموية ، أما في العهد العباسي فتكاد الروايات تجمع على محنته مع المنصور و التي سأجملها طلبا للاختصار ، إذ مفادها أن أبا جعفر المنصور نقله من الكوفة إلى بغداد فأرادَه على أن يوليه القضاء فأبى فحلف عليه ليفعلن فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل فحلف المنصور ليفعلن فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل «...وقال إني لن أصلح للقضاء فقال حاجب المنصور: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ، فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين على كَفَّارة أَيْمَانَه أقدر مني على كفارة أيماني وأبى أن يلي فأمر به إلى الحبس في الوقت...»³⁰⁰ . ثم يورد ابن خلكان خبرا آخر مفاده أن المنصور استعمله على عد اللبن المستعمل في بناء بغداد تكفيرا عن يمينه .

²⁹⁹ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 5 ، ص: 408

ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق ، ج 1 ، ص: 228

«...ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضيا...» . انظر : الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص: 395

³⁰⁰ ابن خلكان : المصدر السابق ، ص : 408

الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء البلغاء ، ط 2 ، دار الجبل ، بيروت ، سنة 1986 ، ص: 84

. «...وقال الربيع رأيت المنصور ينزل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول اتق الله ولا ترعي أمانتك إلا من يخاف الله والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم تهددتنى أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق و لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له كذبت أنت تصلح فقال له قد حكمت لي على نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب...» .

ابن خلكان : نفس المصدر، ج 5 ، ص ص: 407 - 408

«...وتوفي في رجب وقيل في شعبان سنة خمسين و مائة وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من السنة وقيل سنة إحدى وخمسين وقيل ثلاث وخمسين والأول أصح وكانت وفاته ببغداد في السجن ليلي القضاء فلم يفعل هذا هو الصحيح...»

ابن خلكان : نفس المصدر ، ص: 414

انظر : القزويني : آثار البلاد ، المصدر السابق ، ص : 252 . كذلك : الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص:

لكنه يعلق عليه : «... ولم يصح هذا من جهة النقل...»³⁰¹ . وتذهب بعض الأخبار إلى أنه مات في سجنه ببغداد كما ذهب أخرى إلى أنه قضى نحبه مسموما ، سمه المنصور عقابا على مواقفه التاريخية خصوصا دوره في ثورة النفس الزكية .

الأوزاعي :

³⁰¹ ابن خلكان : المصدر السابق ، ص : 408 . لكن ذات الرواية نجدها لدى الطبري : «...أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء فامتنع من ذلك فحلف المنصور أن يتولى له وحلف أبو حنيفة ألا يفعل فؤلاه القيام ببناء المدينة وضرب اللبن وعده وأخذ الرجال بالعمل قال وإنما فعل المنصور ذلك ليخرج من يمينه قال وكان أبو حنيفة المتولي لذلك حتى فرغ ...» انظر : الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 24

أحد الأئمة الأعلام الذين أنجبته بلاد الشام ، وأحد أبرز رجال السنة ، و واحد من الذين استطاعوا بفضل سعة علمهم أن يؤسسوا لأنفسهم مذهباً فقهياً مستقلاً بذاته ، لكن لم يقدر لمذهبه الذيوع و الانتشار كما قدر للمذاهب المشهورة .

حلاه أبو نعيم الأصفهاني بقوله : « ... العَلَمُ المَنْشُور والحَكَمُ المشهور الإمام المَبْجَل والمِقْدَامُ المفضل عبد الرحمن بن عمرو أبو عمر الأوزاعي رضي الله تعالى عنه .. كان ممن لا يخاف في الله لومة لائم مِقْوَالاً بالحق لا يخاف سَطْوَةَ العِظَائِم ... »³⁰² . و زكاه الذهبي في الترجمة الحافلة التي وضعها له فقال : « ... شيخ الإسلام وعالم أهل الشام أبو عمرو الأوزاعي كان يسكن بمحلة الأوزاع وهي العقبية الصغيرة ظاهر باب الفراديس بدمشق ثم تحول إلى بيروت مرابطاً بها إلى أن مات... » « ... وقيل كان مولده ببعلبك * سنة ثمان وثمانين وكان خيراً فاضلاً مأموناً كثير العلم والحديث والفقه حجة توفي سنة سبع وخمسين و مائة ، وأما البخاري فقال لم يكن من الأوزاع بل نزل فيهم ... »³⁰³ . و ذكر اختلافاً في تاريخ ميلاده لكن الراجح في ذلك ما جاء في النص ، بحيث تؤكد شهادة صاحب الترجمة ذاته : « ... كنت محتتماً أو شبيهاً بالمحتلم في خلافة عمر بن عبد العزيز... »³⁰⁴ . فإذا أخذنا في الحساب تاريخ خلافة عمر من سنة 99 هـ إلى سنة 101 هـ³⁰⁵ مع اعتبار معنى الشبيه بالمحتلم الذي ذكره استقام لنا الارتياح إلى التاريخ المعتمد ؛ و هو 88 هـ — 707م. الأمر الذي يعني أنه ولد في لسنتين خلتا من وفاة عبد الملك بن مروان³⁰⁶ و اعتلاء الوليد بن عبد الملك عرش الخلافة فعاصر خلافة سليمان بن عبد الملك حتى آخر خليفة

³⁰² أبو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 135

● بعلبك : مدينة مشهورة بقرب دمشق و هي قديمة ، بنقل منها الميرة الى بلاد الشام . القزويني : آثار البلاد ، المصدر السابق ، ص : 156

³⁰³ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص ص : 107 — 109 . و يتوسع الذهبي في إيراد مختلف الروايات التي تدور حول أصل الأوزاعي و نسبه من بينها : « ... قال ضمرة بن ربيعة الأوزاع اسم وقع على موضع مشهور بربض دمشق سمي بذلك لأنه سكنه بقايا من قبائل شتى الأوزاع الفرق تقول وزعته أي فرقته قال أبو زرعة الدمشقي اسم الأوزاعي عبد العزيز بن عمرو بن أبي عمرو فسمى نفسه عبد الرحمن وكان أصله من سبي السند نزل في الأوزاع فغلب عليه ذلك وكان فقيه أهل الشام وكانت صنعته الكتابة والترسل ورسائله تؤثر... »

³⁰⁴ نفس المصدر ، نفس الصفحة

³⁰⁵ 717م — 719 . المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 225

³⁰⁶ توفي عبد الملك سنة 86 هـ . أنظر : ابن كثير : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 55. ابن العبري : التاريخ ،

المصدر السابق ، ص : 113

أموي وهو مروان بن محمد الجعدي فعدد من عاصره من خلفاء بني أمية تسعة³⁰⁷. أما عدد الذين عاصرهم من خلفاء بني العباس فهم السفاح والمنصور .

نشأ يتيم الأب في كفالة أحد أصدقاء أبيه ؛ إذ توفي والده سنة 93 هـ — 712م و سنيه لا تتجاوز الخامسة ، فكفلته أمه مدة قصيرة . و لابد أن أوضاعها لم تكن مستقرة إذ يصف ابن كثير مدة كونه معها بالاضطراب : « ... وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد ... »³⁰⁸ . و ربما كانت من الفقر و الحاجة ما أعجزها عن تحمل أعباء صغيرها ؛ إذ جاء في إحدى الروايات على لسان أحد شهود طفولته : « ... فما رأيت أبي يتعجب من شيء في الدنيا تعجبه من الأوزاعي ، فكان يقول : سُبْحَانَكَ تَفَعَّلُ مَا تَشَاءُ ؛ كان الأوزاعي يتيما فقيرا في حجر أمه تَنَقَّلَهُ من بلد إلى بلد ، و قد جَرَى حَكْمُكَ أَنْ بَلَغَتْهُ حَيْثُ رَأَيْتُهُ .. عَجَزَتِ الْمُلُوكُ أَنْ تَوَدَّبَ نَفْسَهَا وَأَوْلَادَهَا وَضَوْءُ الْأَوْزَاعِي فِي نَفْسِهِ ... »³⁰⁹ ثم سلمته للأحد أصدقاء والده فأحسن كفالاته وتربيته و تعليمه : « ... فذهب بي إلى بيته فكنت معه حتى بلغت فالحقني بالديوان ... »³¹⁰ .

وقد بدت تباشير النجابة و النبوغ عليه منذ صغره ؛ حيث : « ... تَأَدَّبَ بِنَفْسِهِ فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء و الوزراء و التجار و غيرهم أعقل منه و لا أورع و لا أعلم و لا أفصح و لا أوقر و لا أحلم و لا أكثر صمتا منه ، و كان يُعَايِنُ الرسائل و الكتابة... »³¹¹

ولا يبدو أن الأوزاعي كان يعي هدفه في بداية حياته و لا كان يطمح للمصير الذي انتهى إليه كعلم من أعلام الدين ؛ إذ يبدو أن ولعه العلمي الذي أصفاه عمره جاء أشبه بالصدفة غير المحسوبة . فوجد للعلم حلاوة و أنس من نفسه استعدادا فحمل عصا الرحيل إلى المدينة بين عامي 110 هـ و 113 هـ³¹² ؛ حيث دخلها طالبا للعلم³¹³ ، وهي

³⁰⁷ وهم كالتالي : الوليد بن عبد الملك ، سليمان بن عبد الملك ، عمر بن عبد العزيز ، يزيد بن عبد الملك ، هشام بن عبد الملك

الوليد بن يزيد ، يزيد بن الوليد ، إبراهيم بن الوليد ، مروان بن محمد .

³⁰⁸ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 94

³⁰⁹ أبو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ج 6 ، 134

³¹⁰ ابن كثير : المصدر السابق ، ص : 94

³¹¹ نفس المصدر ، نفس الصفحة

³¹² 728م — 731م

بلد السنة بامتياز حيث لا تزال ذكرى النبي صلى الله عليه و سلم ندية رطبة ؛ محفوظة و مروية ، فالتقى بالجلة من علمائها الموثوقين منهم و المعروفين بالثبوت في الرواية و الفتوى و لم يفوت فرص الحج ؛ إذ كان يشد رحاله بيمم شطر مكة حتى يتسنى له لقاء من لم يلقه و سماع ما فاتته من الحديث الشريف و الفقه و المناسك و المغازي ؛ حتى غدا علما من أعلام المسلمين في الشام و في غيرها . فشهد له بذلك شيوخه و أقرانه و نظرائه و حرصوا على لقائه و الاجتماع به .

لقد كان الأوزاعي سنيا متعصبا — إذا صح التعبير — شديد التمسك بسنن مآبها ، كثير التنبيه لأهمية الانتماء السني على مستوى الخلاص الآخروي « ... قال : رأيت رب العزة في المنام فقال لي يا عبد الرحمن أنت الذي تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر قلت بفضلك يا رب فقلت يا رب أمتي على الإسلام فقال وعلى السنة ... »³¹⁴ . و قال : « ... كان يقال خمس كان عليها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم و التابعون بإحسان لزوم الجماعة و إتباع السنة و عمارة المسجد و تلاوة القرآن و الجهاد في سبيل الله ... »³¹⁵ . و قد جاءت حكايات عديدة عنه تلمح إلى ما كان يسلكه في حياته من التزام بالسنة و الدعوة إليها و منابذة كل من يرى أو يسمع عنه شيئا من الانحراف عليها . فيروى أن : « ... ثورا³¹⁶ لقي الأوزاعي فمد يده إليه فأبى الأوزاعي أن يمد يده إليه و قال يا ثور لو كانت الدنيا لكانت

³¹³ « ... قال : قدمت المدينة في خلافة هشام فقلت من هاهنا من العلماء قالوا هاهنا محمد بن المنكدر و محمد بن كعب القرظي و محمد بن علي بن عبد الله بن عباس و محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت والله

لأبدأن بهذا قبلكم... » . أبو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ص : 146
³¹⁴ أبو نعيم : المصدر نفسه ، ص : 142 - 143 . لقد كان يخشى أن يشهد الوقت الذي يبطل فيه العمل بالسنة ، و كان يتنبأ بشيء مثل هذا لشدة اهتمامه بهذا الأمر : « ... كان يقال : يأتي على الناس زمان أقل شيء فيه أخ مؤنس أو درهم من حلال أو عمل في السنة ... » .

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص : 181

³¹⁵ أبو نعيم : المصدر السابق ، نفس الصفحة . راجع عقيدته بوضوح في النص التالي : « ... اصبر نفسك على السنة و وقف حيث وقف القوم و قل بما قالوا و كف عما كفوا عنه ، و اسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسلك ما وسعهم ، و لا يستقيم الإيمان إلا بالقول ، و لا يستقيم العمل إلا بالعمل ، و لا يستقيم الإيمان و القول و العمل إلا بالنية موافقة للسنة ، و كان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان و العمل ؛ العمل من الإيمان و الإيمان من العمل... » . نفس المصدر ، نفس الصفحة .

³¹⁶ * ثور بن يزيد : أبو يزيد الكلاعي المحدث الفقيه عالم حمص . قال أحمد : كان ثور يرى القدر و ليس به بأس ، و لرأيه في القدر أخرجوه و أحرقوا داره لكلامه في القدر قال ابن سعد توفي ثور بببيت المقدس سنة ثلاث و خمسين و مائة و قيل سنة خمس و خمسين و مائة . أنظر : الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 344

المُقَارَبَةِ ولكنه الدين وقال أحمد بن حنبل كان ثور يرى القدر...»³¹⁷. و آخر يعد من شيوخه قاطعه و ترك صحبتته لأمر فيه مخالفة للسنة آخذه عليه : «... قال محمد بن الحجاج : خرجت أريد الساحل فقال لي : زرة»³¹⁸ : إذا أتيت الأوزاعي فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك زرة مَنْ عَلَّمَكَ علمك الذي تُحْسِنُهُ ؟ قال فاجتمعت الأوزاعي و أخبرته بذلك فقال : إذا لقيتَه فأقرئه السلام و قل له : صدقتَ تعلمنا منك فلما أُحْدِثْتَ تركنا علمك ...»³¹⁹

وكان شديد التحوط في معاملاته مع الناس من كل ما قد يخدش كرامته ، أو يعيب نزاهته أو يمس وقار العلم و هيبة الإمامة و شرف الاستقامة ، و كان إلى ذلك شديد الانتباه لكونه قدوة لغيره . و قد أثر عنه قوله : « ... كنا نَمَزَح ونضحك فأما إذا صرنا يقتدى بنا ما أرى يَسَعُنَا التَّبَسُّم ...»³²⁰. وقال : «... لو قَبَلْنَا من الناس كُلِّما يعطوننا لَهَئِذَا عليهم...»³²¹

يرجع لهذا الصدق في الالتزام الذي طبع به مسلكه مع نفسه و مع الناس كل التقدير والاحترام و الإعجاب الذين حضى بهما بين العامة والخاصة³²² ، حتى و صف بأنه : «... رَجُلٌ عَامَّةٌ...»³²³ و يعود إليه الجاه و نفوذ الكلمة و جلاله الهيبة التي ميزته عن

³¹⁷ الذهبي : المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص : 344 – 345 «... أخبرني عبد الرحمن بن مهدي قال ما كان بالشام أحد أعلم بالسنة من الأوزاعي .. ابن المصنفى قال سمعت بقية يقول سمعت الأوزاعي يقول ندور مع السنة حيث دارت أنظر :

أبو قاسم الالكائي : شرح أصول اعتقاد أهل السنة و الجماعة ، ت أحمد سعد حمدان ، د ط ، ج 1 ، دار طيبة ، الرياض ، 1402 هـ ، ص: 64

³¹⁸ لم أعثر على ترجمته

³¹⁹ و لقد شدد على صدقة بن عبد الله السمين حيث كتب إليه رسالة في رد القول بالقدر يعظه فيها ، لأن صدقة كان من القائلين به . أنظر : الذهبي : ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ت علي حمد البجاوي ، ط 1 ، ج 2 ، دارا حياء الكتب العربية ، مصر ، سنة 1963 ص: 311

³²⁰ أبو نعيم : المصدر السابق ، ص : 143 . ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص : 180

³²¹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص ص : 344 - 345

³²² لم يكن مقصد المسلمين المتظلمين من رجال الدولة و غيرهم فقط ، لكنه كان مقصد جميع الناس من مختلف طوائفهم « ... أهدى نصراني إلى الأوزاعي جرة غسل فقال له يا أبا عمرو تكتب لي إلى والي بعلبك فقال إن شئت رددت الجرة وكتبت لك و إلا قبلت الجرة ولم أكتب لك قال فرد الجرة وكتب له فوضع عنه ثلاثين ...»

ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ص : 180

ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 97

³²³ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 113

أقرانه في بلاد الشام ، بحيث يقال أن أحد الولاة³²⁴ غضب عليه و هم به ، فنصحه احد أصحابه : «... دعه عنك و الله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك...»³²⁵ . و وصفه ابن كثير : «... و قد كان الأوزاعي في الشام معظما مكرما ، أمره أعز عندهم من أمر السلطان...»³²⁶ . لذلك كانت الولاة وعمال الدولة تخشاه وتخاف غضبته ، حتى يروى أن أحدهم جلس على قبره لما مات فقال : «... رحمك الله ، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذي ولاني — يعني المنصور — ...»³²⁷

علاقته الفعلية بالدولة

يبدو أن الأوزاعي رغم تشدده في الورع و امتناعه عن مخالطة السلاطين إلا أنه كان يكتب الولاة و الخلفاء في حوائج الناس ؛ سواء كانوا مسلمين أو من أهل الذمة ، كما يظهر من حكايته مع الذمي الذي كتب له إلى والي بعلبك ليسقط عنه بعضا من الجزية ، وكما تنص عليه الرواية التالية : «... وكان على الموسم عبد الصمد بن علي الهاشمي ، فدق داق الباب قلنا : من هذا قال : الأمير ، وقام الأوزاعي فتلقاه ، فقال له عبد الصمد بن علي : من أنت أيها الشيخ ؟ قال : أنا أبو عمرو الأوزاعي قال : حياك الله بالسلام أما إن كتبك كانت تأتينا فكنا نقضى حوائجك...»³²⁸ . لكن ذلك لم يبلغ حد أن يقبل بتولي أي وظيفة من وظائف الدولة ؛ قضاء كان أو غيره . ولقد حدث أن حاول بنو أمية استمالته لتولي القضاء لكنه استعصى وامتنع : «... قال أبو زرعة : أريد على القضاء في أيام يزيد الناقص فامتنع يعني الأوزاعي جلس لهم مجلسا واحدا³²⁹...» و جاء في خبر آخر : «... قال عقبة بن علقمة البيروتي³³⁰ أرادوا الأوزاعي على القضاء فامتنع وأبى فتركوه³³¹...» . و قد حاول

³²⁴ لم يرد ذكر اسم الوالي في المصدر و لا صاحبه

³²⁵ ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 97

³²⁶ نفس المصدر ، نفس الصفحة

³²⁷ نفس المصدر ، نفس الصفحة

³²⁸ الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 159

³²⁹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 122

³³⁰ لم أجد ترجمته

³³¹ الذهبي : المصدر نفسه ، ج 7 ، ص : 117

عبد الله بن علي العباسي لما غلب بني أمية على الشام استصدار موافقة منه لتولي القضاء فأبى و تلتطف في الاعتذار³³².

و قد كانت أصول اللعبة بين الدولة سواء أموية أو عباسية و بين أمثال الأوزاعي في مسألة العمل لها معروفة للطرفين ، فلم يكن الأمر مجرد الرغبة في الكفاءة ، بقدر ما هو صنيع إعلامي تمتح الدولة منه ما يظل ينقصها من شرعية ، و تحاول به تغطية ما يصنع الريبة و الاشتباه الشرعي ، وكان رفضه لعروضها و إغراءاتها مفهوم في سياق رفضه المبدئي لأصول وجودها و تأكيده على نقص شرعيتها ؛ بعبارة أخرى تأكيد صفة التغلب و القهر و الامتلاك بالقوة في بنيتها و طبيعتها ، و يكون التحذير الفقهي الذي يطلقه مثل هؤلاء الفقهاء ضد الخروج و الثورة على مثل هذه الدولة المتغلبة مندرج في صفة الرضا بأهون الشرين ؛ شر التغلب أو شر الفتنة التي لا يقوم فيها أمر الدين ولا الدنيا .

فلم يكن الأوزاعي ممن يذهب إلى جواز الخروج على الخليفة لأي سبب كان من ظلم أو فسق لما يحدثه الخروج من مفاصد دينية و دنيوية يلتاث بها أمر المسلمين . و هو رأي كاد أن ينعقد عليه إجماع أهل السنة لولا ما سبق أن عرضناه من رأي أبي حنيفة وبعض الآراء المنفردة الشاذة كرأي الحسن بن صالح*³³³. و يتضح رأيه من خلال معارضته لأبي حنيفة وسوء ظنه فيه في النص التالي : « .. قال ابن المبارك : ذكرت أبا حنيفة يوما عند

³³² ابن كثير : المصدر السابق ، ص ص : 95 — 96

³³³ * الحسن بن صالح : أحد أئمة الحديث و ولد سنة 100 هـ و توفي سنة 167 هـ .

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 85

« ... قال احمد بن حنبل : كان الحسن بن صالح إذا ذكر عثمان سكت ، يعني لم يترحم عليه ، وترك الحسن بن صالح الجمعة سبع سنين ، فأخبرنا أبو بكر المروزي : أن أبا عبدا لله ذكر الحسن بن صالح فقال : كان يرى السيف ، ولا يرضى مذهبه . وسفيان أحب إلينا منه ، وقد كان ابن صالح ترك الجمعة بآخرة ، وقد كان أفتن الناس بسكوته .. وأخبرنا أبو بكر المروزي قال حدثنا أبو هشام قال : سمعت يحيى بن آدم أيام أبي السرايا يقول : ها هنا قوم ينتحلون قول الحسن بن صالح بن حي ، قد هلكوا وسمعت الحسن بن صالح يقول : لا أخرج وإمام قائم ولا أخرج إلا في فرقة ولا أخرج إلا في جند يوازى عدوي ، لا ألقى بيدي إلى التهلكة ولا أخرج إلا مع إمام فيه شرائع السنن كلها ، إن كانت السنن مائة شريعة وكان فيه منها تسع وتسعون شريعة لم أخرج معه ... » انظر

أبو بكر الخلال : السنة ، ت عطية الزهراني ، ط 1 ، دار الراية ، الرياض ، سنة 1410 هـ ، ص ص :

الأوزاعي فأعرض عني فعاتبته فقال: تَجِيءُ إلى رجل يَرَى السَّيْفَ في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ...»³³⁴.

وربما لأجل ذلك و لغيره كان معظما لدى الدولة ؛ سواء الدولة الأموية التي أدرك أواخرها وهو رجلا ينصت لقوله ، أو الدولة العباسية التي قضى في ظلها بقية عمره . فلقد كان الخلفاء الحازمين من كلا الدولتين شديدي التنقيب و الكشف عن الآراء و الأحكام التي يضمروها أو يعلنها هذا الفقيه أو ذاك ؛ خاصة من الفقهاء أصحاب المكانة و المنزلة و التأثير في الناس ؛ أي الذين يملكون السيادة الحقيقية القائمة على الحب العميق و الاحترام الصادق ؛ السيادة التي عبرت عنها إحدى أم ولد للرشيد : «... قدم هارون الرشيد الرقة فانجفل الناس خلف ابن المبارك و تقطعت النعال و ارتفعت الغبرة و أشرفت أم ولد للرشيد .. قالت ما هذا ؟ قالوا عالم من خراسان يقال له عبد الله بن المبارك . فقالت هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط و أعوان ... »³³⁵ . و التي عبر عن حسن إدراكها هارون الرشيد أيضا لما:

« ... ورد على الرشيد كتاب من عامل هيت³³⁶ * : أنه مات هنا غريبا يدعى عبد الله بن المبارك فاجتمع الناس على جنازته . فقال الرشيد لوزيره .. انذن للناس يُعزّوننا فيه .. لقد كان ابن المبارك ينشد :

الله يَدْفَعُ بِالسُّلْطَانِ مُعْضِلَةً عَنْ دِينِنَا رَحْمَةً مِنْهُ وَ رِضْوَانًا
لَوْلَا اللَّائِمَةُ لَمْ يَأْمَنْ لَنَا سُبُلٌ وَكَانَ أَضْعَفْنَا نَهَبًا لِأَقْوَانَا

و من سمع منه هذا القول مع فضله و عظمته في صدور الناس كيف لا يعرف حقا
...»³³⁷

لذلك كان الأوزاعي معظما في صدور السلاطين : « ... و قد اجتمع بالمنصور حين دخل الشام و وعظه و أحبه المنصور و عظمه ... »³³⁸ . و لقد استمع مرة لنصيحته فلما

³³⁴ الخطيب البغدادي ، التاريخ ، المصدر السابق ، ج 13 ، ص : 397

³³⁵ ابن الجوزي ، صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص : 91

³³⁶ * هيت : بلدة طيبة على الفرات ذات أشجار و خيرات . القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 281

³³⁷ حافظ الدين الكردي : مناقب ، المصدر السابق ، ص : 442

³³⁸ ابن كثير البداية ، المصدر السابق ، ص : 97

انتهى منها «...أمر له بـمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا كلها وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في رده ...»³³⁹.

و استدعاه مرة في مجلس مثوبة ، أي مجلس انبساط كان فيه المنصور مستعدا لسماع أي شيء من رجل كالأوزاعي³⁴⁰. فوجدها الأوزاعي فرصة لأن يعظ المنصور و يقول كلمة الحق بين يديه وينهي إليه مشاغل الرعية .

فهكذا كان الأوزاعي كما وصف بأنه رجل عامة بمعنى أنه كان ينشط في قضاء مصالح العوام ، ولم يكن مجرد عابد معتزل مهتم لأمر نفسه ، و لما كان المشغول بالشأن العام متعرض لا محالة لمخالطة أرباب السلطة الممسكين بمصالح الناس ، فإن هذه الحقيقة محرجة لمن هم في مكانة الأوزاعي و علمه و تورعه . و قد كان سلوكه حيالها الإقلال قدر الإمكان من الاتصال بأجواء السلطة إتباعا لتراث خطه كبار الفقهاء الجامعين بين العلم و العبادة من التابعين ، خوفا من فتنة السلطان و ضرورة المداينة .

لكن الأوزاعي لم يسلم من الامتحان . وقد كان ذلك إثر انتصار العباسيين على آخر فلول بني أمية فكان امتحانا عسيرا جاء كأنه فحص امني في مدى ولاء الأوزاعي للدولة الجديدة وطالت المسائلة التي أرادها عبدا لله بن علي بحث الحكم الشرعي في دماء بي أمية و أموالهم و مسألة الحق العلوي — العباسي في الخلافة و قضية شرعية الانقلاب العلوي — العباسي على الأمويين . ثم انتهى بالعرض التالي : « ... ألا أوليك القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يَشْقُونَ عَلِيَّ في ذلك ، و إني أحب أن يَتِمَّ ما إِبْتَدَؤُونِي به من الإحسان . فقال : كأنك تحب الانصراف ؟ .. فلما خرجت إذا برسوله من ورائي ، و إذا معه مائتا

³³⁹ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 3 ، ج 6 ، ص: 140

³⁴⁰ المصدر نفسه ج 6 ، ص: 135 نص الخبر كالتالي :

: « ... حدثني الأوزاعي قال : بعث إلي أبو جعفر أمير المؤمنين وأنا بالساحل ، فأتيتُه فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد علي واستجلسني ثم قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاعتباس منكم . قلت : يا أمير المؤمنين أنظر ولا تجهل شيئا مما أقول لك ، قال : وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وقد وجهت فيه إليك أقدمتك له ، قلت : أن تسمعه ولا تعمل به ، قال : فصاح بي الربيع ، وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لا عقوبة ، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام...»

دينار ، فقال : يقول لك الأمير استنق هذه . قال : فتصدقت بها ، و إنما أخذتها
خوفا...»³⁴¹

و جاء في رواية أخرى انه قال : «... سألني عبدا لله بن علي والمُسَوِّدَة قِيَام على رؤوسنا
فقال : أليس الخلافة وصية لنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل عليها على بصفين ؟
قال قلت : لو كانت وصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حكم علي الحكمين قال
فنكس رأسه...»³⁴² . لكن الامتحان لم يكن عسيرا و لم يفض إلى ما لا تحمد عقباه . و ظل
الأوزاعي مبعجلا معظما لحين وفاته .

³⁴¹ ابن كثير : البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص ص : 95 — 96

³⁴² المصدر نفسه ، م 5 ، ج 10 ، ص : 141 . أنظر الروايات المختلفة التي عرضها الذهبي في علاقة الأوزاعي بالدولة العباسية و
تأمل تعليقه عليها : «... قد كان عبد الله بن علي ملكا جبارا سفاكا للدماء صعب المراس ومع هذا فالإمام الأوزاعي = يصدعه بمر الحق
كما ترى لا كخلق من علماء السوء الذين يحسنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسف ويقلبون لهم الباطل حقا قاتلهم الله أو
يسكتون مع القدرة على بيان الحق...»

أحمد بن حنبل :

أحد أئمة الحديث الكبار ورابع الفقهاء أصحاب المذاهب المعتمدين في الفقه الإسلامي ،
اشتهر أحمد بحفظه للحديث ومعرفة صحيح الآثار من سقيمها ، كما عرف بالزهد و الورع
والاجتهاد في العبادة .

ولد ببغداد سنة 164هـ — 780م يتيم الأب وبها نشأ وطلب العلم و الحديث من شيوخها
ثم رحل بعد ذلك في طلب العلم إلى البلاد ، عرف منذ صباه بجده و اجتهاده وانحياشه عن
اللهو و العبث ولازمه هذا المزاج لآخر يوم في حياته ؛ خلقا عرف به بين أترابه وأقرانه
كما شهد له به شيوخه أيضا ، الشيء الذي يؤكد النص التالي :

« ... قال أبو عفيف³⁴³ — و قد ذكر أحمد بن حنبل — فقال : كان في الكتاب معنا و هو
غُلِيم نعرف فضله ...»³⁴⁴ .

لما بلغ سن ست عشرة سنة شرع في طلب العلم على شيوخ بغداد و ما جاورها لينتقل
بعدها إلى ركوب مشاق الارتحال إلى الأمصار القريبة والبعيدة ، ليستأنف ذات التقليد الذي
سنة قبله رجال الحديث و الذي أكدّه هو أيضا في جوابه لمن سألّه : «... رجل يطلب العلم
يَلْزِمُ رجلا عنده علم كثير أو يرحل ؟ قال يرحل ، يكتب عن علماء الأمصار ، فيشام الناس
ويتعلم منهم...»³⁴⁵ و استمر في طلب العلم والرحلة للحد الذي غدا في عيون معاصريه

³⁴³ لم أجد له ترجمة

³⁴⁴ أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ط2 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة 1977
ص : 20

«... قال أبو سراج بن خزيمة : كنا مع أبي عبد الله — يقصد أحمد — في الكتاب فكان النسوة يبعثن الى المعلم ابعث الينا
بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم ، فكان إذا دخل إليهم لا يرفع رأسه ينظر إليهن ، قال أبو سراج : فقال أبي : أنا أنفق على
ولدي و أجبتهم بالمؤدبين فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد غلام يتيم انظر كيف يخرج ؟...» نفس المصدر ، ص: 31
و « ... عن إبراهيم بن شماس قال : كنت اعرف أحمد بن حنبل وهو غلام يحيي الليل ...»

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 21

³⁴⁵ عبد الفتاح أبو غدة : صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم و التحصيل ، ط3 ، مكتب المطبوعات الإسلامية ،
بيروت سنة 1997 ، ص : 45

ظاهرة تستدعي الفحص و التساؤل «... قال ابن منيع³⁴⁶ : سمعت جدي يقول : مرَّ أحمد بن حنبل جَائِيًا من الكوفة و بيده خَريطةٌ فيها كتب فأخذت بيده فقلت : مرة إلى الكوفة ، و مرة إلى البصرة ، إلى متى ؟ إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه ؟ فسكت ، ... فقلت مائة ألف . فقال : حينئذ يعرف شيئاً . قال أحمد بن منيع : فنظرنا فإذا أحمد كتب ثلاثمائة ألف عن بهز بن أسد³⁴⁷ * و عفان بن مسلم³⁴⁸ *...»³⁴⁹ فطاف الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن و الشام والجزيرة حاملاً معه محبرته يجيب كل من يطلب منه أن يرفق بنفسه وقد بلغ ما أمل من سعة العلم « ... مع المحبرة إلى المقبرة ... » و يراه احد معارفه ببغداد³⁵⁰ و هو يعدو ونعلاه بيده قاصدا مجلس حديث ، فأخذ بمجامع ثوبه و قال له : « ... يا أبا عبد الله ألا تستحي على متى تعدو مع هؤلاء الصبيان . قال : إلى الموت »³⁵¹

ومما له دلالاته فيما نحن بصدد البحث فيه ، حرص أحمد على أن تظل دائرة شيوخه محصورة في الاتجاه السني فلم يؤثر عنه انه خلط علمه بمصادر أجنبية ، اعني بها الفرق من غير السنة التي كانت تعتمل في الكيان الإسلامي آنذاك وهي : " المعتزلة " و " الشيعة " و " المرجئة " و " الجهمية " و " الخوارج " وغيرها من تيارات التفكير التي وجدت لها في فضاء الدولة الإسلامية فرصة للحركة و النشاط ، فجاءت قناعاته و عقائده و فتاواه منسجمة مع ما تواضع عليه أهل السنة من أصول و قواعد حيث تلقى علومه و معارفه على يد العلماء المعتمدين لديهم و جميعهم إما محدثين أو فقهاء يوحدتهم حرصهم الكبير على

³⁴⁶ لم أجد ترجمته و لا ترجمة جده و العهدة في الرواية على ابن الجوزي

³⁴⁷ * بهز بن أسد : ثقة كثير الحديث حجة

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 298

³⁴⁸ * عفان بن مسلم : ثقة كثير الحديث ، ولد سنة 134 هـ و توفي ببغداد سنة 220 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 298

³⁴⁹ ابن الجوزي : مناقب ، المصدر السابق ، ص : 29

³⁵⁰ لم ترد هوية هذا الرجل في المصدر

³⁵¹ المصدر نفسه ، ص ص : 31 — 32

تلقى أحمد العلم على يد جملة من مشاهير الفقهاء و المحدثين أبرزهم : سفيان بن عيينة و شعيب بن حرب و عبد الرحمن بن مهدي و عبد الرزاق الصنعاني و الفضل بن دكين و الشافعي و نعيم بن حماد المروزي و هشيم بن بشير الواسطي و يحيى بن سعيد القطان و وكيع بن الجراح و أبو بكر بن عياش و يزيد بن هارون و عفان بن مسلم و سليمان بن حرب و غيرهم .

الحديث الذي يشكل مصدرا أساسيا في التعرف على سنة النبي عليه السلام وفي استخلاص الأحكام الفقهية منها كما يجمعهم انصرافهم عن التيارات الفكرية التي ماجت بها الساحة الإسلامية كالعلوم المترجمة والآداب الأجنبية و الاهتمامات الفلسفية والخوض في الكلام و الاتساع في التأويل والإطلاع على تراث الأمم التي فتحتها الإسلام سياسيا و حاولت هي فتحه ثقافيا ، بعبارة أخرى كل هؤلاء يجسدون الوجه النقيض لنشاطات أديب طلعة كالجاحظ ، فجميعهم يتفق على السيادة المرجعية للقرآن و السنة دون إقحام أي مرجعية أخرى و على حجية السلف الأول فيما أجمعوا عليه والتأكيد على مبدأ الإلتباع و الإقتداء بالجيل الأول من الصحابة و التابعين والاعتماد لضمان كل ذلك على جمع الأخبار و الروايات و التي اقتضت حتما بروز ظاهرة الرحلة والضرب في الأرض³⁵² ، و لعل مصطلح " علوم النقل " الذي تكرر كثيرا في المساجلات والمناظرات التي غص بها التاريخ الثقافي و الديني للإسلام أفضل أداة لتوضيح ما أنا بصدده³⁵³

فجاء أحمد نسخة حادة متشددة في هذا الخط ، واستطاع بمناقبه ورسوخه العلمي و سيرته المتقشفة إضافة إلى صموده وبطولته وثباته على عقيدته أيام المحنة أن يتحول إلى ذروة هامة في المنظومة السنية ظهرت تباشيرها في شببيته و أقرها له شيوخه ، كذا بلغ به زهده وورعه وقناعاته بالقليل من متاع الحياة إلى أن يحتل مكانة عزيزة لدى الخاصة و العامة في بلده بغداد وفي غيرها ، و الروايات حافلة بما يصور حب البغادة واحترامهم له و افتخارهم به ، يمنعني ضيق المجال عن إيرادها ، هذه المكانة التي تمتع بها هي التي كانت أيضا سبب محنته التي ابتدأت في أواخر حياة المأمون واستمرت طيلة حكم المعتصم و

³⁵² دوروتيا كرافولسكي :العرب و إيران ، ط 1 ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، سنة 1413 هـ — 1993 م ، ص ص : 58 — 61 وانظر :أبوغدة عبد الفتاح : الإسناد من الدين ، ط 1 ، دار القلم ، دمشق — بيروت ، سنة 1413هـ — 1992م ، ص :27

³⁵³ أنظر مقالة إجنسس ، جولد زيهر : موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل ، ص ص : 123 — 124 ، ضمن كتاب

عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، ط 4 ، دار القلم ، بيروت ، سنة 1980 كلمة النقل المشحونة بمعاني الحمل والأداء و الإبلاغ و الإيصال و معنى كون المعرفة جاهزة تأتي من مصدر آخر غير الإنسان هذا الذي عليه حفظها و فهمها و نقلها من دون الاستقلالية بالعقل و الثقة المفرطة في النفس في الوصول للحق، كما يجمع بينهم في الموقف السياسي مبدأ السلامة و اتقاء الفتنة و الحرص على إضفاء الشرعية على كل من استطاع أن يبسط سلطانه على رواق دار الإسلام يحقق تملكه بالقوة و المقدرة و التغلب ؛ حقنا للدماء و نظرا لمصلحة الأمة في دينها و مكاسبها و معاشها. أنظر : البربهاري : المصدر السابق ، ص ص : 51 - 54 . د محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ص : 159. أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج 1 ، ص ص :

الوائق ليبطلها المتوكل بقرار رسمي ، المحنة التي اشتهرت في التاريخ الإسلامي بـ " محنة خلق القرآن " ؛ وهي القول بان القرآن مخلوق وليس قديما ، وقد كان موقف أحمد فيها مصادما لإرادة الدولة ، و تلك كانت أول مواجهة له معها ، التي ظل يتحاشاها منذ شببته و يبتعد عن مداراتها . فقد حصل أن ذكره الشافعي يوما عند الرشيد واقترحه للقضاء فأوسعاه أحد لوما و عتابا ، وجاء الخبر من طريق آخر يجعل الخليفة الأمين بدلا عن هارون الرشيد³⁵⁴ .

وفي هذا السياق سأعمل على إبراد آراء احمد السياسية من خلال اقواله و ما نقل عنه وما دونه لأتبعها بما صدر عنه من سلوكات و مواقف حتى نقرب من ضبط حقيقة علاقته بالدولة.

فقهه السياسي :

وردت نصوص كثيرة و عبارات نقلت عنه فيما يخص آراءه السياسية و نظراته الفقهية التي تخص شؤون الحكم و ما ينبغي سلوكه حيال الظلم و العسف ، و في مجملها تدور حول التحرز من الخروج على من غلبت وطأته ، من ذلك قوله :

«... لا يَجُوزُ الخُرُوجُ عَلَى إِمَامٍ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ قُتِلَ الثَّانِي ...»³⁵⁵

و كان كثيرا ما تعرض عليه الأسئلة خاصة أيام الفتن و من بينها فتنة القول بخلق القرآن عهد المأمون و المعتصم فكان جوابه دائما يتمثل في التحذير من المشاركة في الثورة، من ذلك أنه

« ... سئل عن طاعة السلطان فقال بيده : عافى الله السلطان ...قلت له في صلاة الجمعة وتعجيلها ، فقال : وَلَدُ الْعَبَّاسِ أَقُومُ للصلاة و أَشَدُّهُمْ تَعَهُدًا للصلاة من غيرهم قال رسول الله أَطِيعُوهُمْ مَا أَقَامُوا فيكم الصلاة ...» «و روى رجل عن الفضيل أنه قال : وَدِدْتُ أَنْ الله عز وجل زاد في عمر هارون و نقص من عمري ، فقال : نعم يُرَوَى هذا عنه

³⁵⁴ الذهبي : سير ، المصدر السابق ، ج 11 ، ص : 224 «... أخبرت إن الشافعي قال لأبي عبد الله : إن أمير المؤمنين — يعني محمدا — سألتني أن التمس له قاضيا لليمن ، وأنت تحب الخروج إلى عبد الرزاق فقد نلت حاجتك وتقضي بالحق . فقال للشافعي : يا أبا عبد الله إن سمعت هذا منك ثانية لم ترني عندك ، فظننت انه كان لأبي عبد الله ثلاثين سنة أو سبعا وعشرين ...» .

³⁵⁵ أحمد بن حنبل : العقيدة ، ت عبد العزيز السيروان ، ط 1 ، دار قتيبة ، دمشق ، سنة 1408 هـ ، ص : 124

يرحم الله الفضيل كان يخاف أن يجيءَ أَشْرَ منه ...» وعرف الفتنة بقوله «... الفتنة : إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس ...رَأَيْتُ الفتنة مُعلقة بعثمان رحمه الله و رأيت الفتنة معلقة بالسلطان ...وقال لابن الكلبي و المظفر³⁵⁶ رسولي الخليفة : أرى طاعته في العسر و اليسر و المنشط و المكروه واني لأسف عن تخلفي عن صلاة الجماعة و عن حضوري الجمعة و دعوة المسلمين ...» يقصد الخليفة المتوكل وقال فيه : «...و إني لأدعو له بالتسديد و التوفيق في الليل و النهار والتأييد و أرى ذلك واجبا علي ...و إني لأدعو له بالصلاح و العافية ...» ، وقال أيضا فيه : «...لقد أمّات عن الناس أمورا قد كانوا أحدثوها من درس الإسلام و إظهار المنكر... فأحيا السنة...»³⁵⁷ ، وكان يقول : «... الخلافة في قریش ما أقاموا الصلاة...و لا طاعة لهم في معصية الله ... ومن دعا منهم إلى بدعة فلا تجيبوه ولا كرامة و إن قدرتم على خلعه فافعلوا...»³⁵⁸.

من هذه الأقوال و غيرها نلمح مذهب أحمد في الإمامة و الذي فحواه الحرص على حيطة الاستقرار و الأمن و نبذ الفتنة ، و الورع الشديد في أمور الدماء ، الشيء الذي يوضحه تعاطيه مع جميع الآثار و الأحاديث المروية في التحريض على الخروج على الأئمة و سلوك سبيل الثورة في دفع الظلم من منطلق التجريح و التضعيف ، مما دفع تلميذه خلال إلى أن يعنون أحد أقسام كتابه « السنة » بـ « باب بيان أحاديث ضعاف رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم فسر أحمد ضعفها و ثبت غيرها مما روي عن النبي في ترك الخروج على السلطان و كف الدماء و إن حرموا الناس أعطياتهم »³⁵⁹ ، هذا مضمون ما صدر عنه من أقوال و اشتهرت نسبتها إليه ، لكن الذي يهمنا هو مواقفه الفعلية التاريخية بما أن غرض البحث في أساسه هو فحص العلاقة كما تتجسد في مواقف و سلوكات و أحداث ، ذلك لأن البحث محكوم بالرؤية التاريخية حصرا .

علاقته الفعلية مع الدولة :

³⁵⁶ لم أعر على ترجمة لهما لكن يبدو أنهما من عمال المتوكل

³⁵⁷ أبو بكر خلال : السنة ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 80 — 93

³⁵⁸ أحمد بن حنبل : العقيدة ، المصدر السابق : ص 124:

³⁵⁹ خلال : السنة ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 126

لقد عاصر احمد في حياته ثمانية خلفاء من بني العباس ، حيث ولد في خلافة المهدي وتوفي في خلافة المتوكل³⁶⁰ ، مرورا بالهادي و الرشيد حيث كان أحمد شابا يافعا في أول طلبه للعلم ، لم يسطع نجمه بعد ، وليس في المصادر التي اشتغلت عليها ما يذكر علاقة ما بين الرشيد وأحمد إلا الإشارة الآنفة الذكر ، والمتعلقة بسعي الشافعي في التوسط لأحمد كي

يتولى القضاء باليمن ، ضنا منه أن هذا العمل يسهل لأحمد لقاء المحدث اليمني عبد الرزاق الصنعاني³⁶¹ * ، لكن أحمد رفض العرض³⁶² ، وظل يتجنب أي علاقة قد تربطه بالدولة طيلة العهد الذي تلا الرشيد ، بحيث عاصر فتنة الأمين و المأمون ، و قد جاوز أحمد حينها مرحلة الشباب و دخل في دور الاكتهال و أخذ من العلم بغيته للحد الذي أهله لأن ينتصب للحديث سارية من سوارى مساجد بغداد³⁶³ ، وقد نال من الثناء و الاعتراف و الإجلال من طرف شيوخه³⁶⁴ و نظرائه إضافة إلى سعة حفظه و شساعة معارفه النقالية ما جعله قبلة لطلاب الحديث و الفقه و قد عاين في هذه الفترة الخراب الذي حاف بالمدينة ، و الاضطراب الذي ساد أرجاءها و الهرج والمرج اللذان صارا المشهد اليومي المتكرر ، واضطراب حبل الأمن و تحول أزقة المدينة و دروبها إلى مسرح لنزق الشطار و العيارين في ظل غياب شبه كامل للدولة و مؤسساتها ، الأمر الذي زاد فيه تريث المأمون وتباطؤه في دخول بغداد رغم انتصاره بحيث دخلها سنة 204 هـ قادما من مرو³⁶⁵ .

³⁶⁰ كانت وفاة أحمد سنة 241هـ

³⁶¹ الصنعاني : عبد الرزاق ، أحد أئمة الحديث ، ولد باليمن سنة 126 هـ و توفي سنة 211 هـ .ابن خلكان : الوفيات المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 216 — 217

³⁶² ابن كثير: البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 275

³⁶³ قال القومسي : «... رأيت أحمد في مسجد الخيف في سنة ثمان و تسعين و مائة و جاءه أصحاب الحديث فجعل يعلمهم الفقه و الحديث ، ويفتي الناس في المناسك ...» و قال حجاج بن الشاعر : «... جئت إلى أحمد فسألته أن يحدثني في سنة ثلاث و مائتين فأبى أن يحدثني ؛ فخرجت إلى عبد الرزاق ثم رجعت في سنة أربع و قد حدث أحمد و إستوى الناس عليه ، وكان لأحمد في هذا اليوم أربعون سنة ...» . أنظر :ابن الجوزي : مناقب ، المصدر السابق ، ص : 188

³⁶⁴ ابن كثير: البداية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 274

³⁶⁵ المصدر نفسه ، م 5 ، ج 10 ، ص ص : 206 — 208المسعودي :المروج ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص :

ولا بد أن بشاعة الأحداث تلك كما تصفها المصادر إحدى المنابع الواقعية التي صاغت آراء أحمد السياسية وقناعاته التي تبدو في صورة مساندة مطلقة للدولة ، و دعما متحمسا لها ، لولا المفارقة الحادة و المتمثلة في قطيعة حقيقية على مستوى السلوك و المواقف من أحمد لهذه الدولة ذاتها³⁶⁶ و للخليفة الذي طالما نبه لضرورة الاعتراف بشرعيته و الصلاة خلفه و الرضا بإمرته و الغزو معه و الدعاء له كما سنرى لاحقا

و في خلافة المأمون تحددت مكانة أحمد ومنزلته كأحد كبار أئمة أهل السنة و الجماعة المشار إليهم ، ليس في بغداد فحسب ، وإنما في جميع الأمصار³⁶⁷ ، فغدا أحد رؤوس العلماء الذين تهتم الدولة بمعرفة مدى ولاءهم لها وتختبر هذا الولاء ، حذرا من أي رأي أو فتوى تصدر منهم تشوش على الخليفة استقرار الحكم و هناعته³⁶⁸ ،

وقد كان موقف أحمد من الأحداث و التطورات التي كانت تتوالى من حوله — وقد صار إماما مشارا إليه ومقصدا في الفتوى و المشورة و الرأي³⁶⁹ — موقف الروع الذي يخشى الدماء و الفتنة خشيته للفتوى و إصدار الرأي لعلمه بأنها شاء أو أبى ستكون ملزمة يعتنقها قطاع عريض من الناس ثقة بعلمه — الأمر الذي يبينه النص التالي : «... سمعت أبا عبد الله يأمر بكف الدماء و يُنكر الخروج إنكارا شديدا و أنكر أمر سهل بن سلامة وقال كان بيني وبين حمدون بن شبيب³⁷⁰ أنس ، وكان يكتب لي ، فلما خرج مع سهل جفوته بعد ، وكان قد خرج ذاك الجانب فذهبت أنا و ابن مسلم³⁷¹ فعاتبناه و قلت أئش حملك فكأنه ندم أو رجع...»³⁷² وجاءه من يسأله الرأي و قد همّ قوم في بغداد بالخروج

³⁶⁶ أبو بكر الخلال : الروع ، المصدر السابق ، ص ص : 100 — 101

³⁶⁷ قال محمد بن مهران الجمال في أحمد (... ما بقي غيره إني لأدير قلبي نحو مكة و المدينة فيرجع إليه و أديره حول البصرة و الكوفة فيرجع إليه و أديره نحو الشام و الجزيرة فيرجع إليه و أديره نحو خراسان فيرجع إليه ...)

أنظر : ابن الجوزي : مناقب ، ص : 129

³⁶⁸ كتب المأمون الى اسحاق بن إبراهيم والي بغداد رسالة (... في الفقهاء و أصحاب الحديث و هو بالشام خبر فيها عن عيب كل واحد و عن نحلته و عن أموره التي خفيت أو أكثرها عن القريب و البعيد ...)

أنظر : إبراهيم بن محمد البيهقي : المحاسن ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص : 235 — 236

³⁶⁹ جاء لدى ابن الجوزي (... يا هذا — يعني أحمد — أنت اليوم رأس و الناس يقتدون بك ...)

ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 315

³⁷⁰ لم أجد له ترجمة

³⁷¹ لم أجد له ترجمة

³⁷² الخلال : السنة ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 140

لأمر كرهوه من الدولة : « ... يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم ، فأُنكر ذلك عليهم و جعل يقول : سبحان الله ؛ الدماء الدماء ، لا أرى ذلك و لا أمر به ، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة ، يُسْفَك فيها الدماء و يُسْتَبَاح فيها الأموال و يُنْتَهَك فيها المحارم ، أما علمت ما كان الناس فيه ؛ يعني أيام الفتنة ... » فيراجع السائل « ... قلت : والناس اليوم أليس هم في فتنة ، قال و إن كَانَ فَإِنَّمَا هي فتنة خاصة فإذا وقع السيف عمت الفتنة و انقطعت السبل ، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك ... ورأيتُه ينكر الخروج على الأئمة و قال : الدماء ؛ لا أرى ذلك و لا أمر به ... »³⁷³ .

في هذه الأجواء من الخلل و الفوضى صعد نجم الفقهاء و المحدثين الذين هم من أهل السنة والجماعة كمرجعية استند إليها كثير من العامة وهي تعيش آثار غياب الدولة ؛ بحثا عن الأمن والسلام ، ومرجعية لمن تسول له نفسه التفكير في الخروج و الثورة و استغلال الوضع³⁷⁴ ، و ليتحولوا إلى أن يصبحوا رؤساء للعامة ، وقد استمر هؤلاء ، ومن بينهم أحمد يتمتعون بسلطة فعلية على الجمهور ، وبقي الحال على هذه الأمور حتى بعد عودة المأمون إلى بغداد³⁷⁵ .

وقد كان المأمون من الخلفاء و السلاطين الذين لا يرتضون وجود أي سلطة تنافس أو تقارب سلطة الخلافة ونفوذها ؛ الخصلة التي يشبه فيها أباه الرشيد ؛ فدفعته للإيقاع بالبرامكة ، فكان من الطبيعي أن يعمل وسعه لتكسير السلطة المستحدثة للفقهاء و المحدثين وعمل في هذا السياق من خلال ما سمي بـ " محنة خلق القرآن " التي بدأت تختمر في ذهن المأمون سنة 206 هـ وفقا لرواية يحيى بن أكتم³⁷⁶ * « ... قال لنا المأمون : لولا مكانة يزيد بن

³⁷³ المصدر نفسه ، ج 1 ، ص ص : 132 – 133

³⁷⁴ انظر ما ورد في (تاريخ بغداد)

(... قال كان أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزازي من أهل الحديث وكان جده من رؤساء نقباء بني العباس وكان أحمد وسهل بن سلامة حين كان المأمون بخراسان بايعا الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن دخل المأمون بغداد فرفق بسهل حتى لبس السواد وأخذ الأرزاق ولزم أحمد بيته ثم إن أمره تحرك ببغداد في آخر أيام الواثق واجتمع إليه خلق من الناس يأمررون بالمعروف ...) . الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 176

³⁷⁵ الجابري : المتفقون ، المرجع السابق ، ص : 92

³⁷⁶ * يحيى بن أكتم : أبو محمد التميمي ، كان عالما بالفقه بصيرا بالأحكام معروف بالفضل و الرياسة ، تقلد قضاء القضاة عهد المأمون ، توفي سنة 242 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص ص : 139 – 142

هارون³⁷⁷ لأظهرت القرآن مخلوق...» ، وكان يزيد من كبار المحدثين و صفه المسعودي بقوله :

« ويزيد هذا عند أهل الحديث من عليّتهم و عظيم من عظمائهم ، وكانت وفاته بواسط العراق...»³⁷⁸ وقد أطنب أصحاب التراجم في وصف اتساع علمه وكثرة حفظه للحديث و شدة إقبال الناس عليه حتى قيل أن مجلسه كان يضم سبعين ألفا ، ومع أنه كان أكبر من أحمد بل كان أستاذا له إلا أنهما كانا صديقين ، و تذكر المصادر أيضا أنه كان من الأمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر ، وأنه كان رأسا في السنة و معاديا للجهمية مكفرا لمن يذهب على مقولة خلق القرآن .³⁷⁹

وقد بدأ المأمون في مشروع تفويض سلطة المحدثين والفقهاء المستحدثين و كان ذلك في سنة 212 هـ — 827م حيث اظهر القول بـ خلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب وقال هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم³⁸⁰ ، وفي سنة 218 هـ — 833م أرسل وهو غاز إلى عامله ببغداد إسحاق بن إبراهيم رسالة جاء فيها امتحان القضاة والمحدثين وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه إلى الرقة ومما قاله له فيها : « ... عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به...» إلى أن يقول « ... و هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به ... تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم...» ثم أمره بامتحان جماعة من رؤوس أهل السنة وكان نصيب احمد من ذلك كبيرا « ... فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين

³⁷⁷ يزيد بن هارون : يزيد بن هارون بن زاذان الواسطي ، كان مولده سنة سبع عشرة مائة و مات في سنة ست و مائتين وله تسع و ثمانون سنة ، وهو مولى لبني سليم ، وكان أبوه يخدم في مطبخ زياد بن أبيه . المسعودي : المروج ،

المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 38

³⁷⁸ المسعودي : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص : 38

³⁷⁹ الجابري : المتفقون ، المرجع السابق ، ص : 96

³⁸⁰ الطبري : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص ص : 284 — 285

غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلص توحيده وبقينه...»³⁸¹.

هكذا ابتدأت المحنة واخذ وعيد المأمون يتصاعد و الممتحنون يتنازلون و يقرون بهذه المقولة حتى لم يبق إلا أحمد و رجل آخر فأدخلا الحبس و أمر المأمون من طرسوس³⁸²* بحملهما إليه مقيدين وقد سئل أحمد في تلك الحالة «...يا أبا عبد الله إن عُرِضَتْ عَلَى السيف ، تجيب ؟ قال : لا ...»³⁸³ وفي طريقه ذاك توفي المأمون موصيا خليفته المعتصم بإنفاذ الأمر.

وفي عهد المعتصم أخذت أحداث المحنة آخر مداها و بلغت غايتها ، خاصة لدى أحمد فالفترة هذه التي بقيت راسخة في ضمير التاريخ الإسلامي ، يعود لمجريات ما انطبع في مخيلة و ذاكرة علماء أهل السنة من تبجيل و إجلال لشخصية أحمد و تقدير لصبره و صموده وشجاعته³⁸⁴ ، كما رسخت وكرست الاختلاف بله الشقاق بين أهل السنة و المعتزلة بحيث مضى تاريخ العلاقة بينهما لمزيد من العدا و الرفض لحد التكفير و التبديع و إطلاق التهم ، وصنعت في بغداد بالذات الجمهور الذي عرف في التاريخ بـ " الحنابلة " والذي كثيرا ما تصادم مع الشيعة و المعتزلة و الأشعرية بعد ذلك³⁸⁵.

³⁸¹ المصدر نفسه ، ج 10 ، ص ص : 285

د محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية ، المرجع السابق ، ص ص : 325 — 335

³⁸² * طرسوس : مدينة بين أنطاكية و حلب ، من ثغور المسلمين .

القزويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 219

³⁸³ ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 312

عبد العزيز البدري : الإسلام بين العلماء و الحكام ، د ط ، دار الأمة للنشر و التوزيع الجزائر ، د ت ،

ص ص : 161 — 164

³⁸⁴ ابو نعيم الأصبهاني : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 167

«... سمعت ابن عيينة يقول علماء الأزمنة ثلاثة ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه قال الفتح

فقلت أنا للحارث وابن حنبل في زمانه فقال لي الحارث أحمد بن حنبل نزل به ما لم ينزل بسفيان الثوري و الأوزاعي ...»

³⁸⁵ خالد كبير علال : صفحات من تاريخ أهل السنة و الجماعة ببغداد ، د ط ، مطبعة هومة ، الجزائر ، د ت ، ص ص

: 47 — 49 ، ص ص : 55 — 57

لم يكن المعتصم يملك اتساع علم المأمون و لا ولعه المعرفي ، وإنما كان جل اهتمامه بالقضايا الحربية و العسكرية³⁸⁶ ، ومع ذلك فقد واصل المهمة كما أوصاه بها المأمون مما له دلالاته بصدد المضمون السياسي للمحنة.³⁸⁷

فاستمرت محنته بضعا و عشرين يوما ، منها ثلاثة أيام مضت في بحث و مناظرة و تهديد مستمر تعالت فيها أصوات ابن أبي دؤاد و أعوانه بعبارة : ضال مضل مبتدع ؛ كلما انتهت المناظرة بصمود أحمد ، تخللتها محاولات من المعتصم لاستمالة أحمد إلى الرضوخ شفقة منه عليه ، و كان قد أعجبه ورع احمد وعلمه خلال المناظرات التي شهدا جعلته يقر « ... إنه لفقيه و إنه لعالم وما يسرني أن يكون مثله معي ، يرد على أهل الملل ، و لنن أجابني إلى شيء له فيه أدنى فرج ، لأطلق عنه بيدي ، و لأطأن عقبه ، و لأركبن إليه بجندي...»³⁸⁸ ، لولا الموقف الاستفزازي الذي أصر عليه احمد ؛ قبل قرار الضرب « ... عليك لعنة الله ، لقد كنت طمعت فيك ...» حيث لم يعط أي إشارة للتنازل ولا للتقارب مع ما غدا عقيدة للدولة ، وتحولت تفاصيل المحنة لدى المعتصم إلى ما أشبه بشرف الدولة ، فكان أن أمر في اليوم الثالث بضربه وتم ذلك ، و قد أدرك أحمد ما كان يعتمل في نفس المعتصم ، حينما قال : «... ما كان في القوم أرأف بي من المعتصم ...»³⁸⁹ .

ومما له مغزاه فيما هو من صميم البحث تصريح عبد الرحمن بن إسحاق³⁹⁰ للمعتصم بشأن أحمد خلال المحاولات التي بادر بها الخليفة لإنهاء المشكلة بتسوية سلمية حوارية «...أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتك والحج و الجهاد معك ، وهو مُلازم لبيته ...»³⁹¹ .

³⁸⁶ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 1 ، ص: 64 . و قد وصف المعتصم (... وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ...) .

³⁸⁷ المصدر نفسه ، ج 1 ، ص: 84 .

= جاء فيه ما يلي :

(...وأسند المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم وقال فيها وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك لشركه في المشورة في كل أمرك فإنه موضع ذلك ولا تتخذن بعدي وزيرا ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضي القضاة وعزل يحيى بن أكنم وخص به أحمد حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه...) أنظر تفاصيل محنة أحمد مع المعتصم : ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص ص : 319 — 340 و ابن كثير : ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص ص : 279 — 280

³⁸⁸ ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 347

³⁸⁹ نفس المصدر ، نفس الصفحة

³⁹⁰ يرد ذكره كأحد عمال المأمون و المعتصم في بغداد و لم أعثر له على ترجمة

³⁹¹ عبد العزيز البدري : الإسلام بين العلماء ، المرجع السابق ، ص ص : 169 — 170

كذلك توضح الإشارات المقتضبة التي سايرت تفاصيل المحنة مكانة أحمد و منزلته الكبيرة بين الخاصة و العامة ، الشيء الذي عزز من إصرار الدولة على أن تستصدر منه تنازلاً يحفظ لها ماء الوجه و يصون لها سمعة القدرة و القوة ويبقي على هيبتها و سطوتها كما جاء على لسان أحد رجال المعتصم³⁹² «... تريد أن تغلب هؤلاء كلهم...» ، وجاء على لسان آخر : «... يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله و يغلب خليفتين...»³⁹³ ولما رأى المعتصم هياج الناس و تذرهم خشي الهرج فادخل إسحاق عم أحمد ليشهد على أنه حياً ثم أخرجه ولولا ذلك لتفاقم الأمر ، و جاء في رواية أخرى «... أخرج أحمد بعد أن اجتمع الناس على الباب وضجوا حتى خاف السلطان...»³⁹⁴.

إذن انتهت المواجهة التي شاعتها الدولة مع أحمد بفشلها و خيبتها من جهة ، و إلى ظفـره وانتصاره من جهة أخرى ؛ أي ثبات الفكرة التي دافع عنها والتي التصقت به و تماهت معه وأعلنت من شأنه «... لقد رفع الله عز وجل شأن أحمد بعدما امتحن وعظم عند الناس و ارتفع أمره جداً...»³⁹⁵ و «... قال أبو زرعة لم أزل أسمع الناس يذكرون أحمد بخير و يقدمونه... غير أنه لم يكن من ذكره ما صار بعد أن امتحن ؛ لما امتحن ارتفع ذكره في الآفاق...»³⁹⁶ ، وعاد إلى بيته و لزم منزله لا يبرحه ، و امتنع عن التحديث و لم يزل كذلك مدة خلافة المعتصم .

ولما ولي الواثق بالله استمر على وصية المأمون في أمر المحنة ، الأمر الذي أفضى به إلى قتل أحمد بن نصر الخزاعي ، متذرعاً في ظاهر الأمر بامتحانه في خلق القرآن ، في حين جاء القتل في سياق تهمة التآمر على أمن الدولة ، لأن لأحمد بن نصر سوابق في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، تعود لأيام الفتنة بين الأمين و المأمون³⁹⁷ ، لكنه لم يشأ إعادة الكرة مع أحمد ، رغم أنه تهدده وطلب منه النزوح عن بغداد «... لا تساكني بأرضي...»³⁹⁸ فاخفى أحمد «... فما زال يتنقل في الأماكن إلى أن مات الواثق...»³⁹⁸ . كل ذلك لم

³⁹² يرد في النص بدون تسمية

³⁹³ ابن كثير : البداية، المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 280

³⁹⁴ ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، 340

³⁹⁵ المصدر نفسه ، ص : 348

³⁹⁶ المصدر نفسه ، ص : 349

³⁹⁷ الخطيب البغدادي : تاريخ ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 176

³⁹⁸ ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 349

يدفعه إلى أن يغير قناعته في أمر الطاعة وأحكام الإمامة ، ورفض أي تبرير للخروج و التمرد والثورة .

وبمجيء المتوكل على الله انقضت أيام الصبر بالنسبة لأحمد و لمحدثي و فقهاء أهل السنة إجمالاً ، لأنه و إن كان الواثق هو من أبطل تقليد امتحان الناس بفكرة خلق القرآن ، إلا أنه ظل محتفظاً بوزيره ابن أبي دؤاد ، و ذلك يعني استمراره على ذلك النهج رغم بعض الروايات التي تؤكد تراجعاً عن الاعتقاد بها « ... مات الواثق وقد تاب من القول بخلق القرآن ... »³⁹⁹ ، أما المتوكل فقد افتتح عهده بأن أمر بـ « ... ترك النظر والمباحثة في الجدل و الترتك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم و الواثق و المأمون ، و أمر الناس بالتسليم و التقليد ، و أمر المحدثين بالتحديث و إظهار السنة و الجماعة ... »⁴⁰⁰ ، ثم أشخص سنة 234 هـ — 848م المحدثين والفقهاء إليه فقسم بينهم الجوائز و أجرى عليهم الأرزاق و أمرهم أن يجلسوا للناس ويحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على الجهمية و المعتزلة ، فكان فيمن لبي الأمر ابنا أبي شيبة ؛ فجلس عثمان بن أبي شيبة⁴⁰¹ في مدينة المنصور ، ووضع له منبر ، و اجتمع عليه نحو ثلاثين ألفاً من الناس ، و جلس أخوه أبو بكر⁴⁰² في مسجد الرصافة و اجتمع عليه نحو ثلاثين ألفاً ، واستبشر أهل السنة بذلك⁴⁰³

ومضى المتوكل في تصفية رموز العهد الماضي⁴⁰⁴ ، هذه القرارات التي بدت في صورة ما عرف لدى المؤرخين المحدثين بـ " الانقلاب السني " ، الذي فحواه عودة تيار

³⁹⁹ ابن كثير : المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 259

ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 356

⁴⁰⁰ المسعودي : المروج ، المصدر لسابق ، ج 4 ، ص : 104

⁴⁰¹ عثمان بن أبي شيبة : من كبار المحدثين قدم بغداد بأمر المتوكل لنشر الحديث ، توفي سنة 239هـ

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 11 ، ص : 153

⁴⁰² أبو بكر بن أبي شيبة من كبار المحدثين توفي سنة 235هـ . الذهبي : المصدر نفسه ، ج 11 ، ص : 127

⁴⁰³ ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص ص : 357 — 358

⁴⁰⁴ أمر بإنزال جثة أحمد الخزاعي و دفعها لأوليائه ، كما انه غضب على ابن أبي دؤاد و صفى أمواله ، وعزل ابنه محمد عن المظالم ثم اعتقله و اعتقل إخوته ، وفي المقابل رضي عن يحيى بن أكثم وولاه منصب قاضي القضاة ، مع العلم ان يحيى كان قد شغل هذا المنصب للمأمون قبل أن يعزله و يحذر منه المعتصم ، ربما لمعارضة يحيى لمشروع المحنة لأنه من أهل السنة . محمد الخضري بك : المرجع السابق ، ص : 236

الجابري : المثقفون ، المرجع السابق ، ص ص : 108 — 109

أهل السنة والجماعة إلى الواجهة ؛ واجهة السلطة ، كغطاء فكري عقدي لها ، قابله أهل السنة بشكر وامتنان واعتراف بالجميل⁴⁰⁵

لقد مضى مؤرخوا السنة على نهج الفقهاء و المحدثين في الإشادة بصنيع المتوكل هذا والإعلاء من شأنه و التأكيد على أهميته و صوابيته من الناحية الدينية ، دون الانتباه إلى ما قد يحمله الأمر من مضامين سياسية و أهداف و مرامي تخص الحكم و مسألة السلطة ، الشيء الذي حاول بعض المؤرخين و المفكرين المحدثين إعادة تأمله و النظر فيه ، و اقتراح تفسيرات جديدة . بحيث ذهب بعضهم إلى أن الأمر لا يدعو أن يكون إجراء قام به المتوكل لأجل الحصول على مصادر جديدة تدعم ملكه في وجه النفوذ التركي المترامي الذي كان قد أخذ في الصعود منذ أيام المعتصم ليصير في العهود الذي تلتها عصبية الدولة و قوتها الضاربة التي لعبت ذات الدور الذي قام به كل من العرب و الفرس في العهد الأول السابق على المعتصم⁴⁰⁶ .

وكان نصيب أحمد من هذه السياسة كبيرا إذ فعل المتوكل معه ما لم يفعله مع غيره من إكرام و إبداء الرغبة في لقائه و التبرك به وطلب الرضا عنه وإظهار التحنن له والإعجاب به و الإكبار له ما لم يعهد من خليفة لعالم من رعيته ، لكن أحمد لم يقابل محاولات المتوكل إلا بمزيد من النفور و الانكفاء و الانحياش جريا على عادته ، وقد رأى في هذا الاهتمام به من طرف الدولة فتنة أخرى و محنة ثانية هي " فتنة السراء " في مقابل " فتنة الضراء " ، بل رأى في مسلك المتوكل منه و اهتمامه به من الخطر على ورعه و

⁴⁰⁵ المصدر نفسه ، ص : 356 . جاء فيه (... ولى المتوكل على الله بعد الوائق في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين ، و سنة ست و عشرون سنة يومئذ ، فظهر الله عز و جل به السنة و كشف تلك الغمة ، فشكره الناس على ما فعل ...) . وقد تجلّى اعتراف أهل السنة بإنجاز المتوكل في صياغات متعددة من المدح كالوه للمتوكل ، غاضبين الطرف عن مساوئ كثيرة حفل بها حكمه ، وعن صور عديدة من السلوكات التي كان يترفع عنها الخلفاء السابقين⁴⁰⁵ ، فقد وصفه إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة بقوله : «...الخلفاء ثلاثة ، أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة حتى استجابوا له وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بني أمية ، و المتوكل محا البدع و اظهر السنة ...» و حدث علي بن إسماعيل في رؤيا رآها قال : « ... رأيت جعفر المتوكل في النوم و هو في النور جالس ، فقلت : المتوكل ؟ قال : المتوكل قلت ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحبيتها ...»⁴⁰⁵ . انظر : الخصري بك : المرجع السابق ، ص : 224

ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص ص : 356 — 357

⁴⁰⁶ الجابري : المثقفون ، المرجع السابق ، ص ص : 109 — 110

حسه الديني الدقيق و نزعتة الشديدة للتطهر ما دفعه لتمني الموت بله الدعاء إلى الله في أن يقبضه إليه⁴⁰⁷ .

لم يكن موقف أحمد المتورع من الدولة في عهد المتوكل طعنا في شرعية الخليفة ولا امتناعا من الطاعة ؛ إذ صدرت عنه أقوالا عدة و فتاوى مفعمة بالرضا عن المتوكل و المساندة المعنوية له⁴⁰⁸ ، لكنه كان موقفا شخصيا قائما على اعتبارات الورع و الزهد والرغبة في الاتقاء الكلي للشبهات و الخروج من الدنيا من غير تلطخ بها . إذن هو موقف منه يمكننا اعتباره قضية شخصية لأحمد و اختيارا خاصا به في الحياة لم يفرضه على غيره ، على انه الدين الذي يجب الاتصاف به و إن حبذه لأهله و لطلبته و أصحابه و رغب فيه للعلماء حرصا على حرية العالم الفقيه و المحدث حيال السلطة من أي استغلال و عبث بالدين ، وحرصا أيضا على القدوة الحسنة و الانطباع الذي يتركه العالم في الناس بوصفه أهم الطرق المؤدية لله و لدين الله ، إذ لم يؤثر عنه انه وقف موقف الإنكار على غيره من العلماء الذين تقربوا من الخلفاء و الولاة لمجرد تقربهم او قبولهم عطاءاتهم و هداياهم إذا كان يعلم منهم سلامة الدين و صدق الالتزام به و صلابتهم فيه ، بل لقد أطرى كثيرا إسحاق بن راهويه⁴⁰⁹ و أبا عبيد القاسم بن سلام⁴¹⁰ و كان معاش كليهما من هبات الولاة وأمضى كليهما شطرا كبيرا من حياتهما في مجالس الولاة وحاشيتهم .

⁴⁰⁷ ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 349

⁴⁰⁸ سبق إيراد بعض النصوص المعبرة عن هذا الموقف من أحمد

⁴⁰⁹ إسحاق بن راهويه : الفقيه المحدث نزيل نيسابور ولد سنة 163ـ و توفي سنة 238هـ . الذهبي : السير ، المصدر

السابق ج 11 ، ص : 377

⁴¹⁰ سيرد ذكره في الفصل الأخير

الفصل الثاني

الطاعة اعتقاداً و المجاملة سلوكاً :

— توطئة :

جاء لدى الفيروز آبادي ما يلي : المجاملة : و يُقال جَامِلُهُ : لم يُصِفْهُ الإِخَاءَ بَلْ مَسَحَهُ بِالْجَمِيلِ أَوْ أَحْسَنَ عَشْرَتَهُ⁴¹¹. و قد ارتأيت توظيف هذه الكلمة للتعبير عن نمط من أنماط العلاقة بين الفقهاء و الدولة العباسية ، ارتضاه الفقهاء لكثير من الدوافع سيأتي ذكرها .

لقد سبق في الفصل الأول أن قمت بتفصيل النشأة التاريخية للاتجاه الذي عرف في تاريخ الإسلام الفكري و السياسي باتجاه أهل السنة و الجماعة ، و الذي قدر له أن يمسك بزمام الحكم لقرون طويلة رغم بعض منازعات الشيعة و الخوارج ، و سبق في العرض أيضاً توضيح المواقف المتباينة داخل هذا الاتجاه من الموقف من الدولة الأموية خاصة على عهد معاوية ومن تلاه . و قد ظلت المواقف ذاتها بالتباين ذاته من الدولة العباسية في دورها الأول ، حيث رأينا في الفصل الأول الموقف الحاد الصارم الذي فضل الامتناع عن مشاركة الدولة في ثمرات الحكم بغير مساومة و لا مهادنة ، و سأتناول في هذا الفصل تفصيل موقف آخر يقع في منطقة وسط بين المعارضة الحادة و بين الخضوع و الإذعان لمغريات الدولة و ضغوطها ؛ سواء كانت الضغوط ترغيباً ملحاً أو ترهيباً مخيفاً ، هذا الموقف الوسط الذي ارتأيت أن أصوغه في كلمة " المجاملة " بكل ما في حمولة هذا اللفظ من معنى التردد و المراوحة و معنى الإقبال والإدبار ، و معنى الوصل و الانفصال و معنى المخالطة و الامتناع ، و النصوص و الحوادث التاريخية التي توفر لي الاطلاع عليها هي التي دفعتني إلى بلورة هذا النوع من المواقف والذي تميزه جملة من المظاهر و التجليات ، أهمها :

— تقبل فكرة الدخول على السلاطين بغرض النصيحة و الوعظ و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

— قبول عطايا الخلفاء و عمال الدولة و هداياهم و استعمالها في الأغراض الشخصية أو العامة .

- الاستجابة لحاجة رجال الدولة من شورى و تعليم و مجالسة .
- انتهاج سبيل اللين في الخطاب و التعريض في النصيح و الوعظ .
- حث الناس على الطاعة و التحذير من الخروج و التمرد على الدولة .
- عدم الخوض في مساوئ الدولة و لا التعريض ضدها ، بعبارة أخرى الامتناع عن الكلام في السياسة اكتفاء بالعلم و الرواية و الفتوى .
- القبول بلعب أدوار الشفاعة لدى رجال الدولة لمصلحة بعض المغضوب عليهم .
- التحفظ من تولي الوظائف للدولة مع فتح باب الإمكانية حال الاحتياج و الضرورة الملحة و عدم الاعتراض الصريح على من تولى عملا .

هذه أهم ملامح و سمات هذا الفريق من الفقهاء ، و قد ضم أسماء لامعة تعتبر مرجعيات رسمية في الفقه و العقيدة و الأخلاق كمالك و الشافعي و سفيان بن عيينة و الليث بن سعد ويحيى بن سعيد القطان⁴¹²* و ابن السماك⁴¹³* وغيرهم كثير . و لقد ارتأيت إدراج الليث بن سعد ضمن هذا الفريق رغم أن بعض الروايات تذكر عنه توليه لبعض المناصب لدى الدولة لخصوصية هذه العلاقة بينها لأن الليث كان على حظ عظيم من الغنى و الثراء و لم يكن يعيش ذات العوز و الفقر الذي كان عليه أقرانه و أصحابه ، و كان عمله للدولة مجاملة لها و خدمة للشأن العام ، حيث أن مكانته الكبيرة في مصر و غيرها صنعت له جاها كبيرا جعله لا يستطيع أن يكون بعيدا عن أجواء السلطة .

ورغم شهرة الإمام مالك بن أنس التي استفاضت في طول العالم الإسلامي و عرضه خاصة و التبجيل الذي حضي به من طرف الخاصة و العامة إلا أنه لم يجد حرجا في الاستجابة لدعوات المنصور و المهدي و الرشيد و الدخول عليهم في مجالسهم و قبول هداياهم و الأخذ من أعطياتهم ، الأمر الذي قابله الخلفاء بالإشادة بعلمه و التتويه بقدرته الفقهية و التفكير في اتخاذ كتابه " الموطأ " مرجعا وحيدا للفتوى و يحكي مالك بعض ما دار

⁴¹² * يحيى بن سعيد القطان : فقيه المدينة ، تولى القضاء للمنصور ، مات سنة 143 هـ .

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 66

⁴¹³ * ابن السماك : أبو العباس محمد بن صبيح ، الواعظ الكوفي الزاهد المشهور ، توفي سنة 183 هـ بالكوفة .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 301 — 302

بينه و بين المنصور في هذا الشأن : « ... لَنَحْمِلَ الناسَ إنشاءَ الله على علمك و كتبك ، و نبئها في الأمصار و نَعْهَدَ إليهم أن لا يخالفوها و لا يقضوا بسواها ... »⁴¹⁴ . فكان رد مالك عليه بأن الصحابة تفرقوا في الأمصار و أن فرض رأي أهل المدينة عليهم يثير فتنة : « ... فدع الناس و ما هم عليه و ما اختار كل أهل بلد منهم لأنفسهم ، فقال لعمرى لو طأوَعتني على ذلك لَأَمَرْتُ به ... »⁴¹⁵ ، ويحكي أيضا في رواية أخرى تفاصيل لقاء آخر انتهى بأن : « ... أمر لي بألف دينار عينا ذهباً ، و كسوة عظيمة و أمر لي بألف دينار ... »⁴¹⁶ و في خبر آخر قال مالك : « ... أمر أبو جعفر بصُرَر دنائير في كل صرة خمسة آلاف دينار .. أَمَا أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتها ... »⁴¹⁷ ، و قد جنح مالك في طور حياته الأخير إلى التمتع بما كان يتمتع به ميسوري المدينة حيث كان : « ... يجلس في منزله على جناح له و نمارق مطروحة فيه .. لمن يأتيه من قریش والأنصار و الناس ... »⁴¹⁸ . و لقد رافق فقيه المدينة الآخر عبد العزيز بن سلمة⁴¹⁹ أبا جعفر المنصور وجالسه و توثقت بينهما مودة و ثقة جعلت المنصور يفكر في ربط علاقة مماثلة بين عبد العزيز و المهدي ابنه ، حيث يروى أن المنصور لما أراد أن يحج شيعته المهدي : « ... فلما أراد الوداع قال المهدي : استهندي ، قال : استهديتك رجلا عاقلا فأهدى له عبد العزيز بن سلمة ... »⁴²⁰ . أما محمد بن إسحاق⁴²¹ * كاتب السيرة ومدون المغازي فقد كان منقطعا إلى العباس بن محمد⁴²² بالجزيرة ، ثم لقي المنصور و صاحبه و كتب له كتاب المغازي⁴²³ .

⁴¹⁴ محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د ت ، ص

53 :

ابن قتيبة : الإمامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 150

⁴¹⁵ مصطفى الشكعة : الإمام مالك بن أنس ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة 1983 ، ص : 123

⁴¹⁶ ابن قتيبة : الإمامة المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 150

⁴¹⁷ المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 145

⁴¹⁸ ابن سعد : الطبقات الكبرى (القسم المتمم) ، ت زياد محمد منصور ، ط 1 ، مكتبة العلوم و الحكم ، المدينة ، سنة

1408 هـ ، ص : 441

⁴¹⁹ لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة

⁴²⁰ الذهبي : المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 311

⁴²¹ * محمد بن إسحاق : صاحب السيرة ، من أعلام المدينة ، توفي سنة 150 هـ . الذهبي : المصدر نفسه ، ج 7 ،

ص : 55

⁴²² أحد عمال بني العباس عهد المنصور لم أعثر له على ترجمة

⁴²³ الذهبي : المصدر نفسه ، ج 7 ، ص : 48

وقد دفعت الحاجة أحد كبار المحدثين و الفقهاء و هو شعبة بن الحجاج⁴²⁴ * للقدوم على المنصور و ذلك من أجل الاستشفاع به لفك سجن أخيه ، فأكرمه المنصور و لبي طلبه ، ثم وفد على المهدي « ... فوهب له المهدي ثلاثين ألف درهم ، فقسمها ، وأَقْطَعَه ألف جَرِيب بالبصرة فقدم البصرة فلم يجد شيئاً يَطِيب له فتركها ... »⁴²⁵

وحدث أن بعث المهدي إلى صالح المري⁴²⁶ * فأقدمه عليه ، قال صالح المري : « ... دخلت على المهدي بالرصافة ، فلما مثلت بين يديه قلت : يا أمير المؤمنين احمل الله ما أكلمك به اليوم فإن أولى الناس بالله أحملهم لِغُظَّةِ النصيحة فيه ، وجدير بمن له قرابة برسول الله أن يرث أخلاقه .. واعلم أن أَبْطَأَ الصَّرْعَى نهضة صريع هوى وأن أثبت الناس قدما يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه .. فأحسن الحمل فقد أحسنت إليك الأداء . قال فبكى المهدي ثم أمر له بشيء فلم يقبله ... »⁴²⁷

ولم يستطع أحد من خلفاء بني العباس أن يجمع حوله من الفقهاء و المحدثين و أن يضمن ولاء جمع غفير منهم مثل ما فعل الرشيد ، حيث كاد أن يكون كلمة إجماع من طرف فقهاء السنة لولا ما شان ملكه ما تناقلته عنه الروايات و الأخبار من المجون و العبث و التوسع في الترف و البذخ وما حدث في حكمه من حوادث تدخل في مقتضيات السياسة و صيانة الملك كنقض العهود و تتبع العلويين⁴²⁸ . و كانت مجالسه عامرة بالفقهاء و المحدثين ، مفتوحة للوعاظ و النساك و المذكرين ممن يريدون إبراء ذمتهم أمام الله و الصدع بكلمة الحق ، بل كان الرشيد يرسل في طلبهم و يصغي إليهم و يترك دموعه تسقط من قوارع وعظهم ، ولعل ابن السماك هو الشخصية الأوفر شهرة من بين هؤلاء ، فقد كان كثير الدخول على الرشيد والوعظ بحضرته ، و بلغ إعجاب الرشيد به أن أمر مرة بكتابة كلامه⁴²⁹ ، و لم يكن

⁴²⁴ * شعبة بن الحجاج : أبو بسطام ، واسطي الأصل ، بصري الدار ، توفي سنة 160 هـ .

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 227

⁴²⁵ الذهبي : المصدر نفسه ، ج 7 ، ص : 211 — 212

⁴²⁶ * صالح المري : أحد قراء البصرة الكبار ، توفي سنة 176 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ،

ص : 494 — 495

⁴²⁷ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁴²⁸ « ... و كان شهما شجاعا حازما جودا ممدحا فيه دين و سنة مع انهماكه على اللذات و القيان و كان يصلي في اليوم

مائة ركعة إلى أن مات و يتصدق كل يوم »

⁴²⁹ الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 8 ، ص : 209

الوعظ والنصيحة هما فقط ما مكناه من إعجاب الرشيد و رضاه ، و إنما كانت مرونة ابن السماك وحذقه في إيجاد مخارج شرعية لبعض سقطات الخليفة ، فقد حدث أن استفتاه مرة في يمين حلفها أنه من أهل الجنة : « ... فقال له : هل قدرت على معصية فتركته من مخافة الله عز وجل ؟ قال : نعم قال : فَيَمِينُكَ بارة ... »⁴³⁰. وقد أراد الرشيد استمالة المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي⁴³¹ فقيه المدينة بعد مالك ، فعرض عليه قضاء المدينة فامتنع فأعفاه و وصله بألف دينار فأخذها⁴³² ، و لم يرد في الروايات ما يشير إلى أنه عاتبه أو أغلظ عليه . و كان يحرص على إظهار تواضعه للعلماء و القبول منهم و الإصغاء إليهم ، فقد حكا أبو معاوية الضرير⁴³³ وهو معلم الرشيد أنه أكل معه طعاما : « ... فصبّ على يديّ رجل لا أعرفه منهم ، فقال هارون : يا أبا معاوية تدري من صبّ على يدك ؟ قلت : لا قال أنا ، قلت : أنت أمير المؤمنين ؟ قال : نعم إجلالا للعلم ... »⁴³⁴ ، وقال لشيبان الراعي⁴³⁵ : عظني فقال شيبان :

«... لأن تصحب من يخوفك حتى يُدْرِكَك الأمن خير لك من أن تصحب من يُؤْمِنُكَ حتى يدركك الخوف فقال الرشيد: فسّر لي هذا قال : من يقول لك أنت مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول انتم أهل بيت مغفور لكم ، وانتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله ... »⁴³⁶ ، و في هذا الكلام و مضمونه و فحواه و الطريقة التي قدم بها يلخص مجمل معالم المسلك الذي ارتآه هذا الفريق في التعامل مع الدولة و رجالها حيث محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مطالب الرعية التي ظلت تتردد أصداءها في شعارات الثوار الخارجين وهي " العدل في القضية و القسمة بالسوية " ، و ذلك من أيسر طريق و بأقل تكلفة ، لذلك لم يجد بعض الرواة و الإخباريين حرجا من إضفاء الشرعية الدينية على حكم الرشيد من خلال المرائي والمنامات لما عدموا القدرة على إيجادها في الأحاديث النبوية الموضوعة فقد روي أنه : « ... رأى النبي صلى الله عليه

⁴³⁰ الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 304

⁴³¹ لم أعر له على ترجمة في كتب الطبقات المتاحة

⁴³² المصدر نفسه ، م 1 ، ج 1 ، ص : 330

⁴³³ أحد المحدثين كان مؤدبا للرشيد ، لم أعر له على ترجمة

⁴³⁴ السيوطي : تاريخ ، المصدر السابق ، ص : 285

⁴³⁵ لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة

⁴³⁶ المصدر نفسه ، ص : 294

و سلم في النوم فقال له: إن هذا الأمر صائر إليك في هذا الشهر فاغزُ وحُج و وسَّع على أهل
الحرمين ففعل هذا كله ...»⁴³⁷. ومن خلال استعراض حكايات و حوادث كثيرة
تجعل منه يقف اجلالا ليصغي الى مواعظ تقررع أذنيه تحذره من مغبة الظلم و التتكب عن
سبل الحق و تصفه يذرف دموعا غزارا خوفا ورهبة الأمر الذي لا نجد مصداقا له فيما
خرقه من عهود و الحياة اللاهية التي وصفها كتب الأدب والتاريخ مما سبق الإشارة اليه .

مالك بن أنس :

يعتبر مالك بن أنس من أكثر اللائمة شهرة و الأوفر أتباعا وقد نال حظا من تكريم أهل السنة له ما لم يلحقه فيه إلا الكبار ممن يرد ذكرهم في هذا البحث وقد وصفه أبو نعيم الأصبهاني بقوله: «... إمام الحرمين ، المشهور في البلدين ؛ الحجاز والعراقين ، المستفيض مذهبـه في المغربيين و المشرقيين ، كان أحد النبلاء و أكمل العقلاء...»⁴³⁸.

و قال فيه الشعراني: «... و كانت السلاطين تهابه...»⁴³⁹.

و قد اختلف المؤرخون في سنة ميلاد مالك ، و توزعت اجتهاداتهم حول سنين عدة تراوحت بين سنة 90 هـ و 98 هـ ، و توفي سنة 179 هـ — 795م⁴⁴⁰، و كان مولده بالمدينة لأسرة عربية يمنية الأصل ، كان أبو نبّالا ؛ أي يصنع النبل ، و كان إلى ذلك مُقْعَدًا ، و كان أبوه و جده و أعمامه من أصحاب العلم⁴⁴¹ ؛ فقها و حديثا ، و يذكر مالك سبب انصرافه إلى العلم و هو في طور الطفولة إلى مسابقة أجراها والده بينه و بين أخيه ؛ كان حظ مالك فيها الخطأ ، فعلق عليه والده : ألْهَتْكَ الحمام عن طلب العلم . فغضب مالك و انقطع إلى ابن هرمرز⁴⁴² * سبع سنين⁴⁴³ . و تذكر روايات أخرى أن لأُمّه الفضل في اشتغاله بالعلم حيث يروي مالك قائلا : نشأت و أنا غلام فأعجبني الأخذ عن المغنين ، فقالت أُمي : إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء و اطلب الفقه ، فتركت المغنين و تبعت الفقهاء فبلغ الله بي ما ترى⁴⁴⁴ .

وأخذ عن أئمة المدينة واقتصر على ساداتهم و لم يرحل كما كان يفعل غيره ، و ظل طول عمره يحمل تقديرا خاصا لعلماء المدينة ، وجعل من عمل أهل المدينة أصلا من

⁴³⁸ أبو نعيم الأصبهاني ، الحلية ، المصدر السابق ، م 3 ، ج 6 ، ص : 316

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 68

⁴³⁹ الشعراني : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 52

⁴⁴⁰ ابن الجوزي ، صفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 120

أبو الفداء : المختصر ، المصدر السابق ، م 1 ج 1 ، ص : 14

⁴⁴¹ الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 3 — 4

⁴⁴² * ابن هرمرز : أبو بكر عبد الله بن يزيد ، عالم المدينة ، توفي سنة 148 هـ . الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 20

⁴⁴³ محمد بن علوي بن عباس : مالك بن أنس ، د ط ، مطابع الأزهر ، مصر ، سنة 1981 ، ص : 13

⁴⁴⁴ الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 7

أصول فقهه التي نازعه و اختلف معه فيه كثير من الفقهاء و الأصوليين . و روى عن نافع و ابن شهاب الزهري وجعفر الصادق و غيرهم .

و قد أجمع كافة علماء السنة على علمه و فضله و علو درجته في الفقه ، واجتمع به كبار علماء أهل السنة و أثنوا عليه ، و صيغت فيه من المناقب ما لم يوصف بها غيره . و انتشر مذهبه في حياته ، و وسع العالم الإسلامي بتلامذته و طلبته و مريديه و زوّاره ؛ خاصة و أن مقامه بالمدينة كان قبلة الزوّار من الحجيج .

كان مالك من كبار فقهاء و محدثي أهل السنة ، و مكانته داخل هذا الاتجاه رفيعة و قد قال فيه الشافعي : « إذا ذُكر العلماء فَمَالِكُ النّجْمِ » . و قلّمًا يخلو كتاب من كتب أهل السنة في أبواب الفقه أو العقائد من إحالة لأقواله و فتاواه . و اشتهرت مقالاته التي أجاب بها رجلا سأله عن تفسير (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)⁴⁴⁵ فقال : « ...الْكَيْفَ غَيْرَ مَعْقُولٍ و الاستواء معلوم والإيمان به واجب و السؤال عنه بدعة ... »⁴⁴⁶ . و روي أنه كان إذا دخل عليه أحد المنتسبين لغير أهل السنة يقول : « ... أَمَا إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، و أَمَا أَنْتَ فَشَاكَ ... » ، و يقول أيضا : « ... لَسْتُ أَرَى أَحَدًا يَسُبُّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فِي الْفِيءِ سَهْمًا ... » و : « ... لَوْ أَنَّ رَجُلًا رَكِبَ الْكِبَائِرَ كُلَّهَا بَعْدَ أَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ تَخَلَّى عَنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ وَ الْبِدَعِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ... »⁴⁴⁷ . و رغم كل هذا الاحتفاء السنّي به ، إلا أن بعض المؤرخين لسيرته وجد مطاعن في بعض آرائه خاصة المتعلقة منها بمسألة الفضيل بين الصحابة ، و التي لا تتفق و ما استقر عليه أهل السنة و الجماعة ، إذ كان لا يرى تفضيل الإمام علي عن بقية الصحابة ؛ و يحصر التفضيل في أبي بكر و عمر و عثمان بحسب ترتيبهم في الخلافة ، و كان أحيانا يقتصر على أبي بكر و عمر ثم يصمت⁴⁴⁸ . و قد صدرت عنه عبارات و آراء أخرى غريبة عن التصور العام الذي استقر لدى الأمة الإسلامية ، من ذلك قوله : إمام الناس عندي بعد عمر بن الخطاب زيد بن ثابت . و إمام الناس بعد زيد ؛ عبد الله بن عمر⁴⁴⁹ .

⁴⁴⁵ سورة الرحمن الآية 46

⁴⁴⁶ الشعراني : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 53

⁴⁴⁷ أبو نعيم الأصبهاني ، الحلية ، المصدر السابق ، م 3 ، ج 6 ، ص ص : 324 — 325

⁴⁴⁸ الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 77

⁴⁴⁹ المرجع السابق ، ص : 77

علاقته الفعلية بالدولة :

لقد جاءت روايات متناقضة تصور مواقف مالك من بعض المسائل السياسية في عصره خاصة في قضية خروج محمد ذي النفس الزكية و أخيه إبراهيم ، فقد ورد في إحدى الروايات أن المنصور أرسله في وساطة إلى عبد الله بن الحسن في سجنه لإقناعه بتسليم ولديه ، لكن عبد الله لم يستجب لذلك ، في حين تذكر روايات أخرى أنه كان يفتي الناس في الوقت : إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر فكيف نخرج منها ؟ فكان يجيبهم : إنما بايعتم مكرهين و ليس على مكره يمين⁴⁵⁰ .

وقد سعي به إلى والي المدينة ، و قيل له : إن مالكا لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء . فغضب الوالي فدعا به وجرده من ثيابه و ضربه بالسياط ، و مد يده حتى خلعت كتفه⁴⁵¹ . و قيل في رواية أخرى أن ذلك بسبب الحديث الذي كان يرويه : لَيْسَ عَلَى مُسْتَكْرَهٍ طَلَقٌ ، وأن هذا الحديث يفضي إلى معنى سياسي ، و هو أنه ليس على مستكره بيعة⁴⁵² . و قد سئل مرة حول جواز قتال الخارجين عن الخلفاء . فأجاب : يجوز إذا خرجوا عن مثل عمر بن عبد العزيز . فيستطرد السائل : فإن لم يكونوا مثله ؟ ، فيقول مالك : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما⁴⁵³ .

ويقسم بالله قائلا : ما دخلت على أحد من هؤلاء الخلفاء والسلطين إلا أذهب الله هيبته من قلبي حتى أقول له الحق⁴⁵⁴ . و يقول : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئا من العلم أو الفقه أن يدخل إلى ذي سلطان فيأمره بالخير و ينهاه عن الشر و يعظه حتى يتبين دخول العالم عن غيره⁴⁵⁵ .

⁴⁵⁰ الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 74

⁴⁵¹ الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 290

⁴⁵² برهان الدين بن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، د ط ، دار المكتبة العلمية ، بيروت ، د

ت ، ص : 28 ، الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 79 — 81

⁴⁵³ محمد بن علوي بن عباس : مالك ، المرجع السابق ، ص : 73

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 74

⁴⁵⁴ أبو الفضل عياض بن موسى : ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب كمالك ، ات أحمد بكير محمود ،

د ط ، م 1 ، ج 1 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د ت ، ص : 208

⁴⁵⁵ برهان الدين بن فرحون : الديباج المذهب ، المصدر السابق ، ص : 27

لقد كان مالك موضع شك و ارتياب و مراقبة من طرف خلفاء بني العباس ، خاصة في عهد المنصور قبل أن يستقر الرأي على الثقة به و بنواياه ، و لقد وعظ مرة المنصور ونصحه في شؤون الرعية و أشار عليه بضرورة تقصي شؤون العامة من المسلمين فأجابه المنصور: « ... أليس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحي فيُحرَّك لئلا يسمع الجيران ... » ؛ فاندesh مالك لهذه المعلومة و يقول : « ... و الله ما علم بهذا أحد إلا الله ... » فيقول المنصور : « ... قد علمت هذا و لا أعلم أحوال ريعيتي... »⁴⁵⁶ . ولا بد أن مراقبة المنصور لمالك كانت إثر فشل ثورة محمد بن عبد الله ، إذ ظل المنصور متخوفا من تكرار مثلها ؛ خاصة و قد شهدت انخراط بعض الفقهاء في بعض أحداثها . لكن بعد أن تيقن من سلامة مقاصده أحاطه بصنوف التكريم المادي و المعنوي . و قد دخل عليه مرة و قد أخذ الناس مجالسهم ، فقال له : إلي ها هنا يا أبا عبد الله ، فجلس إزاءه حتى ألصق ركبتيه بركبتي المنصور ، فقال له : حقيق أنت بكل خير⁴⁵⁷ .

ولم يكن مالك يلزم نفسه في مجالس الخلفاء بالتقاليد و القواعد المرعية في ذلك ، و قد كان من بينها تقليد تقبيل يد الخليفة و كمه عند القدوم و عند الانصراف ، لكن مالكا لم يكن يفعل ذلك إكراما للعلم الذي يحمله . و قد حدث أن عطس المنصور مرة فشمته مالك و لما أراد الانصراف نبهه الحاجب إلى أن تسميت الخليفة خطأ ينبغي تحاشيه مرة أخرى ، و في مجلس آخر حدث أن عطس المنصور فقال مالك : أي حكم تريد يا أمير المؤمنين ، أحكم الله أم حكم الشيطان ؟ فيقول المنصور : بل حكم الله ، فقال مالك : يرحمك الله⁴⁵⁸ .

ويقول المنصور لمالك يحمله مسؤولية الشأن العام : « ... إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك أو سوء سيرة في الرعية ، فأكتب إلي بذلك أنزل بهم ما يستحقون . و قد أكتب إلى عمالي بها أن يسمعوا منك و

= القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 208

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 45

⁴⁵⁶ الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 47

⁴⁵⁷ المرجع نفسه ، ص : 47

⁴⁵⁸ القاضي عياض : المصدر السابق ، ص : 208

محمد بن علوي بن عباس : مالك ، المرجع السابق ، ص : 75

الشكعة : المرجع السابق ، ص : 48

يطيعوك في كل ما تعهد إليهم . فانهم عن المنكر و أمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك و أنت خليق أن تطاع ويسمع منك ... »⁴⁵⁹ .

وأمر له المنصور مرة بخمسة آلاف و كسوة سنوية كما أمر بألف لولده محمد ، و كان المؤلف أن يضع الأمور له بالهدية الكسوة على كتفه لكي يراها الناس ، فاعترض مالك هذا التقليد فلم يكن من المنصور إلا أن أمر الخادم بأن يلحقها برحل مالك دون إلزامه بهذه العادة⁴⁶⁰ .

ومنذ أن حصل مالك على رضا المنصور إلى غاية وفاته ظل محل تكريم و إجلال من طرف رجال الدولة العباسية . و لما تولى المهدي مضى على سنة المنصور في إكرام مالك وتقريبه ، و قد كان المهدي على علم بإجلال المنصور لإمام المدينة فزاد في توقيره للحد الذي دفعه لزيارته في بيته كما سيرد .

وقد بعث المهدي إليه ألفين من الدنانير و طلب إليه أن يركب إلى بغداد ، ربما ليقتنعه بالمقام بها ؛ فرفض أن يقبل المال وكما رفض الركوب إلى بغداد ، فلم تمض شهور حتى أرسل إليه المهدي ستة آلاف دينار ، فقال مالك لجلسائه : من ترك شيئاً عوضه الله عما ترك⁴⁶¹ . و ربما كان مراد المهدي أن يتخذ من مالك فقيه الدولة كالذي حصل بعد ذلك مع أبي يوسف القاضي ؛ في سياق تفكير المنصور و من تلاه بتوحيد مرجعية الفتوى ؛ الفكرة التي اعترض على واقعيتها مالك أيام المنصور .

وجاءت روايات كثيرة تصف حسن العلاقة بين المهدي و مالك ، و تشير إلى أن مالك كان مرَضِيّاً عليه . و قد أراد المهدي زيارته في بيته خلاف كما جرت به العادة ؛ إكراماً له فاستمهل مالك ساعة ، ظل فيها المهدي ينتظر ثم أدخله و هو يعتذر له : يا أمير المؤمنين إن العيال سمعوا بمجئك فأحبوا أن يصلحوا منزلهم⁴⁶² . و ظل المهدي يستدعيه للمجالسة

⁴⁵⁹ القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 208

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 49

⁴⁶⁰ ابن قتيبة : الإمامة المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 150 . الشكعة : المرجع السابق ، ص : 38

⁴⁶¹ القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 211 ، ثمة رواية أخرى تشبه هذه الرواية ، أنظر :

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 63

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 45

⁴⁶² القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 215 . الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص :

والمُبَاحِثَةُ كلما قدم المدينة و حدث في إحدى هذه الزيارات أن عطش مالك مرة في مجلس المهدي فطلب الماء فجاء له بقدر من زجاج به حلقة من فضة فأبى مالك أن يشرب فتنبه المهدي للأمر فأمر بالحلقة تلك فنزعت من الكأس⁴⁶³ . و استمر الرشيد على نهج سابقه في الاحتفاء بمالك والتتويه بعلمه و فضله ، و اتخذ من نفسه في أكثر من زيارة طالب علم بين يديه ، و حدث أن طلب الرشيد سماع الحديث من مالك في مجلس خاص ، فنصحه مالك بالسماع مع الطلبة وعلّل ذلك بأن الخاص لا يُنتفع به فلما جلس الرشيد إزاء مالك قال : هات تقرأ علي ؟ فقال مالك : ما قرأتُ على أحد منذُ زمان ، فقال الرشيد : إذن أخرج الناس عني حتى أقرأ الحديث عليك ، فقال مالك : إن العلم إذا منع العامة لأجل الخاصة لم ينتفع به الخاصة فقال الرشيد : فأمر بعض أصحابك يقرأه ، فاستجاب له مالك⁴⁶⁴ . و في رواية أخرى أن الرشيد جلس مُسْنَدًا إلى جنب مالك جلسة الإمارة فنَبَّهه مالك قائلاً : يا أمير المؤمنين من تواضع لله رفعه ، فقام الرشيد وجلس بين يديه ، فلما فرغ عاد إلى مكانه⁴⁶⁵ .

ودخل في إحدى المرات على الرشيد في إحدى زيارته للمدينة فوجد عنده شطرنجا منصوبا فظل واقفا و لم يجلس ، و خاطب الرشيد : أحق هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، فقال مالك : فما بعد الحق إلا الضلال . فرمى الرشيد الشطرنج برجله و قال : لا يُنصَبَنَّ بين يدي بعد⁴⁶⁶ .

وحدث أن حنث الرشيد مرة في يمين و سأل العلماء فأجمعوا على أن عليه عتق رقبة ، لكن مالك كان لديه رأي آخر وقال : عليه صيام ثلاثة أيام ، فقال الرشيد لمالك في صيغة اعتراض : أنا معدم ؟ فأجابه مالك : يا أمير المؤمنين ، كل ما في يدك ليس لك فعليك صيام ثلاثة أيام⁴⁶⁷ . و هذه كلمة جريئة صدرت من مالك تجاه الرشيد ما كان ممكنا قولها لولا مكانة مالك الكبيرة عند الرشيد و لولا المنزلة الرفيعة التي وصل إليها في قلوب الناس

⁴⁶³ الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 50

⁴⁶⁴ الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 51

³ الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 291.

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 66 . الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 51

⁴⁶⁶ القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 208 . محمد بن علوي بن عباس : مالك ، المرجع السابق

السابق ص : 75 . الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 51

⁴⁶⁷ محمد بن علوي بن عباس : مالك ، المرجع السابق ، ص : 79 . الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 53

؛ حيث انعقدت على إمامته آراء كل علماء السنة في ذلك العصر و ما تلاه من العصور ؛ بحيث صار مالك أجل و أعظم من أن يعاقب .

وقد حوِّصلَ الرشيد طبيعة العلاقة بينهما لما خاطبه : تواضعنا لِعِلمِكَ فانتقنا به و تواضع سفيان بن عيينة لنا فلم ننتفع به⁴⁶⁸. و سيأتي لاحقاً بيان فحوى العلاقة التي سلكها سفيان بن عيينة مع الرشيد و غيره .

وظل مالك معترزا بعلمه و مجاورته للحرم النبوي ، مُكرِّماً من وُلَّاء المدينة يستمعون لنصحه و توجيهه ، وقد خرج مرة لصلاة العيد فرأى والي المدينة في موكب و رايات وسلاح ، فأنكر عليه هذا الهيئان و ذكره بحال النبي صلى الله عليه و سلم و تواضعه في فتح مكة ، فاعتذر الوالي عن ذلك و لم يعد إلى ذلك⁴⁶⁹ .

ولقد شغلت مسألة علاقة مالك برجال الدولة العباسية معاصريه ؛ خاصة فيما يتعلق بقبوله ما كانت تجود به يد الخلفاء ، و الأمر لا ينفصل عن سياق حياة مالك الخاصة ، لذلك لا بد من معرفة المصادر التي كان يقتات منها و ينفق على عائلته .

والروايات في هذا الشأن لا تسعفنا كثيراً في بيان مصادر عيشه ، و بعضها يشير إلى انه قد كان في بداية شأنه يباشر التجارة و يرتزق منها ، و كان شريكاً لأخيه برأس ، لكن مع تزايد نمو حلقة و تكاثر الطلبة عليه ، و تفرغه للفقهِ و الحديث لم يعد من الممكن الجمع بين العلم و التجارة ، فاستجاز لنفسه القبول بهدايا الخلفاء ، و له في ذلك رأي أجاب به عن من سألوه عن مدى شرعية قبول مال السلاطين ، فقال : أما الخلفاء فلا شك ، و أما من دونهم فان فيه شيئاً⁴⁷⁰ و لم يعلل الفرق بين ما يهديه الخلفاء و ما يهديه من دونهم . و لما أجازهُ الرشيد في إحدى المرات بثلاثة آلاف دينار قيل له : « يا أبا عبد الله . ثلاثة آلاف تأخذها من أمير المؤمنين ، فقال : لو كان إمام عدل فأنصف أهل المروءة ، لم أر به بأساً... »⁴⁷¹ . و

⁴⁶⁸ الشكعة : المرجع نفسه ، ص : 44

⁴⁶⁹ لقاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 214

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 54

⁴⁷⁰ القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 217

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 58

4 القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 217

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 58

النص واضح في رأي مالك حول الرشيد ؛ حيث اعتبره إمام عدل و حيث كان ينعته بأمر المؤمنين . لكنه في حال الفتوى كان يفتي بخلاف ذلك ، و كأنه كان يرى قبوله هو لهدايا الخلفاء يختلف عن قبول الآخرين ؛ لأنه يأخذها عن قوة و ثقة ، في حين يأخذها آخرون عن ضعف و رغبة فقد روي أن سائلا سأله عن هدايا السلطان فقال : لا تأخذها ، فقال السائل : أنت تقبلها فأجابه : تريد أن تبوء بإثمي و إثمك ؟ ، و جاء في رواية أخرى : أنت تُبكتني بذنوبي⁴⁷² ، وهذا الرد غير صريح من مالك ، أو أن الرواية مختلفة لأن الذي يجد من نفسه القدرة على مواجهة المنصور و من تلاه في أمور لا تحبذها الشريعة كيف يستجيز لنفسه أن يقع في مثل هذا الذنب والظاهر أنه لم يرد خوض نقاش لا يجد جدوى من ورائه ، و قد عرف عنه كراهية النقاش .

إذن لقد جسد مالك من خلال مسلكيته التي حاولت عرض بعض جوانبها أهم ملامح الفئة من الفقهاء التي ارتأيت أن تجامل الدولة ، رغم ما أثير حول مساهمته في ثورة ذي النفس الزكية والتي لا تزال حدودها غامضة . و قد يكون مالك قد شارك في بعض تفاصيلها من خلال الرأي و المشورة الفقهية ، لكنه لم يحمل السلاح و لم ينخرط في الفعل ، و لم يرد له في الروايات الموثوقة التي عرضت ليوميات الثورة له ذكرا . و إن يكون قد ثبت لدى الدولة عليه نوعا ما من المشاركة ؛ إلا أن مثله في مكانته و منزلته لا تقوت الدولة فرصة ربط علاقة ود به ؛ يكون عوناً لها على إدامة السلام في المدينة ، و قد تم لها ذلك ، إذ لم تشهد المدينة طيلة هذا العهد حراكا سياسيا معارضا بنفس القوة و التأثير .

⁴⁷² القاضي عياض : ترتيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 218

الشكعة : الإمام مالك ، المرجع السابق ، ص : 59

الليث بن سعد :

من أشهر الفقهاء في زمانه فاق في علمه وفقهه إمام المدينة الإمام مالك بن أنس غير أن تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق مثلما فعل تلامذة الإمام مالك ، وكان الإمام الشافعي يقول : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به⁴⁷³ .

إنه الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية ولد بقرقشندة⁴⁷⁴ وهي قرية من أسفل أعمال مصر في سنة 94هـ — 713م⁴⁷⁵ .

تلقى الليث العلم على عدد من كبار علماء عصره، فسمع من عطاء بن أبي رباح وابن شهاب الزهري وغيرهما كثير⁴⁷⁶ . وجمع علما كثيرا و حفظ من الحديث ، و بلغ في حفظه ما روي أنه قيل له : « ... أَمَتَعَ اللهُ بِكَ إِنَّا نَسْمَعُ مِنْكَ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِي كُتُبِكَ فَقَالَ : أَوْ كُلِّ مَا فِي صَدْرِي فِي كُتُبِي ، لَوْ كُتِبَتْ مَا فِي صَدْرِي مَا وَسِعَهُ هَذَا الْمَرْكَبُ ... » . و هذا إن صحت الرواية يدل على واسع علمه و وفير محفوظه و كثرة سماعه ، و الذي استحق به أن يكون إماما مجتهدا .

وقد رحل الليث رحلات كثيرة في طلب العلم و السماع عن كبار التابعين و تلاميذهم فأدرك نخبة صالحة منهم مثل نافع مولى عبد الله بن عمر فاحتال حتى لقيه بالحجاز وكانت في نافع حدة ، ولكن الليث عرف كيف يصانعه حتى اطمأن له ، فلزمه الليث لا يبرحه طيلة إقامته بالحجاز ، يحفظ عنه الأحاديث وفتاوى الصحابة ، ويحاوره في الفقه . وقد حدث أن جلسا في دكان علاف فتحاورا برهة ، فمر بهما ابن لهيعة⁴⁷⁷ * وهو مصري

⁴⁷³ لا يناقض هذا ما ورد في ثناء الشافعي على مالك بأنه نجم العلماء لأن الإطلاقات هذه غير دقيقة بقدر ما تتم عن

الإعجاب والتقدير

⁴⁷⁴ قرقشندة : قرية بأسفل مصر . ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 327

⁴⁷⁵ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 137

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 127

⁴⁷⁶ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 137

⁴⁷⁷ * ابن لهيعة : قاضي مصر و مسندها ، توفي سنة 174 هـ .

السيوطي : طبقات ، المصدر السابق ، ص : 107

من أصحاب الليث — صار فيما بعد قاضيا لمصر — فسأل عن نافع : من هذا ؟ فقال الليث : هو مولى لنا . حتى إذا عاد إلى مصر ، جعل الليث يحدث عن نافع ، فسأله ابن لهيعة مُنْكَرًا وأين لقيته ؟ فأخبره الليث ضاحكا بالقصة فغضب ابن لهيعة ، لأنه أخفاه عنه ، فنقل إليه الليث جميع ما حفظه عن نافع⁴⁷⁸ والقصة تدل على الحرص على التلقي من كبار الشيوخ الموثوقين التي طبعت سعي طلبة العلم في ذلك العهد ، و ذلك حرصا على صحة الحديث و سلامة النقل في الدين ، و من أهم الشيوخ الذين أخذ عنهم و تعلم على يديهم هو ابن شهاب الزهري و يحدد الليث وقت سماعه منه يقول : « ... سمعت بمكة سنة ثلاث عشرة ومائة من الزهري وأنا ابن عشرين سنة ... »⁴⁷⁹ . ويقول « ... كتبت من علم ابن شهاب علما كثيرا وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة فخفت أن لا يكون ذلك لله فتركته ، ودخلت على نافع فسألني فقلت أنا مصري فقال ممن قلت من قيس قال : ابن كم ؟ قلت : ابن عشرين سنة قال : أما لحيتك فلحية ابن أربعين ، قال أبو صالح خرجت مع الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة خرجنا في شعبان وشهدنا الأضحى ببغداد قال وقال لي الليث ونحن ببغداد : سل عن منزل هشيم الواسطي⁴⁸⁰ * فقل له أخوك ليث المصري يقرئك السلام ويسألك أن تبعث إليه شيئا من كتبك . فلقيت هشيمًا فدفعت إلي شيئا فكتبنا منه وسمعتها مع الليث... »⁴⁸¹ . وكان في العشرين من عمره لما حجَّ حجتَه الأولى وزار المدينة حيث كان الفقهاء من كل الأمصار يجتمعون في الحج ثم في الحرم النبوي فيتبادلون الرأي ، وهناك تم لقاءه بابن شهاب الزهري وجلسه إليه ، وتلقيه عنه ، ووجد الليث في الزهري من عمق الفكر وسعة العلم ودقة الفهم ما لم يجد في أحد قط . فأكبره إكبارا شديدا حتى كان يمسك له بالركاب . و قد سأله صديق مستكرا هذا الفعل فقال الليث : « ... نعم للعلم ، فأما لغير ذلك فلا .. والله ما فعلته بأحد قط ... » كما التقى في الحجاز بعدد من فقهاء العصر من أهل السنة ؛ أهل الحديث وأهل الرأي على

⁴⁷⁸ ترد هذه الأمور بين القرناء في إطار التنافس و البحث عن التميز رغم أنها تبدو لا تليق.

⁴⁷⁹ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 144

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 128

⁴⁸⁰ * هشيم الواسطي : أصله من واسط ، نزل بغداد ومات بها سنة 183 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 310

⁴⁸¹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 145

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 127

السواء ، وجلس إليهم ، وفي حلقة ربيعة الرأي تعرف بمالك بن أنس ، وكان في مثل سنه وحصل بينهما ما يحصل بين الأقران من المجتهدين . وألف كل منهما صاحبه ، ونشأت بينهما مودة ، وقد أدرك الليث أن مالكا يعاني الفقر ، فكان كثيرا ما يصله بالمال ؛ الأمر الذي غدا سنة مضى عليها الليث في العطاء و مالك في القبول حتى أثرى مالك . و تلازما كذلك في حلقة ربيعة ، و حدث أن أكرم مالك الليث فأرسل إليه طبقا فيه رطب ، فرد الليث الهدية طبقاً مملوءا بالدنانير .

ولما عاد الليث إلى مصر ، استمرت العلاقة بينهما من خلال الرسائل ، و كثيرا ما دعا الليث مالكا لزيارة مصر لكن مالك لم يستطع . غير أن الليث تعود أن يزوره في المدينة كلما ذهب للحج أو العمرة وزيارة الحرم النبوي . وقد ظل الليث يصل مالك بن أنس بمائة دينار كل عام و حدث أن كتب مالك إليه أن عليه دينارا ، فأرسل إليه الليث خمسمائة دينار ؛ والدينار في ذلك الزمان كان يكفي لكسوة رجل أو لشراء دابة⁴⁸² . ولم ينقطع عطاء الليث لمالك حتى أصاب مالك عطاء الخلفاء وأصبح ثريا ، ومع ذلك فقد واطب الليث على سؤال مالك عن حاجته حتى في الرسائل التي تضمن خلافتها الفقهية⁴⁸³ . هذا و لم يكن مالك يرضن بالاعتراف بفضل الليث حيث روى أبو صالح كاتب الليث قال : كنا على باب مالك فامتنع عن الحديث ، فقلت : ما يشبه هذا صاحبنا ، فسمعها مالك فأدخلنا وقال : من صاحبكم ؟ قلت : الليث ، قال : تشبهونا برجل كتبت إليه في قليل عصفور نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ منه ما بعنا فضلته بألف دينار⁴⁸⁴ .

يقول أبو نعيم يصف جلالة و منزلته في مصر: « ... كان الليث رحمه الله فقيه مصر ومحدثها ومحتشمها ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم ؛ بحيث إن متولّي مصر وقاضيها

⁴⁸² الشرقاوي : أئمة الفقه ، المرجع السابق ، ص : 103

« ... وروي عن حرمة يقول كان الليث بن سعد يصل مالكا بمائة دينار في السنة فكتب مالك إليه علي دين فبعث إليه بخمس مائة دينار فسمعت ابن وهب يقول كتب مالك إلى الليث إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفور فبعث إليه بثلاثين حملا عصفرا فباع منه بخمس مائة دينار وبقي عنده فضله ... »

أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ج 7 ، ص : 322

⁴⁸³ الشرقاوي : أئمة الفقه ، المصدر السابق ، ص ص : 104 — 106

⁴⁸⁴ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ج 7 ، ص : 319

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 157

ونَظَرَهَا مِنْ تَحْتِ أَوَامِرِهِ وَيَرْجِعُونَ إِلَى رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ ، وَلَقَدْ أَرَادَهُ الْمَنْصُورُ عَلَى أَنْ يَنْوِبَ لَهُ عَلَى الْإِقْلِيمِ فَاسْتَعْفَى مِنْ ذَلِكَ ... »⁴⁸⁵ .

لقد جمع الليث صفاتاً قلما تجتمع في إنسان ، و لعلنا لا نجد مثيلاً لها إلا لدى عبد الله بن المبارك ، مع الفارق بينهما في الزمان و المكان و رؤية كل منهما لما ينبغي سلوكه في الحياة. و أهم هذه الصفات هي الثراء المادي لحد الغنى و الرسوخ العلمي للحد الذي بلغ به الليث درجة الاجتهاد المطلق ، و الجاه العريض و المنزلة الكبيرة و نفوذ الكلمة ، و عمق التأثير و امتلاك السلطة حتى على عمال الدولة ، و يؤكد ابن سعد أن الليث كان قد استقل بالفتوى في زمانه اضافة الى كثرة محفظه من الحديث و أنه كان سرّياً من الرجال سخياً له ضيافة⁴⁸⁶ .

و لقد تضمنت الأخبار و الروايات — التي رغم شحتها — إجماعاً من جميع معاصريه على واسع كرمه و جزيل فضله ؛ حيث تُوردُ أن الليث كان يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة وأنه قال : ما وجبت علي زكاة قط⁴⁸⁷ ، وأعطى ابن لهيعة ألف دينار ، وأعطى مالكا ألف دينار ، وأعطى منصور بن عمار الواعظ⁴⁸⁸ ألف دينار وجارية تساوي ثلاث مائة دينار⁴⁸⁹ .

ويحكي أحد أصحابه قال : « ... صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى و لا يتعشى وحده إلا مع الناس ، و كان لا يأكل اللحم إلا أن يمرض ... »⁴⁹⁰ . وجاءته امرأة فقالت : يا أبا الحارث إن ابنا لي عليلاً واشتهى عسلاً فقال : يا غلام أعطها مرطاً من عسل والمرط

⁴⁸⁵ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 145

⁴⁸⁶ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 161

⁴⁸⁷ ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 127

أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ج 7 ، ص : 322

المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 448

⁴⁸⁸ هو ابن السماك ، و قد سبقت ترجمته .

⁴⁸⁹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 149 ، 152

أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ج 7 ، ص : 322 — 323

« ... قال صالح بن أحمد الهمداني : قدم منصور بن عمار على الليث فوصله بألف دينار واحتترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار ووصل مالكا بألف دينار وكساني قميص سندس فهو عندي ... » .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 127 . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 158

⁴⁹⁰ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ج 7 ، ص : 321

عشرون ومائة رطل⁴⁹¹ . وذكر آخر قال : اشترى قوم من الليث ثمرةً فاستغلّوها فاستقالوا فأقالهم ، ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسين ديناراً ، فقال له ابنه الحارث في ذلك ، فقال : اللهم غفرا إنهم قد كانوا أمّلوا فيها أملاً فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا . لكن مع كل هذا الجاه العريض و الغنى الواسع إلا أنه كان يمتلك روحاً متدينة شفافاً فلم يمنعه تمكنه و اقتداره المادي من التمتع بالأحاسيس الروحية التي تسمو إلى الله و تراه أولاً وآخرًا ، فروي عن سعيد الآدم⁴⁹² قال : مررت بالليث بن سعد ففتح فرجعت إليه فقال لي : يا سعيد خذ هذا القنداق فاكتب لي فيه مَنْ يَلْزِمُ المسجدَ مِنْ لا بضاعة له ولا غلّة . فقلت : جزاك الله خيراً يا أبا الحارث . وأخذت منه القنداق⁴⁹³ ثم صرت إلى المنزل ، فلما صليت أوقدت السراج وكتبت : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قلت : فلان بن فلان ، ثم بدرت نفسي . فقلت : فلان بن فلان قال : فبينما أنا على ذلك إذا أتاني آت فقال : ها الله يا سعيد ؛ تأتي إلى قوم عامّلوا الله سرّاً فتكشفهم لآدمي ، ما الليث ؟ وما شعيب ؟ أليس مرجعهم إلى الله الذي عاملوه . فقلت ولم أكتب شيئاً ، فلما أصبحت أتيت الليث فتهلل وجهه ، فناولته القنداق فنشره فما رأى فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : ما الخبر ؟ فأخبرته بصدق عما كان ، فصاح صيحة فاجتمع عليه الناس من الحلق فسألوه ، فقال : ليس إلّا خير ، ثم أقبل عليّ فقال : يا سعيد تبينتها وحرمتها صدقت ، ما الليث ؟ وما شعيب ؟ أليس مرجعهم إلى الله⁴⁹⁴ .

وروي عن أشهب بن عبد العزيز⁴⁹⁵ * قال : كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها أمّاً أولّها فيجلس للسلطان في نوائبه وحوادثه ، وكان يغشاه السلطان فإذا أنكر من القاضي أمراً أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل ، ، ويجلس للمسائل يغشاه

⁴⁹¹ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 319 . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8

، ص : 149

⁴⁹² لم أعثر على ترجمته .

⁴⁹³ لم أجد معناه و لعله صحيفة أو مما يكتب فيه من ورق و غيره

⁴⁹⁴ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 153

⁴⁹⁵ * أشهب بن عبد العزيز : أبو عمرو انتهت إلى رئاسة الفقه المالكي بمصر ، ولد سنة 140هـ ، و توفي سنة 204 هـ .

الناس فيسألونه ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده كبرت حاجته أو صغرت ، وكان يطعم الناس في الشتاء و الصيف من صنوف الأطعمة المحببة ⁴⁹⁶ .

لقد كان الليث من رجال السنة الأكابر ، و يشهد مسرد شيوخه الذين أخذ عنهم العلم بولائه للعقائد السنية ، و لم يكتف بذلك بل لعب الليث دورا مهما في نشر العقيدة السنية ؛ خاصة الرؤية السنية لمسألة التفضيل بين الصحابة ، و قد حفظت المصادر شهادة من أحد معاصريه ⁴⁹⁷ تقول : « ... كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائله فكفوا ... » ⁴⁹⁸ . وإذا كنا نفتقد التفاصيل بهذا الصدد فإن الاعترافات المُجملة التي صدرت من كبار رجال السنة تمنحنا تعويضا ما ، إذ لو بلغهم خلاف ذلك لما ترددوا في ذكره . و قد كان الشافعي يقول : الليث أفه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به . و قال أيضا : الليث أتبع للأثر من مالك . وقال ابن وهب : لولا مالك والليث لضل الناس ⁴⁹⁹ . وذكر أحمد بن صالح الليث فقال : إمام قد أوجب الله علينا حقه ، لم يكن بالبلد .. مثله ⁵⁰⁰ .

وكان الليث بن سعد يقول : بلغت الثمانين وما نازعت صاحب هوى قط ، ويعلق أبو نعيم على قوله فيقول : « ... كانت الأهواء والبدع خاملة في زمن الليث ومالك و الأوزاعي والسّنن ظاهرة عزيزة ، فأما في زمن أحمد بن حنبل وإسحاق وأبي عبيد ⁵⁰¹ فظهرت البدعة وأمتحن أئمة الأثر ورفع أهل الأهواء رؤوسهم بدخول الدولة معهم ، فاحتاج العلماء إلى مجادلتهم بالكتاب والسنة ، ثم كثر ذلك واحتج عليهم العلماء أيضا بالمعقول ، فطال الجدل واشتد النزاع وتولدت الشبه ، نسأل الله العافية ... » ⁵⁰² .

علاقته بالدولة :

⁴⁹⁶ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 320

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 150

⁴⁹⁷ لا يرد ذكره

⁴⁹⁸ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 130

⁴⁹⁹ الذهبي : السير ، المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 156 — 158

أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 320

⁵⁰⁰ المصدر نفسه ج 8 ، ص : 154 — 155

⁵⁰¹ يقصد اسحاق بن راهويه و أبي عبيد القاسم بن سلام و أحمد بن حنبل

⁵⁰² الذهبي : السير ، المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 144

إنّ لقد كان الليث في مصر من أبناء الذوات و لم يكن نكرة ، و كان يجسد ظاهرة لم تتكرر طيلة هذا العهد ، و هي تمكّنه من الحصول على جميع مصادر السلطة ؛ سواء السلطة المادية و المتمثلة في جاهه العريض أو السلطة المعنوية و التي نالها من طريق علمه و فضله وسخائه و جَوْدَة عقله ، و النفوذ لدى السلطة السياسية الذي اكتسبه من خلال الاحترام الذي حظي به من خلفاء بني العباس الذين عاصروهم . هذه السيادة التي توفرت له جعلته كلمة إجماع . لقد كان حاضرا في قلب الحياة في مصر ، لم يمارس العزلة و لا الانفراد ، و كان هذا اتجاها عرف به منذ شببته و كهولته الباكرة .

وكان الليث قد امتلك احترام جميع الخلفاء الذين عاصروهم ؛ خاصة بني العباس ؛ حيث أن الدولة العباسية قامت و الليث في طور الكهولة ؛ يزحف نحو الأربعين ، و قد اكتمل علما وجاهها و منزلة ، و ربطته علاقة ود و ثقة بأبي جعفر المنصور . و يصف الليث أحد لقاءاته بالمنصور : « ... لما ودّعت أبا جعفر المنصور ببَيْت المقدس ، قال : أَعْجَبَنِي ما رأيْت من شِدَّة عقلك ، والحمد لله الذي جعل في رِعيتي مثلك ، قال شعيب : كان أبي يقول : لا تخبروا بهذا ما دمت حيا ... »⁵⁰³ . و قد أفضى هذا الإعجاب إلى تفكير المنصور في إسناد ولاية مصر إليه ؛ حيث روي عن الليث قال : « ... قال لي أبو جعفر المنصور: تلي لي مصر قلت : لا يا أمير المؤمنين إني أضعفُ عن ذلك ، إني رجل من الموالي . فقال : ما بك ضعف ولكن ضَعَفْتَ نِيَّتَكَ في العمل لي... »⁵⁰⁴ . و العبارة الأخيرة ذات حمولة ثقيلة ، يدور فحواها حول ما نحن بصدد البحث فيه . إن ضعف النية هو ذاته معنى التردد و عدم اليقين ؛ التردد في مدى صواب العمل للدولة ، و مدى القدرة على إحقاق الحق في ظل ظروف الانحراف الذي كان يشهده الواقع عن مقتضى تعاليم الدين .

وجاء في رواية أخرى : قال الليث : « ... قال لي المنصور تلي مصر؟ ؛ فاستعفيت ، قال: أمّا إذا أبَيْتُ فدلني على رجل أَقْلَدُهُ مصر، قلت : عثمان ابن الحكم الجذامي⁵⁰⁵ ؛ رجل له صلاح وله عشيرة . قال : فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله ألا يكلم الليث... »⁵⁰⁶ . و لعلها حادثة واحدة مَرْوِيَّة بصيغتين ، و الشاهد فيها ؛ هو حسن رأي و ظن الدولة العباسية

⁵⁰³ المصدر نفسه، ج 8 ، ص : 151

⁵⁰⁴ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 146

⁵⁰⁵ لم أعث له على ترجمة

⁵⁰⁶ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 156

في الليث و لا يكون ذلك إلا بعد أن سبرت نواياه و ولاءاته ؛ خاصة في عهد المنصور ، و قد عرف بشدة حزمه و تَقَصِّيهِ و اهتمامه بالأخبار ، ثم الشاهد الآخر هو اعتذار الليث عن قبول هذه المهمة وفهم المنصور مبررات ذلك ؛ إذ فطن أن للرفض علل أخرى غير ما أعلنه الليث ، و النوايا المضمرة هي ما نعتها المنصور بضعف النية ، و لا تضعف نية فقيه في مثل علم الليث و عقله إلا إذا كان في الأمر اشتباه . هذا الاشتباه الذي جعله يقبل أن يراقب عمل الولاية و القضاة ويرفع إلى الخلفاء آراءه و اقتراحاته ، و يصلح و يسدد ما يمكن إصلاحه . لكن على أن يكون ذلك عملاً إصلاحياً فردياً لا يندرج في وظيفة رسمية يتحمل تبعاتها رسمياً و يتحملها شرعاً .

وبرغم المعنى الذي فهمه المنصور ، و هو معنى مبطن بالإدانة من الطرفين ؛ إدانة الدولة لليث ، و إدانة الليث للدولة ، إلا أنه ظل محل تقدير و إجلال من طرفها . و قد كان رأي المهدي فيه كراي أبيه ، و قد روي عن يعقوب ابن داود وزير المهدي قال : قال أمير المؤمنين لما قدّم الليث العراق إلزم هذا الشيخ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه . وظل كذلك إلى عهد الرشيد ؛ حيث عاش الليث مدة خمس سنين في دولة الرشيد قبل أن يتوفاه الموت و قد عرفت هذه الفترة القصيرة تفاصيل مثيرة روتها بعض المصادر ، و إن يقع في القلب الشك فيها و في أمانتها التاريخية لأنها أشبه بقصص الإخباريين و قصص المجاميع الأدبية المكتوبة للتسلية أو التربية أكثر مما هي وقائع حقيقية .

وحدث أن أعضلت الرشيد مسألة فجمع لها الفقهاء فلم يشفوا نفسه فيها حتى أشخص الليث فأخرجه منها⁵⁰⁷ . و تكشف رواية أخرى مضمون هذه المعضلة . قال أبا الحسن الخادم⁵⁰⁸ : كنت غلاماً لزبيدة زوجة الرشيد وأتي بالليث بن سعد تستفتيه فكنت واقفاً على رأس ستي زبيدة⁵⁰⁹ * خلف الستارة فسأله الرشيد فقال له : حلفت إن لي جنتين فاستحلفه الليث ثلاثاً إنك تخاف الله فحلف له فقال : قال الله : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ)⁵¹⁰ . فأقطع الرشيد قطائع كثيرة بمصر⁵¹¹ . و ترد عند أبي نعيم الأصبهاني القصة برواية أخرى طويلة ؛

⁵⁰⁷ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 159

⁵⁰⁸ لم أجد له ترجمة

⁵⁰⁹ * زبيدة : أم جعفر زوجة هارون الرشيد ، كان لها معروف كثير و رغبة في فعل الخير ، توفيت سنة 216 هـ .

ابن خلکان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج

⁵¹⁰ الرحمن : الآية 16

⁵¹¹ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 323

مضمونها أن الرشيد حلف بالطلاق أنه من أهل الجنة ثم ندم عن اليمين التي صدرت عنه ، و أقبل يسأل الفقهاء عن المخرج من الطلاق فأغاثه الليث بالفتوى السابقة . ثم جرى بينهما حوارا أقرب للتفاوض جاء فيه ما يلي : « ... الضياع التي لك بمصر و لابنة عمك أكون عليها و تسلم إلي لأنظر في أمورها ، قال : بل نَقْطَعُكَ إقطاعا ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أريد من هذا شيئا بل تكون في يدي لأمير المؤمنين فلا يجرى علي حيف العمال و أعزّ بذلك ، فقال : لك ذلك . و أمر أن يُكْتَبَ و يُسَجَّلَ بما قال و خرج .. بجميع الجوائز و الخلع و الخادم و أمرت له زبيدة بضعف ما أمر به الرشيد ...»⁵¹² ولم يكن الليث بحاجة إلى كل هذه التدابير ليتجنب حيف العمال و هو في سنوات حياته الأخيرة و هو الذي لم يحتاج إليها في صدر حياته .

وقد سأله الرشيد في إحدى لقاءاته به : ما صلاح بلدكم ، فقال : يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا بإجراء النيل و إصلاح أميرها ، و من رأس العين يأتي الكدر فإذا صفا رأس العين صفت السواقي ، فقال الرشيد : صدقت يا أبا الحارث⁵¹³ . و هذا الخبر أقرب إلى الصحة لأنه يتماشى مع الخط العام الذي سارت عليه حياته من صراحة في الحق و صدق في النصيحة .

وفي النصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة مات الليث و كان ذلك يوم الجمعة وصلى عليه موسى بن عيسى . و قال أحد الذين شهدوا جنازته : « ... فما رأيت جنازة قط أعظم منها رأيت الناس كلهم عليهم الحزن وهم يعزي بعضهم بعضا ويبيكون . فقلت : يا أبت كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة ، فقال : يابني لا ترى مثله أبدا ... »⁵¹⁴

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 145

⁵¹² أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 324

وردت رواية مشابهة تجعل الجواب يصدر عن ابن السماك . وهذه من الروايات التي تؤخذ بحذر لأنها لا تخلو من احتمال الوضع و الصنعة .

⁵¹³ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ، ص : 322

⁵¹⁴ ابن الأثير : الكامل ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 89

الشرقاوي : أئمة الفقه ، المرجع السابق ، ص : 95

خير الدين الزرкли : الأعلام ، ط 3 ، ج 6 ، د ن ، د ت ، ص : 115

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 128

سفيان بن عيينة الهلالي :

يُرد ذكر سفيان في المجاميع الحديثية و الفقهية كما يتردد اسمه في كتب الزهد و الورع وإخبار المتعبدين ، قدم له أبو نعيم الأصفهاني بقوله : « منهم الإمام الأمين ذو العقل الرصين والرأي الراجح الركين المستتب للمعاني والمرتبط للمباني أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي كان عالما ناقدًا وزاهدا عابدا علمه مشهور وزهده معمر »⁵¹⁵

ولد بالكوفة سنة 107 هـ — 725 م في خلافة هشام بن عبد الملك ثم انتقل إلى مكة و هو في العقد الثاني من عمره ، فاستوطنها من غير أن يهجر مسقط رأسه ؛ إذ ظل يتردد على الكوفة بين الفينة و الأخرى . وكانت وفاته سنة 198 هـ — 813 م بمكة⁵¹⁶ في آخر خلافة محمد الأمين⁵¹⁷ لكن كتب الطبقات تصنفه عادة في رجال مكة لا الكوفة . و يبدو انه ولد في أسرة متعلمة ولأب جعل من بين أهدافه تخريج العلماء من أبنائه إذ تذكر كتب الطبقات أن لأبيه عيينة بن أبي عمران اهتمامات علمية جعلته يقترب من الحسن البصري أشهر علماء عصره و مكنت ابنه سفيان من الرواية عنه . كما يرد فيها ذكر لأربعة إخوة لسفيان كلهم محدثين باختلاف درجاتهم في عمق التحصيل و سعة الرواية .

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 161 — 162

⁵¹⁵ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 4 ، ج 7 ص : 270

⁵¹⁶ ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 141

⁵¹⁷ حكم الأمين من سنة 193 هـ لغاية 198 هـ . أنظر : المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 490

: ابن العبري : المصدر السابق ، ص ص : 132 — 133

: ابن كثير : المصدر السابق ، م 5 ، ج 10 ، ص : 202

عاصر خمسة من خلفاء بني أمية ، هم كالتالي : هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك و يزيد بن الوليد بن عبد الملك و إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك و مروان بن محمد . وكان شابا لما قامت الدولة العباسية ، إذ كانت سنه تقارب الخامسة و العشرين سنة ، وقد جلس للتحديث و الرواية . و عاصر ستة من خلفاء بني العباس و هم : السفاح والمنصور و المهدي والهادي و الرشيد و الأمين .

وقد اتجه سفيان مبكرا إلى مجالس العلم و حلقات الدرس ، ونملك شهادة شخصية منه تصف ذلك : « ...قرأت القرآن و أنا ابن أربع سنين ، و كتبت الحديث و أنا ابن سبع سنين ...» . و يتحدث الذهبي عن علمه فيقول : « ... طلب الحديث و هو حَدَّث ، بل غلام ، و لقي الكبار و حمل عنهم علما جما ...»⁵¹⁸ . و لم يكن بمستطاع سفيان الاهتمام المبكر بذلك لو لم يسعفه توجيه والده الذي ظل يراقبه و يسدده حتى أدرك البلوغ فألقى إليه بالنصيحة التالية التي ظل سفيان يحفظها و يحتفظ بمضمونها على مستوى السلوك : « ... يا سفيان قد انقطعت عنك شرائع الصِّبَا فاحتفظ من الخير تَكُنْ من أهله .. فاستأنس بالوَحْدَةِ من جُلَسَاءِ السَّوِّءِ ، لا تنقل حسنَ ظني بك إلى غير ذلك ، و لن يسعد بالعلماء إلا من أطاعهم ... » . فيعلق سفيان على الوصية : « فجعلت وصية أبي قبلة أميل معها و لا أميل عنها . »⁵¹⁹ .

وكان لبكوره في طلب العلم دور في أن يحتفظ شيوخه و من هم أكبر منه من الطلبة بصورته و ينقلوها بعد ذلك لما ذاعت شهرته : « ... قال شعبة بن الحجاج : رأيت بن عيينة غلاما معه ألواح طويلة عند عمرو بن دينار⁵²⁰ ، و في أذنه قِرْطُ ، أو قال : شنف ... » . وأكد حماد بن زيد⁵²¹ ذات الصورة : « ... رأيت سفيان بن عيينة عند عمرو بن دينار غلاما له ذُؤَابَةٌ معه ألواح ... » . هذا البكور يصنع لصاحبه في مجال علوم الحديث أهمية كبيرة وتمنحه لدى المحدثين و طلاب الحديث ميزة و شهرة و تجعله مقصدا لطلاب

⁵¹⁸ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 455

⁵¹⁹ البيهقي : كتاب الزهد الكبير ، تـ عامر حيدر ، ط 3 ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، سنة 1996 ، ج 2 ، ص :

111

⁵²⁰ عمرو بن دينار : أحد كبار تابعي مكة ، مات سنة 126 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 70

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 469 — 470

⁵²¹ حماد بن زيد : إمام أهل البصرة ، أحد أعلام السنة ، توفي سنة 179 هـ

الحنبلي : الثدرات ، المصدر السابق م 1 ، ج 1 ، ص : 292

الرواية ، ذلك ما يصفه المختصون بـ " الحديث العالي" في مقابل " الحديث النازل" .
 فالبكور في السماع يضمن لصاحبه تحصيل الرواية عن الشيوخ الكبار المسنين الذين يكون موتهم وشيكا . وكلما كان عدد الرواة قليلا بين الراوية و بين النبي صلى الله عليه و سلم كان ذلك أدعى لتثمين الحديث . وذلك عين ما حصل لسفيان إذ حمله بكوره في الطلب إلى البكور في التحديث والرواية والاضطلاع مبكرا بمهمة الأداء⁵²² . وكانت هذه الميزة مفخرة طالما ردها سفيان في مجالسه : «... سألت الزهري عن حديث .. فطرودني ، فقال دعوه ، ثم قال : ما رأيت أحدا يطلب هذا الشأن ، أصغر منه ...» . ويردد أيضا : « ... جالست الزهري سنتين ، و كان يقول لأهل بلده : انظروا إلى هذا الغلام يسألني و أنتم لا تسألوني ...»⁵²³ . ودأب في السماع حتى غصت المصادر بأسماء شيوخه الذين بلغوا سبعين نفسا من أعلام التابعين . لذلك لم يكن عجبا أن صار بحيث يقول فيه أحد كبار المحدثين : « نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة ، الزهري ، وعمرو بن دينار ، و قتادة⁵²⁴ * ، و الأعمش⁵²⁵ * ، ثم صار علم هؤلاء .. إلى أصحاب الأصناف ممن صنف ، فمن أهل الحجاز مالك ، و ابن جريج⁵²⁶ * ، و سفيان بن عيينة ، و محمد بن إسحاق ...»⁵²⁷ .

علاقته بالدولة :

لا نملك في مصادرنا أي إشارة لتولي سفيان أي عمل للدولتين الأموية و العباسية ، مهما كان نوع العمل ، و قد كان بمستطاعه الحصول على أرفع الوظائف الدينية بخاصة ، في الوقت الذي ذاع صيته⁵²⁸ ، و قبول مثله للاشتغال لدى الدولة هو مكسب لها ترغب فيه و تحرص عليه لكنه نأى بجانبه عن الخوض في ذلك رغبة في السلامة ، وربما كان لنوعية

⁵²² الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 460

⁵²³ المصدر نفسه ص : 462

⁵²⁴ * **قتادة** : أبو الخطاب السدوسي البصري ، من كبار التابعين ، ولد سنة 60 هـ و توفي سنة 116 هـ بواسط .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 85

⁵²⁵ * **الأعمش** : سليمان بن مهران الكوفي ، الإمام المشهور ، كان ثقة عالما فاضلا ، لقي كبار التابعين ، ولد سنة 60 هـ ، و توفي سنة 149 هـ . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 400 — 403 .

⁵²⁶ * **عبد الملك بن جريج** : أحد فقهاء و محدثي المدينة ، توفي سنة 150 هـ .

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 71

⁵²⁷ هذا قول الذهبي ، السير ، ج 9 ، ص : 525

⁵²⁸ يبدو أن علاقة سفيان الدولة العباسية تتضح أكثر في عهد الرشيد . و لقد حكم الرشيد بين 170 هـ و 193 هـ . يعني

كان سن سفيان لما تولى الرشيد الخلافة في حدود 63 سنة علما من أعلام أهل السنة

أصحابه وطباعهم دور في إشاحته عن الظهور بمظهر العامل لدى الدولة ، خاصة إذا عرفنا أن خاصة سفيان من أصحابه و أكثر المقربين إليه هم سفيان الثوري ، و الفضيل بن عياض⁵²⁹ ، و عبد الله بن المبارك ، وقد عرف هؤلاء بانحياشهم و ازوارهم عن الدولة و عمالها ، و تفرغ كل من تسول له نفسه الدخول في أعمالها كصنيع ابن المبارك مع إسماعيل بن علية و صنيع الثوري مع شريك و غيره ، إذ كان ذلك معدود في الاقتربات التي لا يتسامحون فيها .

لكن الواضح أن ابن عيينة يختلف اختلافا بينا عن أصحابه في شكل تعاطيه مع الدولة ؛ خاصة العباسية التي عاش في ظلها أكثر و أهم سني عمره ، إذ لا تتسم لقاءاته مع رجال الدولة خاصة الخليفة بذات الحدة التي يسلكها أصحابه كالثوري مثلا أو الفضيل بن عياض ، كما يبدو أنه يملك فهما و تصورا لمسألة ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الفقيه و الحاكم مختلفا ، إذ نجد أن الروايات التي تعلقت بهذا الأمر تعرضه في صورة الفقيه العالم الذي يرحب بإقامة علاقة ود و تعاون و تفهم مع رجال الدولة و على رأسهم الخليفة ، و التي تصل لحد قبول صلوات و هدايا و إعانات مالية لم يكن يجد حرجا في قبولها . و تصوره الأخبار جاهزا مستعدا لأي خدمة يستطيع تقديمها للخلفاء من قبيل الزيارة أو الإفتاء أو المسارعة للقاء مع لين الكلام العامر بمعاني الطاعة و الإذعان و الامتتان و العرفان بالجميل ؛ بعبارة مختصرة تصوره كمن يخشى السلطة و لا يرتفع لمثل مواقف أصحابه الذين سبق ذكرهم⁵³⁰ . ولا تخلو صياغات بعض الروايات من غمز مقصود .

إن كان سلوك سفيان مع الدولة العباسية يندرج في سياق المجاملة ، إذ لا نقرأ عنه في تفاصيل اتصاله مع رجالها مثل مجابهاة الثوري و وكيع و ابن إدريس و احمد الحادة و

⁵²⁹ أبو بكر البيهقي : شعب الإيمان ، تـ محمد زغلول ، ط 1 ، سنة 1410 هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج 4 ، ص : 110 . أنظر النص التالي في علاقتهما : «...جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة يتذاكران النعم ، فجعل سفيان يقول : أنعم الله علينا في كذا ، أنعم الله علينا في كذا ، فعل بنا كذا فعل بنا كذا ...»

⁵³⁰ نفس المصدر ، ج 6 ، ص : 35 . في بعض الروايات يبدو سفيان كواسطة يجتمع من خلالها الرشيد بالمتشددين : « قال هارون الرشيد لسفيان : أحب أن أرى الفضيل . فقال له : اذهب بك إليه . فاستأذن سفيان على فضيل فقال له : من هذا ؟ قال قولوا له : هذا سفيان . فقال : قولوا له يدخل . فقال : ومن معي . قال : ومن معك . فلما دخلوا عليه قال له سفيان : يا أبا علي هذا أمير المؤمنين . فقال : وإنك لهو يا جميل الوجه ، أنت الذي ليس بين الله وبين خلقه أحد غيرك ، أنت الذي يسأل يوم القيامة كل إنسان عن نفسه وتساءل أنت عن هذه الأمة . قال : فبكى هارون . » . نفس المصدر ، نفس الصفحة

الفاصلة ، كما لا نشهد لديه صورة الفقيه العامل للدولة ، بحيث تقوم معيشتة و أساس حياته على عطاءاتها ، الذي يرى نفسه و يراه الآخرون موظفا كغيره من الموظفين الملزمين بالعمل و الطاعة و التقاني في الخدمة ، الأمر الذي نجده عند أبي يوسف القاضي مثلاً ، و الذي عبرت عنه بالمخاللة . وربما كان سفيان يستشعر حرجاً في ذلك ، فنقرأ عنه كيف يروي مواقف بعض الفقهاء مع خلفاء بني أمية ؛ كالذي حصل بين أبي حازم⁵³¹ و سليمان بن عبد الملك أو بعض المعاصرين له من الكبار كالحوار الذي حدث بين الرشيد و أبي إسحاق الفزاري⁵³² . لعله أراد التنبيه إلى أن الدخول على السلاطين إذا كان لأجل الموعظة و النصيحة و خدمة الصالح العام فإنه محسوب في المصالح و المنافع⁵³³ .

لكن رغم المكانة العالية التي تسنمها سفيان لدى أهل السنة و أصحاب الحديث بخاصة⁵³⁴ إلا أن سوابقه مع الدولة ظلت محل تبرم و اشتباه حتى من طرف أحد كبار طلبته و المقرين بإمامته ، و فضله ؛ و هو أحمد بن حنبل كما نجده في الرواية التالية : «... دخل سفيان بن عيينة على معن بن زائدة و هو أمير باليمن ، و لم يكن سفيان تَلَطَّخَ بَعْدَ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ السُّلْطَانِ ، فجعل يعضه و يذكر له أمر المسلمين فجعل معن يقول له : أبوهم أنت ؟ أخوهم أنت ؟ ...» . و في كلمة تلطخ إشعار برأي أحمد السيئ في مسلكية سفيان و كيفية تعاطيه

⁵³¹ أبو حازم الأعرج أحد فقهاء المدينة ، اشتهر حواراه مع سليمان بن عبد الملك بحضرة الزهري في المصادر ، راجعه

بطوله في : ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 422

⁵³² سبقت ترجمته في مبحث أبي حنيفة

⁵³³ الحق أنه روى أخباراً أخرى تشيد بالذين كانوا عمالاً لدى الدولة ثم تابوا . مثل : ابن مرزوق . =

= «...وقف سفيان على عبد الله بن مرزوق وقد جمع بطحاء تحت رأسه وتحت جنبه رمل يسفي عليه التراب ، فقال له سفيان : يا أبا محمد إنه من ترك شيئاً من الدنيا عوضه الله عليه في الدنيا . فما الذي عوضك مما تركت ؟ قال : الرضا بما أنا فيه الآن قال ورأى عبد الله بمكة فقيل له : راكبا جئت أم راجلا ؟ فقال : ما حق العبد العاصي أن يرجع إلى باب مولاه راكبا ، لو أمكنني جئت على رأسي ...» . البيهقي : الزهد ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 338

⁵³⁴ «...إذا رأيت الرجل يحب سفيان الثوري ومالك بن أنس وأيوب السختياني وعبد الله بن عون ويونس بن عبيد وسليمان التيمي وشريكا وأبا الأحوص الفضيل بن عياض و سفيان بن عيينة والليث بن سعد وابن المبارك و وكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن يحيى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه فاعلم انه على الطريق ...» محمد بن إسحاق الحاكم : شعار أصحاب الحديث ، تـ صبحي السامرائي ، دار الخلفاء

مع الدولة و رجالها⁵³⁵ ؛ إذ لا تعدو عنده سوى سقطة أو خطأ كان أولى به تجنبه . و سيرة أحمد تبين الشكل الذي كان على سفیان أن ينتهجه مع السلطان و دائرته .

و نجد أيضا في خبر رحلة الشافعي إلى اليمن واشتغاله قاضيا هناك ثم عودته إلى مكة كيف أن أحد شيوخه عاتبه بقسوة و انتهره لدخوله في هذا الأمر ، بخلاف سفیان فإنه كلمه بلطف ونصحه بالانصراف الكلي للعلم لأنه أجدى ، فضل الشافعي يذكر له لطفه في النصيحة ، الشيء الذي نقرأ فيه موقفه التلقائي من قضية العمل للدولة⁵³⁶ .

ولقد حاك في صدر الرشيد⁵³⁷ شيء و هو بمكة في موسم حج فكلف الفضل بن الربيع⁵³⁸ * يبحث له عن فقيه يسأله «... فقلت : ها هنا سفیان بن عيينة قال : فامض بنا إليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير لو أرسلت إلي أتيتك ، فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله فحادثه ساعة فقال له أعليك دين ؟ قال : نعم قال: يا عباس اقض دينه...» ، ثم كان تعليق الرشيد على «... ما أغنى عني صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله...» فأشار عليه بعبد الرزاق الصنعاني فكان صنيعه لما أتياه : «... خرج مسرعا فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك ، فقال : خذ لما جئناك له رحمك الله ، فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين قال : نعم قال ..اقض دينه...» لكنه لم يشف ما يتحرق داخله حتى دله على الفضيل : «... فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من كتاب الله ويردها وكان هارون رجلا رقيقا فبكي بكاء شديدا ثم قال لي : اقرع الباب

⁵³⁵ البيهقي : شعب ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 43 . لقد ظل سفیان يؤكد انتسابه لأهل الزهد رغم كل شيء

«... أبا يوسف الصولي يقول دخلت على سفیان بن عيينة في مرضه الذي مات فيه فدعا ابن عيينة بشعير فقال يا أبا يوسف دع ما يقول الناس هذا طعامي منذ ثلاثين سنة...» . أنظر : ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 139

⁵³⁶ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 75

⁵³⁷ كان الرشيد معدودا في أهل السنة ، و من بين الخلفاء الذين يحضون باحترام لديهم ، رغم ما اشتهر عنه في أدبيات الترف من قبيل ألف ليلة و ليلة . بل لم يقصر مؤرخوا السنة في إبراز صلاحه و نفي ما أتهم به . . و قد سبق إيراد قول الفضيل وددت أن الله عز و جل زاد في عمر هارون و نقص من عمري . ولقد جاء عن الرشيد قوله «...بلغني أن بشرا المريسي يزعم أن القرآن مخلوق لله علي أن أظفرن به لاقتلته قتلة ما قتلتها أحدا قط...» . أنظر :

عبد الله بن أحمد : السنة ، ت محمد سعيد القحطاني ، ط 1 ، دار ابن القيم ، الدمام ، سنة 1406هـ ، ج 1 ، ص : 169.

عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، ط 1 ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 2004م — 1424هـ ، ص ص : 27 — 31

⁵³⁸ * الفضل بن الربيع : وزير الرشيد و الأمين و لم يكن له في دولة المأمون حظ ، توفي سنة 208 هـ .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص : 37 — 40

فقرعته ، فقال : من هذا فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : مَالِي ولأَمِير المؤمنين
«...»⁵³⁹ . و النص طويل لا يحتمل

المتن إيراد فيه ، و مضمونه يشير إلى حاجة الرشيد إلى من يصدق النصيحة و يخلص
له الموعدة ، و لابد أن الأمر كان غاية في الجدية لا يحتمل المجاملة .

إذن لقد ارتضى سفيان لنفسه هذا الطريق مخالفا في ذلك أقرب رفقاءه إليه ، واستمر عليه
حتى وفاته دون أن يجد في نفسه حرجا من ذلك ، و ليصير بهذا حجة لغيره ممن سلك
مسلكه .

الشافعي :

في مدينة غزة⁵⁴⁰ * كان مولد أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع
في سنة 150 هـ — 767 م⁵⁴¹ ، وتشاء الأقدار أن تكون هي السنة التي توفي فيها الإمام أبو
حنيفة . ويلتقي الشافعي في النسب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف⁵⁴² .

نشأ الشافعي يتيما، وانتقلت به أمه إلى مكة وهو ابن سنتين حتى ينشأ على ما ينشأ عليه
أقرانه من قبيلته قريش⁵⁴³ ، وكانت مكة تموج بالفقهاء والمحدثين، وبعد أن حفظ القرآن - ولم
يكن قد تجاوز سبع سنين - بدأ في التردد على حلقات العلم، ورزقه الله شغفاً بالعلم وحباً في
طلبه، فكان يلزم حلقات العلم ويحفظ الحديث رغم فقره و قلة ذات يده « ... كنت يتيما في
حجر أمي ولم يكن معها ما تُعطي المعلم وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام ، فلما
ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة ، وكان منزلنا
بمكة في شعب الخيف ، فكنت أنظر إلى العظم يلوح فأكتب فيه الحديث والمسألة وكانت لنا

⁵³⁹ البيهقي : شعب ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 36 — 39

⁵⁴⁰ * غزة : مدينة طيبة بين الشام و مصر . القزويني : اثار ، المصدر السابق ، ص : 227

⁵⁴¹ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 67

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 72

⁵⁴² ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 165

⁵⁴³ الذهبي : السير ، ج 10 ، ص : 6

جَرَّة قديمة فإذا امتلأ العظم طرحته في الجرة ...»⁵⁴⁴ ويتردد على البادية حتى يفصح لسانه ويستقيم نطقه، ولزم في سبيل ذلك قبيلة "هذيل" وكانت أفصح العرب، ولقد كان لهذه الملازمة أثر في فصاحته وبلاغة ما يكتب، وقد لفتت هذه البراعة أنظار معاصريه من العلم بعد أن شب وكبر، حتى إن الأصمعي وهو من أئمة اللغة المعدودين يقول: «... صَحَّحْتُ أشعار هُذَيْل على فتى من قریش يقال له محمد بن إدريس...»⁵⁴⁵. وبلغ من اجتهاده في طلب العلم أن أجازته شيخه مسلم بن خالد الزنجي⁵⁴⁶ * بالفتيا وهو لا يزال صغير الإهاب⁵⁴⁷. و يحكي عن نفسه يقول: «... كنت إمراً أكتب الشعر فآتي البوادي فأسمع منهم، قال: فقدمت مكة فخرجت منها وأنا أتمثل بشعر للبيد، فضربني رجل من ورائي من الحَبَّبة، فقال: رجل من قریش ثم من ابن المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون معلماً، ما الشعر؟.. تفقه يُعَلِّمك الله قال فنفعني الله بكلامه ...»⁵⁴⁸

كان الإمام مالك قد طبقت شهرته الآفاق، وتناقل الناس كتابه الموطأ، وسمت همة الفتى الصغير إلى الذهاب إليه في المدينة حيث يقيم، لكنه لم يرد أن يذهب دون أن يحفظ كتاب الموطأ، فلما جلس الشافعي بين يدي مالك، وقرأ عليه الموطأ أعجب الإمام مالك بقراءته وفصاحته، وكان عمر الشافعي ثلاث عشرة سنة تقريباً: «... ثم قرأت على مالك بن أنس فكتبت موطأه فقلت له يا أبا عبد الله أقرأ عليك قال يا ابن أخي تأتني برجل يقرأه علي فتسمع فقلت أقرأ عليك فتسمع إلى كلامي فقال لي اقرأ فلما سمع قراءتي أذن فقرأت عليه حتى بلغت كتاب السير فقال لي: إطوه يا ابن أخي تفقه تعلُّ ...»⁵⁴⁹ ومنذ ذلك الوقت لازم الإمام الشافعي الإمام مالكا حتى توفي سنة 179هـ — 795م أي أنه لازمه ست عشرة سنة.

⁵⁴⁴ أبو نعيم الأصبهاني: الحلية، المصدر السابق، م 5، ج 9، ص: 73

⁵⁴⁵ ابن خلكان: الوفيات، المصدر السابق، ج 4، ص: 163

⁵⁴⁶ * مسلم بن خالد الزنجي: كان مفتي مكة بعد ابن جريج، توفي سنة 179 هـ. الشيرازي: الطبقات، المصدر

السابق، ص: 70

⁵⁴⁷ المصدر نفسه، ص: 72

⁵⁴⁸ أبو نعيم الأصبهاني: الحلية، المصدر السابق، م 5، ج 9، ص: 70

⁵⁴⁹ الذهبي: المصدر السابق، ج 10، ص: 85. أبو نعيم: الحلية، المصدر السابق، ج 9، ص: 70 — 71. و

جاء في رواية ابن خلكان على لسان الشافعي:

«... قدمت على مالك بن أنس وقد حفظت الموطأ فقال لي أحضر من يقرأ لك فقلت أنا قارئ فقرأت عليه الموطأ حفظاً

فقال إن بك أحد يفلح فهذا الغلام ...» . ابن خلكان: الوفيات، المصدر السابق، ج 4، ص: 164

ولما توفي مالك عمل الشافعي واليا على " نجران " ⁵⁵⁰ ، وسار فيهم بالعدل : « ... فجئت إلى مصعب بن عبد الله ⁵⁵¹ فكلمته أن يكلم بعض أهلنا فيعطيني شيئا من الدنيا ؛ فإنه كان بي من الفقر والفاقة ما الله به عليم ، فقال لي : مصعب أتيت فلانا فكلمته ، فقال لي : تكلمني في رجل كان منا فخالفنا ، قال : فأعطاني مائة دينار . وقال لي مصعب : إن هارون الرشيد كتب إليّ أن أصير إلى اليمن قاضيا فتخرج معنا لعل الله أن يعوضك ما كان من هذا الرجل ، فخرج قاضيا على اليمن وخرجت معه ... » ⁵⁵² غير أن ذلك لم يجد هوى عند بعض الناس ، فوشوا به إلى الخليفة هارون الرشيد و كان من بين ما قيل له : « ... كتب مطرف بن مازن ⁵⁵³ إلى هارون الرشيد إن أردت اليمن لا يفسد عليك ولا يخرج من يدك فأخرج عنه محمد بن إدريس ، وذكر أقواما من الطالبين ... » ⁵⁵⁴ فأرسل في استدعائه سنة 184هـ - 800م لكنه لما حضر بين يدي الخليفة أحسن الدفاع عن نفسه بلسان عربي مبين ، وبجبة ناصعة قوية فأعجب به الخليفة ، وأطلق سراحه ، ووصله بعطية قدرها خمسون ألفاً ، أنفقها الشافعي وفرّقها على حجاب أمير المؤمنين وخدامه قبل أن يخرج من باب القصر ⁵⁵⁵ .

⁵⁵⁰ * نجران : بلدة تقع باليمن جهة مكة . ياقوت الحموي : معجم ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 266

⁵⁵¹ لم اعثر على ترجمته

⁵⁵² أبو نعيم : الحلية ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 71

⁵⁵³ أحد عمال الرشيد باليمن لم أجد له ترجمة

⁵⁵⁴ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁵⁵⁵ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 84 ، وفيه : « ... وخلع على الشافعي خاصة ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، فأنصرف إلى البيت وليس معه شيء ؛ قد تصدق بجميع ذلك ووصل به الناس ، فقال له هارون الرشيد : أنا أمير المؤمنين وأنت القدوة فلا يدخل علي أحد من الفقهاء قبلك ... » .

و ورد أيضا : « ... أين الحجازي ؟ فجئت إليه ، فقام يمشي رويدا ويحرك شفتيه ، فلما بصر به أمير المؤمنين قام إليه فاستقبله ، وقبل بين عينيه ، وهش وبش وقال : لم لا تزورنا أو تكون عندنا ؟ فأجلسه وتحذثا ساعة ، ثم أمر له ببذرة دنانير فقال : لا ارب لي فيه ، قال الفضل : فأومأت إليه فسكت ، وأمرني أمير المؤمنين أن أردّه إلى منزله ، فخرجت والبذرة تحمل معه ، فجعل ينفقها يمناً ويسرة حتى رجع إلى منزله وما معه دينار ... » . المصدر نفسه ص : 80

و جاء في رواية أخرى : « ... ثم خرج إلى اليمن ، وقد خرج بها الخارجي على هارون الرشيد ، وطعن الشافعي عليه وأعرض عن ساعده ، ورفع من قعد عنه ، فبلغ ذلك الخارجي ما يقول فيه فبعث إليه فأحضره عنده وهم بقتله ، فلما سمع كلامه وتبين له شرفه وفضله وعفته عفا عنه ، وعرض عليه قضاء اليمن فامتنع من ذلك ، ثم أشخص هارون جيشه إلى ذلك الخارجي فقبض عليه وحمل إلى بساط السلطان ، وحمل معه الشافعي وأحضرا جميعا بين يدي الرشيد ، فأمر بقتلهما فقال له : الشافعي : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تسمع كلامي وتجعل عقوبتك من وراء لساني ثم تضمني بعد ذلك الى ما يليق لي من الشدة والرخاء ، فقال له : هات فبين له القصة وعرفه شرفه وذكر له كلاما استحسنة هارون وأمره أن يعيده

ولم يرق لبعض شيوخه دخوله في عمل القضاء فعاتبه بعضهم عتاباً قاسياً كما يرويهِ الشافعي : « ... فولِّي عَمَّ لي ناحية اليمن على القضاء ، فخرجت معه فلما قدمت من اليمن أتيت مسلم بن خالد الزنجي فسلمت عليه فلم يرد علي السلام وقال : أحدهم يجيئنا حتى إذا ظننا أنه يصلح أفسد نفسه ، قال : فسرت إلي سفيان بن عيينة فسلمت عليه فرد علي السلام وقال : قد بلغني يا أبا عبد الله ما كنت فيه وما بلغني إلّا خير فلا تعدّ...»⁵⁵⁶

وظل الشافعي في بغداد عاصمة دار الخلافة، واتصل بمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ولازمه ملازمة لصيقة، وقرأ كتبه وتلقاها عليه⁵⁵⁷، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق، وعلم أهل الحديث وعلم أهل الرأي⁵⁵⁸، ثم عاد إلى مكة ليعقد فيها أول مجالسه العلمية في الحرم المكي، والتقى به كبار العلماء في موسم الحج، واستمعوا إليه، وفي أثناء هذه الفترة التقى به الإمام أحمد بن حنبل وتتلّمذ عليه، وبدأت تظهر شخصية الشافعي ومنهجه الجديد في الفقه الذي هو مزيج من فقه أهل العراق وأهل المدينة : « ... قال الحميدي كنا نريد أن نرُد على أصحاب الرأي فلم نحسن كيف نرد عليهم حتى جاءنا الشافعي ففتح لنا ..»⁵⁵⁹ ، أنضجه عقل متوهج ، عالم بالقرآن والسنة ، بصير بالعربية وآدابها، خبير بأحوال الناس وقضاياهم ، قوي الرأي والقياس.

بعد أن أقام الشافعي في مكة نحواً من تسع سنوات استقام خلالها منهجه ، واستوت طريقته ورسخت قدمه، وزادت نفسه ثقة فيما ذهب إليه رحل إلى بغداد سنة 195هـ — 811م، ومكث هناك سنتين نشر بها مذهبه القديم ، وألف كتابه " الرسالة " الذي وضع به الأساس لعلم أصول الفقه⁵⁶⁰ ، والتف حوله العلماء ينهلون من علمه ، ويتأثرون

عليه ، فأعاد تلك المعاني بألفاظ أعذب منها ، فقال له هارون : كثر الله في أهل بيتي مثلك ...» . المصدر نفسه ص :

⁵⁵⁶ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 75

⁵⁵⁷ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 81

⁵⁵⁸ ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص :

⁵⁵⁹ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 96

⁵⁶⁰ ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : ص : 165

ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص :

بطريقته الجديدة التي استنتها و هناك أطلقوا عليه لقب ناصر الحديث⁵⁶¹، ولازمه كبار طلبة العلم هناك مثل أحمد بن حنبل وغيره⁵⁶².

ثم رجع الإمام الشافعي إلى مكة وأقام بها فترة قصيرة ، غادرها بعدها إلى بغداد للمرة الثالثة والأخيرة سنة 198هـ – 813م، لكنه لم يبق بها طويلا بعد أن صار له أتباع ومريدون ينشرون مذهبه ، فغادر بغداد إلى مصر ، وكانت منقسمة قسمين : فرقة مالت إلى مالك وناضلت عنه وفرقة أخرى مالت إلى قول أبي حنيفة وانتصرت له ، بالإضافة إلى تلاميذ الإمام المجتهد الليث بن سعد الذي وصفه الشافعي بأنه أفقه من مالك.

قدم الشافعي مصر سنة 199هـ – 814م تسبقه شهرته وتقدير العلماء له وإجلالهم لمنزلته ، وكان في صحبته من تلاميذه الربيع بن سليمان المرادي⁵⁶³ ، وأبو يعقوب البويطي⁵⁶⁴ ، المزني⁵⁶⁵ ، ثم بدأ في إلقاء دروسه بجامع عمرو بن العاص ، فمال إليه الناس ، وجذبت فصاحته وعلمه كثيرا من أتباع الإمامين أبي حنيفة ومالك.

⁵⁶¹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 7 . جاء فيه :

«... وصنف التصانيف ودون العلم ورد على الأئمة متبعا للأثر وصنف في أصول الفقه وفروعه وبعد صيته وتكاثر عليه الطلبة ... » . أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 107

⁵⁶² الذهبي : السير ، ج 10 ، ص : 50

لقد ظل أحمد شديد الإعجاب بالشافعي و يكثر الثناء على علمه و مصنفاته رغم ما عرف عنه من تحفظ و تشدد في أمر الكتب و الرواية التالية التي رواها أحد تلامذته تبين ذلك : « ... سألت أحمد بن حنبل قلت ما ترى لي من الكتب أن أنظر فيها لنفتح الآثار رأي مالك أو الثوري أو الأوزاعي فقال لي قولا أجلبهم أن أذكره لك فقال عليك بالشافعي فإنه أكبرهم صوابا وأتبعهم للآثار قلت لأحمد فما ترى في كتب الشافعي التي عند العراقيين أحب إليك أو التي عندهم بمصر قال عليك بالكتب التي وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ثم رجع إلى مصر فأحكم ذلك ثم فلما سمعت ذاك من أحمد وكنت قبل ذلك قد عزمت على الرجوع إلى البلد وتحدث الناس بذلك تركت ذلك وعزمت على الرجوع إلى مصر حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا أحمد بن روح ثنا محمد بن عبد الله الرازي قال سمعت ابن راهويه يقول كنت مع أحمد بمكة فقال تعال حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله فأراني الشافعي ... » . أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 97

⁵⁶³ * الربيع بن سليمان : راوية الشافعي ، مات بمصر سنة 270 هـ . الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص 98:

⁵⁶⁴ * البويطي : أحد تلامذة الشافعي ، حمل من مصر إلى بغداد في فتنة خلق القرآن ، و مات في سجنه .

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 98

⁵⁶⁵ * المزني : إسماعيل بن يحيى ، من كبار تلامذة الشافعي ، كان زاهدا عالما مناظرا ، مات بمصر سنة 264 هـ .

الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 97

وفي مصر وضع مذهب الجديد، وهو الأحكام والفتاوى التي استتبطها بمصر وخالف في بعضها فقهه الذي وضعه ببلاد العراق ، وصنف كتبه التي رواها عنه تلاميذه . و قد أتيح للشافعي ما لم يتح لغيره من الأئمة الكبار، من تدوين مذهب ونشره في كتب كتبها بنفسه . و قام تلاميذه بنشر مذهب في البلاد التي ارتحلوا إليها أو التي اتخذوها وطنًا ، و كان لهم أثر بالغ في نشر مذهب⁵⁶⁶ .

وظل الشافعي في مصر لم يغادرها ، يلقي دروسه في حلقاته التي استمرت في الاتساع حتى توفي في رجب 204 هـ — 819 م⁵⁶⁷ .

وقد لقي الشافعي من التكريم و التبجيل من طرف علماء أهل السنة ما لم يلقه إلا القليل ، إذ استطاع أن يكون كلمة إجماع لما حققه من تسوية منهجية للصراع الذي كان محتدما داخل هذا الاتجاه بين أهل الرأي و أهل الحديث ، و لما حققه من تطوير أصول النظر و الاستنباط من الكتاب و السنة و لما فتح للعقل المسلم من أساليب التفكير في النصوص و فقه الآثار . و قد اتفق العلماء من أهل الفقه والأصول والحديث واللغة على أمانته وعدالته وزهده وورعه وتقواه وعلو قدره ، وقدرته الفذة على المناظرة و الحجاج ، حتى أثرت عنه هذه الكلمة : "ما ناظرت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان .. وما ناظرت أحدا إلا ولم أبال يبين الله الحق على لساني أو لسانه"⁵⁶⁸ .

⁵⁶⁶ ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص :

⁵⁶⁷ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 68

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 165

⁵⁶⁸ أدخل الشافعي يوما إلى بعض حجر هارون الرشيد ليستأذن له ومعه سراج الخادم فأقعه عند أبي عبد الصمد مؤدب أولاد هارون الرشيد فقال سراج للشافعي يا أبا عبد الله هؤلاء أولاد أمير المؤمنين وهذا مؤدبهم فلو أوصيته بهم فأقبل عليه فقال :

« ... ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما تستحسنه والقيح عندهم ما تكرهه ، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ثم روه من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ... »

ابن الجوزي : الصفة ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص : 152

وبلغ من إكبار أحمد بن حنبل ، وهو إمام أهل الحديث ، للشافعي أنه قال حين سأله ابنه :
أي رجل كان الشافعي ، فإني رأيتك تكثر الدعاء له؟ : « كان الشافعي كالشمس للنهار
وكالعافية للناس ، فانظر هل لِهَذَيْنِ من خَلْفٍ أو عنهما من عَوْضٍ !! ... »⁵⁶⁹.

علاقته بالدولة :

وكما لقي الشافعي التكريم من الفقهاء و أهل الحديث ، فقد لقي احتراماً كبيراً من طرف
رجال الدولة العباسية ؛ سواء في بغداد أو في مصر ، و رغم أن الروايات التي وصفت
حياته لا تسعفنا في تبيان كامل لطبيعة علاقته بالدولة ممثلة في رجالها ، إلا أن بعض
الإشارات تمنحنا إمكانية استبصار نوعية هذه العلاقة ، إذ لا نجد أي إشارة لمضايقة تعرض
لها الشافعي أو امتحان ما ، عدا التهمة التي نقلته من اليمن مقيداً إلى بغداد عهد الرشيد و قد
تبين بطلانها بل كانت سبباً في علو اسمه و ارتفاع شأنه ، حيث مكنته من استعراض
قدراته العلمية أمام الرشيد و حاشيته و أمام عمدة المذهب الحنفي ؛ محمد بن الحسن الشيباني
. وقد ظل طيلة عهد الرشيد معزراً ينتقل بين مكة و بغداد في طلب العلم و نشره ، أما بعد
وفاة الرشيد فقد سبقت الإشارة في ترجمة أحمد كيف أنه : «... قال لأبي عبد الله : إن أمير
المؤمنين — يعني محمداً الأمين — سألتني أن التمس له قاضياً لليمن ، وأنت تحب الخروج
إلى عبد الرزاق فقد نلتَ حاجتكَ وتقضي بالحق ...»⁵⁷⁰. و هذا الخبر يمكننا من استنباط
المودة التي كانت بين الشافعي والخليفة و التي مكنته من الاقتراح عليه في أمور هي من
خصوصية الدولة و مسؤولياتها .

ولم بقدر للشافعي أن يعيش حتى يشهد تفاصيل محنة خلق القرآن و لا نستطيع أن نحس
ما كان يمكن أن يتعرض له فيها .

إننا في حال افتقارنا للروايات الصريحة التي تكشف آراء أو مذاهب الفقهاء في مسألة
السلطة و مسألة العلاقة بالسلطان نضطر للجوء إلى استثمار بعض النصوص التي قد
تكون مبطنّة بمعاني ما أنا بصدد البحث فيها ، و قد جاء لدى البيهقي في كتابه " مناقب
الشافعي " رواية ساقها الشافعي عن الفضيل بن عياض جاء فيها : « ... مر الحجاج بن
يوسف بالحسن البصري فقال : يا أبا سعيد مالك لا تأتينا ؟ فقال له : و ما أصنع بك ؟ إنَّ أنا

⁵⁶⁹ ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص : ص : 164

⁵⁷⁰ الذهبي : سير ، المصدر السابق ، ج 11 ، ص : 224

أَتَيْتُكَ فَأَدْنَيْتَنِي فَتَنَّتَنِي ، و إنْ أَنْتَ أَقْصَيْتَنِي غَمَمَتَنِي ، و ما عندي من الدنيا شيء أخاف عليه ، و لا عندك من الآخرة ما أطلب ، فعلى أي حال أجيبك ؟ ... »⁵⁷¹. و النص واضح في عرضه لموقف فئة من الفقهاء التي تجنبت الاقتراب من رجال الدولة ؛ و إن كان النص يروي خبراً حدث في أيام الدولة الأموية ؛ إلا أن استعادته من طرف فقيه و آخر لها دلالاتها ، لأنها تُشير إلى مباركة و تأييد لمضمونها و فحواها ، لولا أن هذه الرواية تعود للفضيل بن عياض الذي أوضحت موقفه في الفئة التي حذت سلوك المفاصلة مع الدولة العباسية أكثر مما هي للشافعي .

ولقد كان لنسب الشافعي و أصله القرشي دور في الهدوء الذي طبع علاقته بالدولة ، هذا الامتياز الذي يكاد ينفرد به الشافعي من بين كبار الأئمة و الذي أفصحت عنه ما جاء في تفاصيل محنته على عهد الرشيد و الذي لم يفوت تلامذته و المعجبين به من كتاب التراجم من التنويه به .

لقد قبل الشافعي إكرام الرشيد له و أخذ منه ما أعطاه من مال ، و إن كان قد فرقَه على الناس فإن ذلك يدخل في صفة المروءة و الكرم الذين عرف بهما الشافعي . و قد جاءت روايات متعددة عن جملة من عطايا الرشيد له لم يرد فيها أي اعتراض منه على أخذها أو امتعاض من قبولها ، بل لا يرد فيها أنه أخذها خوفاً ، و لا يبدو فيها أي إشارة لتردد أو اضطراب أو شك كالذي يعتري بعض من يقبل صلات الخلفاء خوفاً و رهبة و تقية . انه ذاته المبدأ الذي قبل به بداية قضاء اليمن في شبابه لم يتغير ، ثم إن الأخبار القليلة التي وصفت تفاصيل محنته مع الرشيد لا تبدي أي تشدد و لا امتعاضاً منه في طبيعة علاقته مع أعوان الرشيد و عماله ؛ خلاف ما سبق في سيرة أحمد ، حيث لا يخفي أحمد تذرره و كراهيته لمجرد حضور رجال الدولة في مجلسه أو بيته . و لقد كان الشافعي في مصر محل إجلال من طرف والي مصر و غيره من موظفي الدولة ؛ بحيث كانت علاقته الجيدة بهم تسمح له بالاستعانة بهم في الأمور التي تستدعي التأديب و العقوبة ، و قد حدث أن استقرّه بعض العوام : « ... فقال : اذهبوا به إلى عبد الواحد — وكان على الشرطة — فقولوا له : يقول لك أبو عبد الله إعتقل هذا إلى أن أنصرف ... »⁵⁷²

⁵⁷¹ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : مناقب الشافعي ، ت السيد أحمد صفر ، ط 1 ، ج 2 ، مكتبة دار التراث ، سنة

1970 ص : 160

⁵⁷² البيهقي : المناقب ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 207 — 208

لم يكن الشافعي في طبيعته الشخصية يشبه سفيان الثوري و لا تلميذه أحمد اللذين يجسدان التشدد و الصلابة و النفور الكلي في مسألة العلاقة مع رجال الدولة ، ولم يكن كذلك يشبه أستاذه سفيان بن عيينة و لا أبا يوسف القاضي في خضوعهما الأقرب للخنوع و التطامن ، لقد كان من طبيعة أخرى ، ميزتها الثقة بنفسه و الاعتداد بنسبه و بعلمه ، طبيعة تجسد شخصية الأعرابي في مضاربه و خيامه بعيدا عن سلطة أي دولة ، و لعل فترة إقامته في مضارب بني هذيل بالبادية و تشعبه بتراث القبيلة الأدبي أثرت في تركيبته الشخصية ، إذ كان بعيدا عن المطامح المادية ؛ مقتصرًا على ما يكفيه ، و قد صرَّح مرة لأحد طلبته قائلاً : « ... لقد أنستُ بالفقر حتى لا أستوحشُ منه ... »⁵⁷³ . و قد نصحه أحد محبيه لمَّا وردَ مصر وأراد المقام بها قال له : « ... إن عزمت أن تسكن البلد فليكن لك قوت سنة و مجلس من السلطان تتعزَّرُ به فقال له الشافعي : يا أبا محمد من لم تُعزِّه التقوى فلا عزَّ له ، و لقد وُلِدْتُ بغزة و رُبِّيتُ في الحجاز وما عندنا قوت ليلة و ما بتنا جياعا ... »⁵⁷⁴ .

و تصور الروايات بعض لحظات حياته الأخيرة و هو يستبصر مصائر بعض تلامذته و أصحابه و مآلات أمورهم ، فيخبر تلميذه المزني بأنه سيتولى القضاء ، من غير أن يصدر عنه أي اعتراض على ذلك و لا حتى النصيح بتجنبه⁵⁷⁵ .

إذن لقد فضل الشافعي الانقطاع لبناء مذهب الذي استنفد كل وقته و طاقته فلم يعد بعد تجربته في قضاء اليمن إلى الدخول في أي عمل للدولة ، و قد خبر ما يستنفده القضاء من جهد لمن يريد القيام بالحق و العدل و ما يصنعه من عداوات . و لم يكن ذلك عن تحفظ في مسألة العمل للدولة ؛ إذ سبق الخبر الذي أشار فيه على أحمد بولاية قضاء اليمن ، و الذي يعني انه لم يكن معترضا على الأمر من حيث المبدأ . ثم أن وجوده في مصر رغم أنه كان منقطعا للعلم والإفتاء إلا أنه لم يكن بعيدا عن الأحداث التي يحفل بها البلد ، و تذكر بعض الروايات علاقة عون ومساعدة بين الشافعي و والي مصر ؛ خاصة في الشؤون المتعلقة بأمر الدين و الصراع المذهبي . و بهذا استحق إدراجه في الصنف المجامل .

⁵⁷³ المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 149

⁵⁷⁴ الأشعراني : المصدر السابق ، ص 47. البيهقي : المناقب ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 168

⁵⁷⁵ البيهقي : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص : 136

الفصل الثالث

الطاعة اعتقاداً والمخاللة سلوكاً :

- توطئة :

جاء لدى الفيروزآبادي أن : الخلة : بكسر الخاء المُصَادَقَةُ و اللِّخَاء ، و الخَلِيلُ ؛ الصَّادِقُ وَمَنْ أَصْفَى المَوَدَّة⁵⁷⁶ . و سأستعمل هذه المفردة لوصف نوع من العلاقة التاريخية التي سار عليها بعض من فقهاء السنة في معاملة رجال الدولة في هذا العصر الذي نبخته .

إن استقراء النصوص و الآثار و الروايات و الأخبار التي تحكي علاقة الفقهاء برجال الدولة منذ بدايات العصر الأموي تجعلنا نقر بأن فكرة اقتراب الفقيه من دوائر السلطة فكرة غير مستحبة لدى عموم الفقهاء ؛ يلفها الشك و الارتياب ، و إحساس بالنفور يبدو راسخاً في ضميرهم ، حتى الذين قبلوا الانخراط في سلك حاشية الحكام و تولوا وظائف للدولة ، مشاعر كانت تدفع أغلبهم إلى محاولة تبرير خياراتهم ، حيث يبدو أن حالة الاشتباه بين الديني والسياسي قد رسخت و توطدت و اخترقت لاوعي الثقافة الدينية ، و تحولت إلى قناعة عميقة تجعل من الذين ركنوا إلى ظل الدولة رغبة أو رهبة في وضع المدافع المبرر لمسلكته .

إن استقراء سريعاً لوضعية الفقهاء العاملين للدولة العباسية في هذا العصر و وضعية الكتاب و الإداريين يظهر لنا حالة التخرج لدى جل الفقهاء بخلاف الآخرين ، و ذلك عائد لاختلاف ثقافة كليهما و عائد إلى أن الفقهاء من هذا الصنف لم يحسموا الأمر على مستوى الثقافة و القيم ؛ إذ احتفظوا بها كما تلقوها عن السلف و حكموا على أنفسهم بمقتضاها . لأجل هذا حفلت المصادر بعبارات و اعترافات تفصح عن حالة الانقسام هذه بين السلوك و الاعتقاد صرح بها بعضهم في حالات التولية أو في بعض ملابسات العمل أو في حالات العزل أو عند الموت . إن الحالة التي نالت استحساناً لدى رجال الدين و رسخت كخلقية سامية محببة هي حالة اعتزال السلطة و تفضيل الوقوع في الابتلاء و المحنة على مشاركتها الإدارة و الحكم ورسخ في الثقافة الدينية تبجيل أولئك الممتحنين و الشهداء ، لذلك فليس أمام

⁵⁷⁶ مجد الدين الفيروزآبادي : القاموس ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 370

من تشبع بهذه الثقافة وعاش نماذجها في شيوخه إلا الاعتذار عن خروجه عن القاعدة و تقديم مبرراته والنصوص وافرة في هذا الصدد .

لقد كان الفقر و الديون و كثرة العيال و صعوبة الحياة و ضغط العائلة أهم المبررات التي قدمها هؤلاء ، إضافة إلى رغبات أخرى كاستغلال السلطة و النفوذ في إبراز و تكريس مذهب ما دون آخر في حمأة الصراع المذهبي الذي شهده القرن الثاني و ما تلاه ، ثم ما حصل لبعض العائلات من توارث لمنصب ما غدا سمة لها و علامة على شرفها .

تكاد تنحصر الوظائف التي تولاها هذا الفريق من الفقهاء في القضاء و المظالم و الصدقات و العشور و بيت المال و الشرطة بحسب ما يستحدث في جهاز الدولة من وظائف لها علاقة بأمور الدين أو المال العام .

و تجدر الإشارة إلى حقيقة أن أغلب الروايات التي أتيح لي التعامل معها في هذا الموضوع و التي تصف مواقف هذا الصنف القريب من الدولة أو الموظف فيها ، جلها تحكي الوجه المشرق و المواقف الحازمة وإرادة تحقيق تعاليم الإسلام في أرض الواقع ، و كأن بعضا من الحدة و الصرامة تعويضا نفسيا عن ما يمكن أن يعتلج في الضمير من مغبة عملهم ، و إن لم تخلو الروايات من تعريض بنوع آخر من الفقهاء ارتضى خضوعا كليا يقرب من الخنوع تجلى في الحرص على خدمة رغبات هذا الخليفة أو ذاك و أعوانه ، الذي بلغ حد اختلاق أحاديث نبوية و تأويلات في القرآن ، و إصدار فتاوى تهدف إلى إضفاء صبغة الشرعية على بعض السلوكات الشخصية التي تدور في القصور من لهو و ترف و مجون ، أو قرارات تمس الشأن العام و قضايا الأمة ؛ خاصة المتعلقة بالجانب السياسي ؛ من قبيل الفتاوى التي تبيح تصفية الخصوم و نقض العهود ، الأمر الذي كرس لدى الفريق الذي ارتضى المفاصلة أحكامه و رؤاه .

ومن أشهر الفقهاء الذين تولوا للمنصور عبد الله بن شبرمة⁵⁷⁷ : « ... كان قاضيا لأبي جعفر على قضاء الكوفة ... »⁵⁷⁸ ، و كان يقاسمه فيه ابن أبي ليلى⁵⁷⁹ ؛ حيث كان

⁵⁷⁷ * عبد الله بن شبرمة : أحد أعلم الكوفة ، تولى القضاء للمنصور . توفي سنة 144هـ . الذهبي : السير ، المصدر

السابق ، ج 6 ، ص : 349

⁵⁷⁸ الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 216

⁵⁷⁹ * ابن أبي ليلى : محمد بن عبد الرحمن ، من أصحاب الرأي ، و تولى قضاء الكوفة لمدة 33 سنة لبني أمية ثم لبني العباس ولد سنة 74هـ و توفي بالكوفة سنة 140هـ . ابن خلكان : الوفيات ، ج 4 ، ص ص : 179 - 180

ابن شبرمة على الضياع و ابن أبي ليلى على قضاء السوق و داخل الكوفة، و وصف ابن شبرمة بأنه كان : « ... عَفِيفًا صَارِمًا عَاقِلًا فَقِيهًا يُشَبِّهُ النَّسَّاکَ ... »⁵⁸⁰ ، و كان عيسى بن موسى والي الكوفة لا يقطع أمرا دون مشورة ابن شبرمة ، و كان عيسى وليا للعهد بعد المنصور فأراد أبو جعفر تدبير مكيدة له حتى يزيحه عن ولاية العهد فدفع له أحد مناوئيه السياسيين ليقنتله فأشار عليه ابن شبرمة أن يحبسه و يكتب إليه انه قتله ففعل ذلك فلما استيقن المنصور من قتله حرض عليه أهل ذلك الرجل و أراد أن يقتص منه فأخرجه لهم حيا فلما اسقط فيد المنصور غضب و قال : « ... قَتَلَنِي اللهُ إِنَّ لَمْ أَقْتُلِ الْأَعْرَابِي ، عَيْسَى بْنُ مُوسَى لَا يَعْرِفُ هَذَا ... »⁵⁸¹ ، فاختفى ابن شبرمة و فر إلى خراسان و ظل فيها حتى مات⁵⁸² .

وقد أفصح ابن شبرمة عن رأيه في مسألة الخروج عن الحاكم بمناسبة رده على عمرو بن عبيد لما كتب إليه : « يحثه على الجهاد والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فكتب ابن شبرمة إليه.

وَالْقَائِمُونَ بِهِ لِلَّهِ أَنْصَارُ	الْأَمْرُ يَا عَمْرُو بِالْمَعْرُوفِ نَافِلَةٌ
وَلِللَّائِمُونَ لَهُ يَا عَمْرُو أَشْرَارُ	وَالتَّارِكُونَ لَهُ عَجْزًا لَهُمْ عُذْرُ
عَلَى الْخَلِيقَةِ إِنَّ الْقَتْلَ إِضْرَارُ» ⁵⁸³	الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لَا بِالسَّيْفِ تُشْهَرُ

— البحر البسيط —

و هو ذاته المذهب الذي استقر عليه أهل السنة في هذه المسألة .

أما ابن أبي ليلى فقد مكث في القضاء طويلا ، و يحكي عن نفسه قائلاً : « ... تغديت عند أبي جعفر ، فأتى بصَحْفَةٍ مُصَبَّاةٍ فِيهَا مِثَالُ الرَّأْسِ ، فَقَالَ لِي : خُذْ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ هَذَا ، فَجَعَلْتُ أَضْرِبُ بِيَدِي .. فَقَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ تَدْرِي مَا تَأْكُلُ ؟ ، قُلْتُ : لَا ، قَالَ : هَذَا مَخٌّ

⁵⁸⁰ الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 216

⁵⁸¹ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 11 ، ص : 196

⁵⁸² الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 349

⁵⁸³ محمد بن خلف وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ص : 92

الثنيتان مَعْقُود بالسُّكَّر .. » ، فلما خرج ابن أبي ليلى قال المنصور : يا ربيع ، لقد أكل الشيخ عندنا أكلة لا يُفْلَح بعدها أبدا .⁵⁸⁴

وقضى للمنصور أيضا نوح بن أبي مريم مرتين و كان تلميذا لأبي حنيفة ، فكتب إليه كتابا ينهاه فيه عن الدخول و يعظه ، ثم قضى أيضا بعد وفاة أبي حنيفة و اشتهر بشدته على أهل البدع⁵⁸⁵ . و استقضى المنصور بدمشق الفقيه يحيى بن حمزة⁵⁸⁶* . و كان الفرّج بن فضالة⁵⁸⁷* عاملا على بيت المال في عهد المنصور ؛ فروي أن المنصور مر يوما راكبا والفرّج بن فضالة جالس ، فوقف الناس قياما للمنصور ، و لم يقم الفرّج ، فغضب المنصور وقال له : ما يمنعك من القيام حين رأيتني ؟ قال : خفت أن يسألني الله لم وقفت ؟ و يسألك : لم رضيت ؟ و قد كرهه رسول الله ، فبكى المنصور و قربه و قضى حوائجه⁵⁸⁸ . و عمل عافية بن زيد⁵⁸⁹* للمهدي على القضاء سنة 161هـ — 778م و حضي به حتى وصف بأنه كان كثير الدخول عليه و المجالسة له ، فدخل عليه في أحد الأيام و طلب أن يعفيه من القضاء و علل طلبه بفساد الناس و استئثار الرشوة فأعفاه⁵⁹⁰ .

و قضى له أيضا محمد بن عبد الله بن علانة⁵⁹¹* على قضاء الجانب الشرقي ببغداد ، و كان ابن علانة صديقا لسفيان الثوري فاستأذن عليه مرة يزوره فقال له سفيان : « ... يا ابن علانة ألهذا كتبت العلم ؟ ... » و عاتبه عتابا قاسيا⁵⁹².

و كان عثمان بن طلحة⁵⁹³ « ... محمود السيرة و جميل الذكر... » و قد عرض عليه القضاء فامتنع ثم قبل خوفا من التهديد و رفض أخذ رزقه منه مدة عشرة أشهر حتى قدم

⁵⁸⁴ المصدر نفسه ، ج 3 ، ص ص : 142 — 143

⁵⁸⁵ القرشي : الجواهر ، المصدر السابق ، ص : 177

⁵⁸⁶ * يحيى بن حمزة : كان محدثا تولى قضاء دمشق بأمر من المنصور ، مات سنة 197 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 469

⁵⁸⁷ * الفرّج بن فضالة : من أهل الشام ، توفي سنة 179 هـ . ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 330

⁵⁸⁸ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص ص : 393 — 394

⁵⁸⁹ * عافية بن يزيد : من أصحاب أبي حنيفة ، تولى لقضاء للمهدي . ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص

330:

⁵⁹⁰ المصدر نفسه ، ج 12 ، ص : 309

⁵⁹¹ * ابن علانة : من أهل حران ، قدم بغداد فولاه المهدي القضاء . ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص :

323

⁵⁹² الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 389

المهدي حاجا فسأله أن يعزله ، فقال المهدي : « ... ليس من ذلك سبيل ، فقال عثمان : يا أمير المؤمنين و الله لو علمت أن ملك الروم يُجِيرُنِي و لا يَمْنَعُنِي من الصلاة لاسْتَجَرْتُ به ، فقال له المهدي و إِنَّكَ لَعَلَى ما قُلْتَ ؟ قال : و الله لَعَلَى ما قُلْتُ ، قال : فَإِنِّي قَدْ عَزَلْتُكَ فاقبض ما لك عندنا من الرِّزْق ، قال : ما لي عنه غِنَى و لكنه كان لي نُظَرَاء و أَشْبَاه يكرهون هذا العمل ما أكرهه ، ثم أَكْرَهُوا عليه فلمَّا عَزَلُوا كرهوا العزل ، فلم يكن لهم في كراحتهم العزل إلا هذا الرزق ، فلذلك كرهت أخذه...»⁵⁹⁴.

و قد ولي القاسم بن معن⁵⁹⁵ قضاء الكوفة بعد شريك ، و لم يأخذ عن القضاء أجرا⁵⁹⁶. و وصف حفص بن غياث بالزهد و الفضل و يذكر عنه أنه قال لرجل : « ... أتريد أن تكون قاضيا ، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينه فيقتلعها خير له من أن يكون قاضيا ... » و قال : « ... لو رأيت أنني أُسْرُ بما أنا فيه لهلكت ... » . و قال : « ... إِنَّ من صُنْعِ الله للقاضي أن يموت على غير قضاء ، فمات على غير القضاء ... »⁵⁹⁷ ، و قد بكى ولده عليه عند وفاته خوفا عليه مما دخل فيه من القضاء ، فرد عليه حفص بأنه لا يخشى ذلك لأنه لم يفارقه الحق في حكم قضاه ، و قد حدث أن طلبه الخليفة و هو في مجلس القضاء بين الخصماء فلم يقم حتى انتهى من عمله « .. و مرض خمسة عشر يوما فلم يأخذ أُجْرَتَهَا ... »⁵⁹⁸.

و حدث أن كتب الواقدي رقعة إلى المأمون يشكو له فيها غلبة الدين و قلة المال ، فوقع المأمون على ظهرها : « ... فيك خِلَتَان ؛ السَّخَاء و الحياء ، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما مَلَكَتَ و أما الحياء فهو الذي منعك من إِطْلَاعِنَا على ما أنت عليه ، و قد أمرنا بكذا و كذا ،

⁵⁹³ عثمان بن طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان بن عمرو بن كعب التيمي: من أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولي قضاء المدينة وكان محمود السيرة جميل الذكر وورد بغداد في خلافة المهدي. المصدر نفسه ، ج 11 ، ص: 275

⁵⁹⁴ المصدر نفسه ، ص : 276

⁵⁹⁵ القاسم بن معن : الفقيه المجتهد قاضي الكوفة ومفتيها في زمانه أبو عبد الله الهذلي المسعودي الكوفي ولد بعد سنة

100هـ توفي سنة 175هـ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 190

⁵⁹⁶ وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 177

⁵⁹⁷ وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 186

⁵⁹⁸ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 189

فان كنا أصبنا إرادتك في بسط يدك فان خزائن الله مفتوحة ...»⁵⁹⁹. ثم تولى القضاء للمأمون أربع سنين حتى مات سنة 211 هـ — 826م⁶⁰⁰.

و تولى بشر بن الوليد⁶⁰¹ * القضاء للمأمون و المعتصم و المتوكل ، و وصفه الذهبي و هو يزكيه بأنه : « ... العالم العلامة المحدث الصادق ، قاضي العراق ... »⁶⁰² و قد حصلت له محنة عهد المعتصم ، سببها اعتراضه عن القول بخلق القرآن فحبسه المعتصم بداره و وكل ببابه من يحرسه و لم يتم إطلاقه الا عهد المتوكل⁶⁰³. و قد وصف بالعدل و تحري الحق و صلابة الدين ، فوصفه أحد الشعراء بقوله :

نَامَ الْقَضَاءُ عَنِ الْأَنَامِ وَعَيْنُ بَشَرٍ لَمْ تَتَمَّ⁶⁰⁴

— البحر البسيط —

و تولى أبو إسحاق الزهري⁶⁰⁵ قضاء بغداد فبقي سنة في منصبه ثم صرفه الواثق لامتناعه عن إقراضه أموال اليتامى و قال له بحدة : « ... لا والله و لا حبة ، فعزله ، و رده إلى قضاء الكوفة ... »⁶⁰⁶. و يروى عن أحمد بن محمد بن عاصم⁶⁰⁷ أنه تولى قضاء أصبهان ثلاث عشرة سنة ، قال : « ... وصل إلي منذ دخلت في إلى أصبهان من دراهم القضاء زيادة على أربع مائة ألف درهم ، لا يحاسيني الله يوم القيامة أني شربت منها شربة ماء أو لبست منها ... » . و كان أحمد هذا من مريدي أبي تراب النخشي الصوفي يطلب عنده علوم التصوف ، فكان أبو تراب كثيرا ما يداعبه و يقول له : « ... كم تشقى لا يجيء منك إلّا قاضي ، وكان بعدما دخل القضاء إذا سأل في مسائل الصوفية يقول : القضاء و الدنيا و

⁵⁹⁹ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 19

⁶⁰⁰ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 457

⁶⁰¹ * بشر بن الوليد : من أصحاب أبي حنيفة ، ولي القضاء ببغداد و توفي بها في عهد المتوكل .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 356

⁶⁰² الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 673

⁶⁰³ المصدر نفسه ، ج 10 ، ص : 674

⁶⁰⁴ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 82

⁶⁰⁵ أبو إسحاق الزهري إبراهيم بن إسحاق بن أبي العنيس القاضي الكوفي وولي قضاء مدينة المنصور بعد أحمد بن محمد بن سماعه وكان ثقة خيراً فاضلاً ديناً صالحاً . المصدر نفسه ، ج 13 ، ص : 199

⁶⁰⁶ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁶⁰⁷ أحمد بن محمد بن عاصم سكن بغداد وحدث بها كان ثقة من أهل الفهم والأدب عالماً بالنسب مات في سنة 333هـ

المصدر نفسه ، ج 13 ، ص : 433

الكلام في علم الصوفية مُحال...»⁶⁰⁸. و كان أحمد بن بديل الكوفي⁶⁰⁹ يسمى راهب الكوفة لعبادته و زهده ، فلما تولى القضاء قال : « ... خُذْتُ عَلَى كِبَرِ السِّنِّ ... »⁶¹⁰.

لقد استطاع هؤلاء الفقهاء الاحتفاظ بقدر ما من الاستقلالية في إدارة ما تحملوه من وظائف و أعمال في وجه السلطة و الضغط و الإكراه رعاية للشرعية التي كانوا يعتبرون أنفسهم نوابا عليها ، لكن ما كان ذلك ممكنا لو لم يحدث نوع من غض الطرف إن لم نقل دعما مارسه بعض من الخلفاء و رجال الدولة حتى تحفظ الدولة وجهها الإسلامي في وجه الانتقادات التي كانت ترفعها المعارضة بجميع أطيافها .

ومن الذين تولوا وظائف للدولة و تورطوا في المخالفات الشرعية و الخضوع لرغبات وأهواء رجال الدولة غياث بن إبراهيم ، فقد وفد على المهدي في عشرة من المحدثين ، و كان المهدي يحب اللعب بالحمام و يشتهي فادخل عليه غياث فقبل له حدث أمير المؤمنين فحدث بحديث أبي هريرة « لا سبق إلا في حافر أو نصل » فزاد غياث في الحديث : و لا جناح فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم ، فلما قام قال المهدي : « ... أَشْهَدُ أَنَّ قَفَاكَ قَفَا كَذَّابٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَ أَنَا إِسْتَحَلَلْتُ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ بِالْحَمَامِ فَذُبِحَتْ وَ قَالَ : مَنْ أَجْلَاهَا كَذَبَ هَذَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ .. فَمَا ذَكَرَ غِيَاثًا بَعْدَهَا ... »⁶¹¹.

و اتهم أبو البختری القاضي⁶¹² * بأنه يضع الحديث عن الثقات و هذه تهمة كبيرة تمس أمانته العلمية و الخلقية كإنسان فكيف و هو قاضي؟⁶¹³ .

و قد حكى عبد الرحمن بن مسهر⁶¹⁴ عن نفسه قال : ولاني أبو يوسف القاضي قضاء جبل⁶¹⁵ فانحدر الرشيد إلى البصرة ، فسألت من أهل جبل أن يثبوا علي ، فوعدوني أن

⁶⁰⁸ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁶⁰⁹ أحمد بن بديل الكوفي كان من أهل العلم والفضل ولي قضاء الكوفة قبل إبراهيم بن أبي العنيس ونقل أيضاً قضاء همذان وورد بغداد وحدث بها . توفي سنة 258 هـ . الذهبي : الميزان ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 85

⁶¹⁰ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁶¹¹ السيوطي ، تاريخ ، المصدر السابق ، ص : 275

⁶¹² * أبو البختری : وهب بن وهب ، من أهل المدينة ثم نزل الشام و قدم بغداد فولاه الرشيد القضاء ، توفي سنة 200 هـ .

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 332

⁶¹³ الحنبلي : الشذرات ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص : 360

يفعلوا ، فلما قرب تفرقوا وأيست منهم ، فسرحت لحيّتي وخرجت فوقفت ، فوافى أبو يوسف مع الرشيد في الحراقة ، فقلت : يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل ، قد عدل فينا وفعل ، وجعلت أنثي علي نفسي ، فطأطأ أبو يوسف رأسه وضحك ، فقال له هارون : مم ضحكّت ؟ فأخبره فضحك حتى فحَصَ برجليه ، ثم قال : هذا شيخ سخيّف سفلة فاعزله فعزلني ، فلما رجع جعلتُ أختلّف إليه وأسأله قضاء ناحية فلم يفعل ، فحدثت الناس عن الشعبي أنّ كُنيّة الدّجال أبو يوسف ، فبلغه ذلك فقال : هذه بتلك ، فحسبُك فصرّ إليّ حتى أولّيك ناحية ، ففعل وأمسكت عنه⁶¹⁶.

⁶¹⁴ عبد الرحمن بن مسهر: كان على قضاء الجبل ، يوصف بخفة العقل ، و لم يسلم من قدح المحدثين . الذهبي : الميزان

، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 590 — 591

⁶¹⁵ الجبل : ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمدان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليّة والكور

العظيمة . الحموي : المعجم ، ج 2 ، ص : 99

⁶¹⁶ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

شريك بن عبد الله النخعي القاضي⁶¹⁷:

لا نملك معلومات وافرة حول طفولته عدا النص الذي دونه صاحب " أخبار القضاة " و الذي جاء فيه أن شريك مر بأحد معارفه فجلس إليه فسأله : يا أبا عبد الله من أدبك قال : أدبتني نفسي والله ، ولدت ببخارى من أرض خراسان ، فحملني ابن عم لنا حتى طرحني عند بني عم لي بنهر صرصر⁶¹⁸ ، فكننت أجلس إلى معلم لهم تعلق بقلبي يعلم القرآن ؛ فجئت إلى شيخهم فقلت : يا عماء الذي كنت تجري علي ها هنا أجره علي بالكوفة أعرف بها السنة والجماعة وقومي ، ففعل ؛ قال فكننت بالكوفة أضرب اللبن وأبيعه فأشتري دفاتر و طروساً فأكتب فيها العلم والحديث ، ثم طلبت الفقه⁶¹⁹.

ورغم فقره و قلة ذات يده إلا أنه كان يتمتع بهمة عالية و طموحا كبيرا لم يكن يخفى على من يراقب أحواله ، فقد جاء في بعض الأخبار أن أعرابي رأى أم شريك وهي على حمار وشريك صبي بين يديها ، فقال: إنك لتحملين جندلة من الجنادل⁶²⁰.

والنص الأول صريحا في بيان بعض السمات التي تميز بها شريك و عرفت عنه و ظل متخلقا بها طيلة حياته وهي : التزامه بمنهج السنة و الجماعة من حيث العقيدة ، و يذهب

⁶¹⁷ العلامة الحافظ ، القاضي أبو عبد الله النخعي ، أحد الأعلام ، ولد سنة 95 هـ . وقيل سنة 96 هـ ، ببخارى من أرض خراسان، ثم انتقل إلى الكوفة و أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز ، و مات بالكوفة في أول شهر ذي القعدة سنة 179 هـ ، عاش ثلاث وثمانين سنة . أنظر

ابن خلکان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 464. الشيرازي : الطبقات ، المصدر السابق ، ص : 86 . وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 150 . ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 378 الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 202. ابن الأثير : الكامل ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 97 . وفيه أن موته كان سنة 177 هـ .

⁶¹⁸ نهر صرصر: صرصر قريتان في بغداد صرصر العليا و صرصر السفلى وهما على ضفة نهر عيسى وربما قيل نهر صرصر فنسب النهر إليهما وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين . الحموي : المعجم ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 401

⁶¹⁹ وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 150 — 151

⁶²⁰ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 206

في مسألة التفضيل بين الصحابة إلى تأكيد أفضلية الإمام علي كذا تعصبه الشديد للعنصر العربي كما سيأتي في السطور التالية .

وظل شريك في الكوفة يتلقى علوم الدين من أفواه علمائها ، و يملأ واعيته من تاريخ و مآثر قومه بني النخع ، معجبا بالجو العلمي الذي كانت تعج به الكوفة ، و يستعيد ما كانت عليه في الماضي : « ... قال شريك .. عن محمد بن سيرين ، قال : أدركت بالكوفة أربعة آلاف شاب يطلبون العلم ... »⁶²¹ . و مضى في طريق العلم يشحذ ذاكرته و يملأها على طريقة أهل عصره في عدم الاتكال على الكتابة و لا على الصحف ، خشية التصحيف و ضياع العلم ، و قد حدث أن حمل مائة حديث عن بعض المحدثين و كان معه سفيان الثوري يسمع ، فلما فرغ قال له سفيان : أرني قرطاسك ، فأعطاه إياه فخرقه ، قال شريك : « ... فرجعت إلى منزلي فاستلقيت على قفائي ، فحفظت منها سبعة وتسعين حديثا ، وحفظها سفيان كله ... »⁶²² .

و قد روى ابنه أنه كان عنده عن جابر الجعفي و هو أحد كبار المحدثين عشرة آلاف مسألة وأخذ عن ليث بن أبي سليم : عشرة آلاف مسألة⁶²³ . و قد استطاع شريك أن يحيط بعلم الكوفة حتى وصف بأنه كان أعلم بحديث بلده من سفيان الثوري ، و قد قال عيسى بن يونس فيه : ما رأيت أحدا أروع في علمه من شريك⁶²⁴ . و قال محدث آخر⁶²⁵ : أعلم أهل الكوفة سفيان ، وأحضرهم جوابا شريك⁶²⁶ . و شهد له ابن المبارك بقوله : شريك أعلم بحديث بلده من الثوري . فذكر هذا لابن معين ، فقال : ليس يقاس بسفيان أحد لكن شريك أروى منه في بعض المشايخ . و ترفعه روايات أخرى إلى مصاف كبار رجال العصر من علماء المسلمين ؛ فقد ذكر أحد المحدثين⁶²⁷ أن جماعة من العلماء تكلموا في أهم رجال العصر : « ... فقالوا : من رجل الأمة فقال قوم : ابن لهيعة .

⁶²¹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 208

⁶²² المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 214

⁶²³ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 202

⁶²⁴ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 203

⁶²⁵ هو المحدث عبد الرحمن بن يحيى العذري . المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 205

⁶²⁶ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁶²⁷ علي بن الحسين بن الجنيد الرازي ، لم أعثر له على ترجمة ، يرد اسمه في نص الذهبي . المصدر نفسه ، ج 8 ، ص

وقال قوم : مالك ، فقدم علينا عيسى بن يونس، فسألناه فقال : رجل الأمة شريك ،
وكان شريك يومئذ حيا...»⁶²⁸ .

و تهمنا في هذا الصدد شهادة أحمد بن حنبل نظرا للمكانة التي يحتلها داخل اتجاه أهل السنة
و دقته في نقد الرجال فقد جاء عن أحد تلامذته : « ... سألت أحمد بن حنبل عن شريك ،
فقال: كان عاقلا، صدوقا، مُحَدَّثًا، وكان شديدا على أهل الرِّيب والبَدَع ...»⁶²⁹

لقد سبقت الرواية التي يتحدث فيها شريك عن نفسه في أيام صباه لما قرر الارتحال إلى
الكوفة ، و جاء فيها أنه أراد أن يأخذ العلم وفقا لمذهب أهل السنة و الجماعة ، و تم له ذلك
لكنها السنة على طريقة الكوفيين ، حيث يمازج الهوى العلوي الاتجاه السني و حيث لا يجد
أي طاعن على فقهاء الكوفة أي صعوبة في أن يتهم من أراد بالتشيع و مفارقة السنة ؛ الأمر
الذي حدث لشريك ذاته ، فرغم وضوح آرائه في المسائل الكبرى التي وقع فيها الخلاف بين
السنة و الشيعة إلا أن هذه التهمة لاحقتة : « ... قال حفص بن غياث : سمعت شريكا
يقول : قُبِضَ النبي صلى الله عليه وسلم و استخار المسلمون أبا بكر ، فلو علموا أن فيهم
أحدا أفضل منه كانوا قد غَشُّونا ، ثم استخلف أبو بكر عمرَ .. فلما حضرته الوفاة
جعل الأمر شورى بين ستة فاجتمعوا على عثمان . فلو علموا أن فيهم أفضل منه
كانوا قد غَشُّونا . فعرض قوله هذا على عبد الله بن إدريس⁶³⁰ ، فقال : الحمد لله الذي أنطق
بهذا لسانه ، فوالله إنه لشيعي وإن شريكا لشيعي ...»⁶³¹ . و يعرض الذهبي رواية لرأي
شريك في تفضيل عثمان نصها :

« ... قال أبو نعيم : سمعت شريكا يقول : قدم عثمان يوم قدم ، وهو أفضل القوم ...»
فيعلق الذهبي عليها : « ... قلت : ما بعد هذا إنصاف من رجل كوفي ...»⁶³² .

لكن النصوص التي توضح رأي شريك في هذه المسائل كثيرة ، وجلها يدور حول
المعنى الذي يؤكداه أهل السنة و إن ظلت مشاعره كعادة أهل الكوفة مشدودة للإمام
علي . الأمر الذي أفرز اعترافات تبدو متناقضة : « ..قال ابن عيينة : قيل لشريك : ما

⁶²⁸ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁶²⁹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 209

⁶³⁰ عبد الله بن إدريس : أحد كبار المحدثين ولد سنة 115هـ و توفي سنة 192هـ ، المصدر نفسه ، ج 9 ، ص : 46

⁶³¹ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 209

⁶³² المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 202

تقول فيمن يفضل عليا على أبي بكر ؟ قال : إذا يَفْتَضَح ، يقول : أخطأ المسلمون .
«...»⁶³³ . « ... لقي عبدُ الله ابن مصعب الزبيري شريكا ، فقال : بلغني أنك تتأل من أبي
بكر وعمر . فقال شريك : والله ما أُنْتَقَصُ الزبِير ، فكيف أنال من أبي بكر وعمر
...؟ »⁶³⁴ .

و جاء في رواية أحد أصحابه : « ... قلت لشريك : رأيت من قال : لا أفضل أحدا . قال :
هذا أحمق ، أليس قد فضّل أبو بكر وعمر ؟ ... »⁶³⁵
أما الروايات الأخرى التي تهدف إلى الطعن في سنية شريك و تزرع الشك في انتمائه
السني فأهمها ما ورد عن بعض المحدثين⁶³⁶ : « ... أنه سمع شريكا يقول : علي خير البشر
، فمن أبي فقد كفر... »⁶³⁷ . و يعلق الذهبي على هذا الخبر : « ... قلت : ما ثبت هذا عنه .
ومعناه حق . يعني : خير بشر زمانه ، وأما خيرهم مطلقا ، فهذا لا يقوله مسلم ... »⁶³⁸ .
وقد ساورت هذه الشكوك بعض المحدثين فتوقفوا في قبول روايته بحيث كان : « ... يحيى
لا يحدث عن شريك وكان عبد الرحمن بن مهدي يحدث عنه... »⁶³⁹ .

علاقته بالدولة :

و لقد دخل شريك في ولاية القضاء على عهد المنصور سنة 153 هـ — 770 م⁶⁴⁰ و
بأمر منه و ظل فيها لحين خلافة المهدي فأقره عليها مدة ثم عزله ، و قد جاءت روايات
مختلفة في عرض ملابسات قبوله هذا العمل و كلها تدور حول امتعاض شريك من الدخول
في سلك القضاء ، لكنه لم يجد في الأخير إلا الرضوخ لرغبة المنصور ، و قد شدد المنصور
عليه و لوح له بالتهديد إن لم يقبل ، فجلس شريك قاضيا مرغما في البداية ، لكنه استطاب
الوظيفة و اعتادها للحد الذي رفض فيه وساطة من أراد أن يطلب له الإعفاء لدى المهدي .و

⁶³³ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 204

⁶³⁴ ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 465

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 206

⁶³⁵ الذهبي : المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 205

⁶³⁶ هو ابو داود الرهاوي حسب ما يرد في النص

⁶³⁷ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁶³⁸ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁶³⁹ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 208

⁶⁴⁰ الطبري : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 284. ابن الأثير : الكامل ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 37

يبدو أن لشريك قبل دخوله الرسمي في القضاء على عهد المنصور مكرها سابقة في عرض المنصب عليه ، إذ جاء في إحدى الروايات ما يلي : «...لما وُجِّهَ شريك إلى قضاء الأهواز ، جلس على القضاء ، فجعل لا يتكلم حتى قام ، ثم هرب واختفى . ويقال : إنه اختفى عند الوالي .. قال الحسن بن عمارة حين بلغه أن شريكا هرب: الخبيث استصغر قضاء الأهواز... »⁶⁴¹

و واضح في هذه الرواية شك ابن عمارة في خلوص نية شريك و ورعه ، و فهم من تصرفه أن شريك يطمح للقضاء في مصر من الأمصار الكبيرة ، حيث للقاضي هيئته و أهميته و اقترابه من دوائر السلطة و القرار ، و هي طريقة تفكير كل من يتملكه طموح سياسي أو اجتماعي ، ولا يستبعد أن يكون مثل هذا الطموح قد ساور شريكا و قد عرف عنه منذ شبيبته علو همته و اعتداده بنفسه و قومه .

و يحكي شريك قصة توليه القضاء فيقول : « ... حُمِلْتُ إلى أبي جعفر، فقال لي : قد وُلِّيتك قضاء الكوفة . فقلت : لا أحسن . فقال : قد بلغني ما صَنَعْتَ بعيسى ، والله ما أنا كعيسى . يا ربيع ، يكون عندك حتى يقبل ، فخرجت مع الربيع ، فقال : إنه لا يُعْفِكَ . فقلت ... »⁶⁴²

وجاء في رواية أخرى ما يعضد رواية شريك : « ... دعا المنصور شريكا ، فقال : إني أريد أن أوليك القضاء ، فقال : أعفني يا أمير المؤمنين . قال : لست أعفِكَ . قال : فأنصرفُ يومي هذا ، وأعود ، فيرى أمير المؤمنين رأيه . قال : تريد أن تتَغَيَّبَ ، ولنن فعلت لأقدمن على خمسين من قومك بما تكره ، فَوَلَاه القضاء . فبقي إلى أيام المهدي ، فأقره المهدي ، ثم عزله ... »⁶⁴³ . و واضح من هاتين الروايتين أن شريك كان مخلصا في رفضه للقضاء في البداية و أنه لم يكن يتكلف الرفض ، لكنه أيضا لم يكن حازما و لا جادا بما فيه الكفاية أمام إصرار المنصور و جديته ، الأمر الذي كان يختلف عن ما سبق التعرض له في مواقف سفيان الثوري أو أحمد و من هم على شاكلتهما . و الرواية التالية

⁶⁴¹ وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 153

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 207

⁶⁴² وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 151

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 206

⁶⁴³ الذهبي : المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 213

ابن سعد : الطبقات ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 379

تجلي الاستعداد المسبق لديه للقبول بالوظيفة : « ... لما دعا أبو جعفر شريكاً ليوليه القضاء قال ممن أنت قال من النخ⁶⁴⁴ .. قال: قد وليتك قضاء الكوفة ، قال : يا أمير المؤمنين إني إنما أنظر في الصلاة والصوم، فأما القضاء فلا أحسنه، قال : اذهب .. فَأَنْفَذَ ما أحسنت وتكتب إلي فيما لا تحسن ... »⁶⁴⁵ .

إن شيئاً من الرغبة في النفوذ والوجاهة يلوح في شخصية شريك ؛ خاصة عند مطالعة ترجمته الحافلة في كتاب " أخبار القضاة " ، و نفترض بناء عليها أن شريكاً عاش قلقاً داخلياً بين القبول و الرفض ، و أن الرفض كان مؤسسا على ميراث الفقهاء و المحدثين الحافل بمعاني التجريم و الإدانة لمن تسول له نفسه الوقوع في قبضة السلطة . و يرد عند وكيع نصاً بالغ الأهمية في دعم هذه الفكرة ، جاء فيه أن : « ... إسحق بن عيسى، قال لما ولي المنصور شريكاً قضاء الكوفة أتى أبي فقال له : استعف لي أمير المؤمنين فقال له : إني لأعزل من ذاك ، إن أمير المؤمنين لا يُردّ عن عزماته ، فلما توفي المنصور وولي المهدي قال له أبي : إنك كنت سألتني أن أستعفي لك أمير المؤمنين فأبيتُ عليك ، وأمير المؤمنين ألينُ جانباً وأحرى أن يجيبنا إلى ما نسأله، فإن شئت استعفيت، فقال: أما الآن فإني أكره شماتة الأعداء ... »⁶⁴⁶ .

ولعل الذي خشيه شريك من استتكار بعض من الفقهاء الكبار قد وقع له ؛ حيث يورد ابن خلكان نصاً طويلاً يكشف عن رأي سفيان الثوري في قبول شريك القضاء⁶⁴⁷ . لكن نتيجة

⁶⁴⁴ النخ : قبيلة عربية كبيرة و شهيرة سكن عدد كبير من أفرادها الكوفة .

⁶⁴⁵ وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 150

⁶⁴⁶ المصدر نفسه ، ج 3 ، ص : 153

⁶⁴⁷ « ... لما ولي شريك القضاء أكره على ذلك وأقعد معه جماعة من الشرط يحفظونه ، ثم طاب للشيخ فقعد من نفسه فبلغ سفيان الثوري انه قعد من نفسه ، فجاء فترأى له فلما رأى الثوري قام إليه فعظمه وأكرمه ، ثم قال : يا أبا عبد الله هل من حاجة ؟ قال : نعم مسألة ، قال : أو ليس عندك من العلم ما يجزئك ، قال : أحببت أن أذكرك بها ... » و تمضي الرواية تعرض الحوار بينهما : « ... قال : قل ، قال : ما تقول في امرأة جاءت فجلست على باب رجل فاحتملها ففجر بها لمن تحدد منهما ؟ فقال : الرجل دونها لأنها مغصوبة ، قال : فإنه لما كان من الغد جاءت فتزيت وتبحرت وجلست على ذلك الباب ، ففتح الرجل فرآها فاحتملها ففجر بها ، لمن تحد ، قال : أحدهما جميعاً لأنها جاءت من نفسها ، وقد علمت الخبر بالأمس ... » و هنا يصل سفيان للمعنى الذي كان يقصده :

« ... قال : أنت كان عذرك حين كان الشرط يحفظونك ، اليوم أي عذر لك ؟ قال : يا أبا عبد الله أكلمك ، قال : ما كان الله ليراني أكلمك ، أو تتوب . قال ووثب فلم يكلمه حتى مات وكان إذا ذكره قال أي رجل كان لو لم يفسدوه ... » .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 465 – 466

هذا الموقف المحرج لم تكن استقالته و إنما استمر في عمله ، و معالجة خوفه من الخطأ بطلب الدعاء : «... لما ولي شريك القضاء كان من دعا له أو أثَّي عليه زَبَرَه ، فلما خَبَرَ القضاء جعل من يدعو له يسكت ، ومن يثني عليه ، فيقول: الدعاء الدعاء ... »⁶⁴⁸ . و هذه حال من أحس أنه في ورطة .

ولا بد أن أمر قبوله بولاية القضاء ظل محل تداول بين أصحابه و مقربيه ، حيث كان يجد نفسه مرغماً على تبرير مسلكه من خلال دعوى الإكراه : «... قال شريك لبعض إخوانه أكرهتُ علي القضاء ، قال : فأكرهتُ علي أخذ الرزق ؟... » .

وبعد وفاة المنصور و تولي المهدي ، تكرر ذات الأمر لشريك لكن استجابته كانت نفسها :

« ... قيل : إن شريكا أَدْخَلَ علي المهدي ، فقال : لا بد من ثلاث : إما أن تلي القضاء ، أو تُؤَدِّب ولدي وتحدِّثهم ، أو تأكل عندي أكلة . ففكر ساعة ، ثم قال : الأكلة أخف علي ، فأمر المهدي الطباخ أن يصلح ألوانا من المُخ المعقود بالسكر وغير ذلك ، فأكل . فقال الطباخ : يا أمير المؤمنين ، ليس يفلح بعدها . قال : فحدثهم بعد ذلك ، وعلمهم ، وولي القضاء . ولقد كتب له برزقه على الصَّيرفي ، فضايقه في النَّقْد ، فقال : إنك لم تَبِعْ به بَرّاً . فقال شريك : والله بعت أكبر من البز ، بعت به ديني ... »⁶⁴⁹ . ولقد أوردت هذا النص رغم طوله و رغم أنني أتشكك في صحته لأنه يعرض ولاية شريك للقضاء في عهد المهدي و كأنها البداية ، لكن مضمون النص مهم في إضاءة مسألة استدراج الخلفاء و رجال الدولة للفقهاء و الوسائل التي اتُّبعت في ذلك .

و قد جاء في بعض الروايات أن استقضاء شريك في ولاية المهدي جاء بعد عرضها على سفيان الثوري و رفضه إياها ؛ الأمر الذي كرس في الاستتكار عليه تبعا للرواية التالية :

« ... و قد قرر المهدي تولية سفيان الثوري على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم فكتب عهده ودفع إليه فأخذه وخرج ، فرمى به في دجلة وهرب فطلب في كل بلد

⁶⁴⁸ وكيع : أخبار ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 154

⁶⁴⁹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 207

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 465

فلم يوجد ، ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبد الله النخعي ، قال الشاعر:

تحرَّرَ سفيانُ وفرَّ بدينهـ وأُمنى شريكاً مرصداً للدرَاهم⁶⁵⁰

— البحر الطويل —

إنّ لقد استمر شريك في العمل بعد وفاة المنصور في ذات المنصب و ظل استتكار
الرافضين لهذا الأمر يلاحقه فلم يسلم من الغمز الأقرب للاستهزاء و النكتة والتعريض به
في بعض الأحداث التي تحدث لمن يشتغل لدى الدولة : « ... كان شريك على قضاء
الكوفة فخرج يتلقى الخيزران ، فبلغ شاهي وأبطأت الخيزران ، فأقام ينتظرها ثلاثاً ، ويبس
خبزه فجعل يبيله بالماء ويأكله ، فقال أحد الشعراء :

فَإِنْ كَانَ الَّذِي قَدْ قَلْتَ حَقًّا بَأْنُ قَدْ أَكْرَهُوكَ عَلَى الْقَضَاءِ
فَمَا لَكَ مُوضِعًا فِي كُلِّ يَوْمٍ تَلَقَّى مِنْ يَحْجُجُ مِنَ النِّسَاءِ؟
مَقِيمًا فِي قُرَى شَاهِي ثَلَاثًا بَلَا زَادَ سِوَى كِسْرِ وَمَاءِ⁶⁵¹

— البحر الوافر —

وحصل عند المهدي على مكانة جليلة ؛ لكنها لم تسلم من الاضطراب و الاهتزاز ، و قد
تسرب لدى المهدي شك و ارتياب في مدى ولاء شريك للدولة و حامت حول هواه العلوي
شكوك ارتفعت لمستوى التهمة السياسية ، و أخذ المهدي في تقريره و مساءلته و قد « ...
دخل شريك على المهدي فقال له : ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين ، قال : ولم ؟ قال :
لِخِلَافِكَ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَقَوْلِكَ بِالْإِمَامَةِ ، فقال : أما قولك لخلافك على الجماعة فعن الجماعة
أخذت ديني فكيف أخالفهم وهم أصل ديني ؟ وأما قولك بالإمامة فما أعرف إلا كتاب الله عز
وجل وسنة رسوله ، وأما قولك مثلك لا يقلد الحكم بين المسلمين فهذا شيء أنتم فعلتموه ،
فإن كان خطأ فلتستغفروا الله منه ، وإن كان صواباً فأمسكوا عليه ... » . و تمضي الرواية
يقرر فيها المهدي شريكا على طريق الاستتقاق البوليسي و تنتهي بأن : « ... سكت المهدي
وأطرق ، ولم يمض بعد هذا المجلس إلا قليل حتى عُزِلَ شريك ... »⁶⁵² .

⁶⁵⁰ ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 390

⁶⁵¹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 205

⁶⁵² ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 467 .

والحقيقة أن شريك رغم دخوله فيما حذره منه سفيان و أصحابه و رغم الخضوع لمقتضيات العمل الرسمي في الدولة من سلوكات قد تمس هيبة العلماء إلا أنه لم يكن من الصنف الذي يقبل الإهانة لما تمس الدين و هيبة العلم ، فقد حدث و هو قاضي للمهدي :

« ... أن أتاه بعض ولد المهدي ، فاستدّ ، فسأله عن حديث ، فلم يلتفت إليه ... ، ثم أعاد ، فعاد بمثل ذلك . فقال : كأنك تستخف بأولاد الخليفة . قال : لا ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه . قال : فجئنا على ركبتيه ، ثم سأله ، فقال شريك : هكذا يُطلب العلم... »⁶⁵³

ورغم الجاه الذي كان عليه شريك في الكوفة و المنعة التي أحاطه بها العرب⁶⁵⁴؛ إلا أنه فضل أن يظل كما كان قبل توليه القضاء من بساطة في العيش و عدم تكلف ، قال عيسى بن يونس : « ... ما رأيت في أصحابنا أشد تقشفا من شريك ، ربما رأيتَه يأخذ شاته ، يذهب بها إلى الناس .. وربما دخلتُ بيته ، فإذا ليس فيه إلا شاة يحلبها ومطهرة ، وبارية وجرة ، فربما بلّ الخبز في المطهرة فيلقي إليّ كتبه ، فيقول : أكتب حديث جدك و من أردت ... »⁶⁵⁵.

و قد انتهت حياة شريك في القضاء في عهد المهدي ، و يبدو أن قرار العزل جاء نتيجة ارتياب مسّ ولاءه السياسي ، فقد حامت شكوك كثيرة حول العاطفة التي كان يكنها شريك لآل البيت ؛ و لابد أن الأمر لم يكن مقتصرًا على مجرد العاطفة لأن أهل الكوفة عموماً ؛ سنة وغير سنة ، كان يسكنهم الولاء للإمام علي و ذريته، و إنما من الوارد أن التهمة كانت احتمال أن يكون لشريك علاقة ما بتنظيم سياسي علوي ما . و الرواية التالية التي رواها أحد شهود عيان⁶⁵⁶ تشير إلى ذلك : « ... كنت شاهدا حين أدخل شريك ، ومعه أبو أمية⁶⁵⁷ ، وكان أبو أمية رَفَعَ إلى المهدي أن شريكا حدثه عن الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإذا أزاغوا

⁶⁵³ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 207

⁶⁵⁴ « ... قيل لمحمد بن الحسن: أما ترى كثرة قول الناس في شريك ؟ يعني في حمده مع كثرة خطئه و خطله. قال: اسكت ويحك أهل الكوفة كلهم معه، يتعصب للعرب، فهم معه، و يتشيع لهؤلاء السوالي الحمقى فهم معه ... » .

الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 214

⁶⁵⁵ المصدر نفسه ، نفس الصفحة

⁶⁵⁶ هو المحدث نصر بن المجدر ، لم أعثر له على ترجمة

⁶⁵⁷ لم أعثر على من يكون أبو أمية هذا و يبدو أنه كان من العلماء المقربين للمهدي

عن الحقّ فَضَعُوا سِيُوفَكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ ، ثمَّ أُبِيدُوا خَضِرَاءَهُمْ ، قال المهدي: أنت حدثت بهذا ؟ قال : لا . فقال أبو أمية : علي المشي إلى بيت الله ، وكل مالي صدقة ، إن لم يكن حدثني ... » . فلجأ شريك إلى الحيلة ليتفادى اليمين : « ... فقال: وعليّ مثل الذي عليه إن كنت حدثته . فكأن المهدي رضي . فقال أبو أمية : يا أمير المؤمنين ، عندك أدهى العرب ، إنما يعني مثل الذي عليّ من الثياب . قل له يحلف كما حلفتُ . فقال : أحلف . فقال شريك : قد حدثته . فقال المهدي : ويّلي على شارب الخمر — يعني الأعمش — اليهودي⁶⁵⁸ ، قال شريك: لم يكن يهوديا ، كان رجلا صالحا ، قال : بل زنديق ... » فأجابه شريك بحدة معرضا ببعض السلوكات الشائنة للمهدي قال : « ... للزنديق علامات : بتركه الجُمُعَات وجلوسه مع القيان ، وشربه الخمر . فقال : والله لأقتلك . قال : ابتلاك الله بمهجتي . قال : أخرجوه ، فأخرج ، وجعل الحرس يشققون ثيابه ، وخرقوا قلنسوته . قال نصر: فقلت لهم : إنّه أبو عبد الله . فقال المهدي: دعهم ... »⁶⁵⁹ . و في روايات أخرى يرد عزل شريك في سياق تصفية حسابات بينه وبين الربيع صاحب شرطة المهدي ، و لم أجد في الروايات التي اشتغلت عليها علّة سوء التفاهم بينهما : « ... وكان شريك يشاحن الربيع صاحب شرطة المهدي ، فكان يحمل المهدي عليه ، فدخل شريك يوما على المهدي ، فقال له المهدي : إني لأراك فاطمياً خبيثاً ، قال : والله إني لأحب فاطمة وأبا فاطمة قال : وأنا والله أحبهما ولكني رأيته في منامي مصروفا وجهك عني ، وما ذاك إلا لبغضك لنا ، وما أراني إلا قاتلك لأنك زنديق ... » . فاحتدّ شريك في وجه المهدي وقال : « ... يا أمير المؤمنين إن الدماء لا تُسْفَك بالأحلام ، وليست رؤياك رؤيا يوسف عليه السلام ، وأما قولك إني زنديق فإن للزنداقة علامة يعرفون بها ، قال : وما هي ؟ قال : شرب الخمر والضرب بالطنبور قال : صدقت أبا عبد الله وأنت خير من الذي حملني عليك ... »⁶⁶⁰ . و لما عزل وجد كثير من مناوئيه فرصة السماتة به فكان من بينهم موسى بن عيسى ، فتعرّض له مرة فقال : يا أبا عبد الله ، عزلوك عن القضاء ، ما رأينا قاضيا عُزل . قال : هم الملوك ، يعزلون ويخلعون يُعرّض به لأن أباه خلع من ولاية العهد⁶⁶¹ .

⁶⁵⁸ يقصد الأعمش المحدث المشهور

⁶⁵⁹ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص : 215

⁶⁶⁰ ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 466 — 467

⁶⁶¹ المصدر نفسه ، ج 8 ، ص : 206

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 467

إذن لقد مضى شريك في العمل للمنصور و المهدي رغم ما كان يعانيه من قلق داخلي ، وما كان يجابه به أصحابه و رفقائه ممن لم يرض هذا العمل ، و لم ينصرف عن القضاء حتى كانت الدولة هي التي صرّفته ، و بهذا اندرج شريك ضمن الفريق الذي قام بمهمة تأصيل جواز العمل للدولة حتى و إن كانت منقوصة الشرعية ، و ذلك من موقعه كرجل فقه و حديث و كلسان ناطق بالمعرفة الشرعية

أبو يوسف القاضي :

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حبّيش بن سعد الأنصاري الكوفي، قاضي القضاة في أيام هارون الرشيد : «...مشهور الأمر ظاهر الفضل ، وهو صاحب أبي حنيفة ، رافقه آلاف ولم يتقدمه أحد في زمانه ، وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر ، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملّى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض...»⁶⁶²

ولد أبو يوسف في الكوفة سنة 113هـ — 731م، وقد نشأ في أسرة فقيرة فطلب الحديث في أول أمره ، ثم لزم أبا حنيفة وتفقّه على مذهبه⁶⁶³ ، ويقال : إن أمه منعتّه من طلب العلم وأمرته أن يعمل ليكسب لهم رزقاً ، فانقطع عن مجلس أبي حنيفة فترة ، فلما عاد سأله عن انقطاعه فأخبر بالأمر فدفع له أبو حنيفة مائة درهم على أن يلزم حلقة العلم معه وقال : إذا انتهت فأعلمني. وكان أبو حنيفة يتعاهده بالمائة بعد الأخرى، ولذلك تفقه عليه ونشر مذهبه وأحبه حتى كان يدعو له دبر كل صلاة⁶⁶⁴.

⁶⁶² الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص : 245

⁶⁶³ عبد الله المراغي : الفتح المبين في طبقات الأصوليين ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، سنة 1419هـ — 1999م

ج 1 ، ص : 113 .

⁶⁶⁴ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 148 .

الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص : 244 — 245 . أنظره :

« ... عن أبي يوسف قال كنت اطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه فقال : يا بني لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة فان أبا حنيفة خبزه مشوي ، وأنت تحتاج إلى المعاش . فقصرت عن كثير من الطلب أثرت طاعة أبي ، فتفقّدتني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيتّه بعد تأخري عنه قال لي ما الذي أخرجك ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي . جلست فلما انصرف الناس دفع إلي صرة وقال : استمتع

وظل بعد وفاة أستاذه منقطعا للحلقة مستفرغا وسعه للعلم ، من غير أن يدخل في أي عمل من أعمال الدولة ، حيث أنجز في هذه الفترة ترتيب مذهب أستاذه في فروع خصصها في كتب فقدم بذلك ما كانت الدولة بحاجة إليه⁶⁶⁵ .

لم كن عيش أبي يوسف في هذه الفترة ميسورا ، و وصل به الفقر إلى بيع سقف بيت زوجته⁶⁶⁶ و تعرض لعتاب شديد من حماته ، الأمر الذي قد يكون وراء توجهه إلى بغداد سنة 166هـ ، فقابل الخليفة المهدي فعينه قاضيا على شرق بغداد فبقي في المنصب إلى غاية خلافة الهادي ، و لما تولى الرشيد أكرمه و رفعه لمرتبة قاضي القضاة فكان منصبا مستحدثا في الإسلام تولاه لمدة ستة عشر عاما .

و قد كان لنيله هذا المنصب نتائج هامة منها :

— تمكينه من توسيع نطاق المذهب عبر المواجهة المباشرة مع مختلف القضايا و الوقائع التي تحتاج فصلا عمليا إجرائيا .

— نشر المذهب الحنفي و التمكين له من خلال ما خوله له منصبه فعمل على تعيين القضاة من بين المنتسبين لمذهبه .

— استطاع إلى حد ما بعلمه و هيبته و عظيم مكانته لدى الرشيد بخاصة أن يراقب تطبيق الشريعة في أكثر من مجال في دوائر الحكم . وكان إلى جانب اضطلاع به هذه المهام يواصل مهمته العلمية و التعليمية ، فتصدر في بغداد للإفادة و الرواية ، حيث أخذ عنه العلم زميله محمد بن الحسن الشيباني ، وبشر بن الوليد الكندي⁶⁶⁷ * ، وأحمد بن حنبل ويحيى بن

بهذه فنظرت فإذا فيها مائة درهم فقال لي : ألزم الحلقة وإذا نفذت هذه فأعلمني . فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى ، ثم كان يتعاهدني وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاذ شيء .. حتى استغنيت وتمولت ...» .

⁶⁶⁵ وقد مضى وصفه بأنه : « ... وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض ... » الخطيب : المصدر نفسه ، 14 ، ص : 245

⁶⁶⁶ سقوف بعض البيوت مصنوعة من القصب فكان يحدث أن يبيع الفقير سقف بيته إذا اشتد به الفقر ، و هذا النص تصوير لا نستطيع التحقق من صحته يرمز الى الحالة المزرية التي وصل إليها أبو يوسف

⁶⁶⁷ * بشر بن الوليد : العلامة ، قاضي بغداد كان محمود الأحكام ، توفي سنة 238هـ . عبد الحي بن العماد الحنبلي :

معين وغيرهم كثير ... وكانت وفاته سنة 182هـ - 798م عن تسع وستين سنة ، وكان استخلف ابنه يوسف على الجانب الغربي فاقره الرشيد على عمله⁶⁶⁸ .

وقد استولى أبو يوسف على قلب الرشيد فكان يصدر عن رأيه ، و يثق بأحكامه ، ويستشيره في أموره ، إعجابا بعلمه و ذكائه و قدرته على حل المعضلات⁶⁶⁹ : « ... وكان الرشيد يكرمه ويُجلّه وكان عنده حظياً مكيناً ، وهو أول من دُعيَ بقاضي القضاة ويقال إنه أول من غيّر لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان وكان ملبّوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلباسه ... »⁶⁷⁰ و تعدى إجلال الرشيد إلى زوجته زبيدة . فلحقه من ذلك خير كثير، إذ تغيرت حاله إثر اشتغاله بالقضاء ، وتحول فقره غنى للحد الذي صار حديثاً للعلماء ، إذ قال ابن السماك الواعظ : « ... لا أقول إن أبا يوسف مجنون ولو قلت ذاك لم يُقبل مني ولكنّه رجل صارع الدنيا فصرعته ... »⁶⁷¹ . و كان أبو يوسف يملكه ذات الحكم على نفسه حيث كان مما قاله في مرض موته : « ... يا ليتني متّ على ما كنت عليه من الفقر وإني لم أدخل في القضاء على أنني ما تعمّدت بحمد الله ونعمته جَوْراً ولا حايبت خصماً على خصم من سلطان ولا سوقة ... »⁶⁷² .

كان أبو يوسف من كبار رجال السنة رغم تحفظ بعض رجال الحديث فيه من جهة الرأي وإتباعه لأبي حنيفة⁶⁷³ . و لقد وصف من طرف آخرين بأنه أقرب أئمة الرأي لأهل الحديث

⁶⁶⁸ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص : 244 .

⁶⁶⁹ أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ، المصدر السابق ، م 5 ، ج 9 ، ص : 85 . « ... وكان قد اعتور على هارون الرشيد أبو يوسف القاضي وكان قاضي القضاة و محمد بن الحسن على المظالم فكان الرشيد يصدر عن رأيهما ويتفقهما بقولهما ... »

⁶⁷⁰ ابن خلكان : الوفيات المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 379

⁶⁷¹ نفس المصدر ، ص : 248 .

⁶⁷² نفس المصدر ، ص : 252 . جاء في خبر آخر أنه قال : « ... أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول اللهم انك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت به بين عبادك متعمدا ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك وكل ما أشكل على جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي والله ممن يعرف التابعين ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه ... » و في رواية أخرى : « ... اللهم انك تعلم أنني لم أطأ فرجا حراما قط وأنا أعلم اللهم انك تعلم أنني لم أكل درهما حراما قط ... »

⁶⁷³ محمد بن إسماعيل البخاري : التاريخ الكبير ، د ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت ، ج 8 ، ص : 397. نص حكم البخاري على أبي يوسف كالتالي :

« ... يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف القاضي سمع الشيباني وصاحبه أبو حنيفة تركوه ... » . لكن وثقه كبار المحدثين :

، لأنه اشتغل بالحديث زمنا طويلا قبل تتلمذه لأبي حنيفة⁶⁷⁴. ولم يسلم من الطعن عليه حيا و ميتا من طرف المتشددین من أهل السنة ، وكان من بين من طعن فيه يزيد بن هارون المحدث الكبير إذ سئل : «... ما تقول في أبي يوسف ؟ قال : لا تحل الرواية عنه ؛ إنه كان يُعطي أموال اليتامى مضاربة ويجعل الربح لنفسه...» ، ونقل آخرون عن أبي حنيفة أنه كان يتهم أبا يوسف بالكذب عليه⁶⁷⁵ .

وروى ابن المبارك قال : «... لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جوالي المهدي فراودها عن نفسها ، فقالت : لا أصلح لك ، إنَّ أباك قد طاف بي ، فشغف بها فأرسل إلى أبي يوسف فسأله : أعندك في هذا شيء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أو كلما أدعت أمة شيئا ينبغي أن تصدق ، لا تصدقها فإنها ليست بمأمونة ... » . فعلق ابن المبارك على الخبر : «... لم أدر ممن أعجب من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرَّج عن حرمة أبيه ، أو من هذه الأمة التي رَغِبَتْ بنفسها عن أمير المؤمنين ، أو من هذا فقيه الأرض وقاضيهما قال : أهتِك حرمة أبيك واقض شهوتك وصيرره في رقبتي ... » .

وذكر السيوطي رواية أخرى قال : «... قال الرشيد لأبي يوسف : إنني اشتريت جارية وأريد أن أطأها الآن قبل الإستبراء ، فهل عندك حيلة ، قال : نعم تهبُّها لبعض ولدك ثم تتزوجها... » . و حدث أن دعا الرشيد أبا يوسف ليلا فأفتاه في مسألة فأمر له بمائة ألف درهم فقال أبو يوسف : إن رأى أمير المؤمنين أمر بتعجيلها قبل الصُّبح ، فقال الرشيد

«... ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل... » . وقال عمرا الناقد : «... ما أحب أن أروي عن أحد من أصحاب الرأي إلا عن أبي يوسف فإنه كان صاحب سنة... » .

أنظر : الخطيب البغدادي : الصدر السابق ، ج 14 ، ص ص : 244 — 253 .

⁶⁷⁴ عبد الله بن أحمد : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 108 . «... سمعنا أبا يوسف القاضي يقول بخراسان صنفان ما على ظهر الأرض اشر منهما الجهمية والمقاتلية ... » . «... سمعت أبا يوسف القاضي يقول : جيئوني بشاهدين يشهدان على المريسي والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط يقول في القرآن يعني مخلوق ...» . المصدر نفسه ، ص : 123

وقد طلب الحديث على كل من هشام بن عروة ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وعطاء بن السائب ، ويزيد بن السائب ، ويزيد بن أبي زياد ، وأبي إسحاق الشيباني ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وسليمان الأعمش ، وغيرهم . وكلم من كبار اهل السنة . وقد خرج يوما وأصحاب الحديث على الباب ، فقال : ما على الأرض خير منكم قد جنتم أو بكرتم تسمعون

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 13 ، 358

⁶⁷⁵ نفس المصدر ، ص : 258

: عَجَلُوا ، فقال بعض من عنده : إن الخَازِن في بيته والأبواب مغلقة ، فقال أبو يوسف :
فقد كانت الأبواب مُغلقة حين دعاني ففتحت⁶⁷⁶

وقد جاء في كثير من الأخبار نماذج عن الحيل الفقهية المشروعة ، التي كان أبو يوسف ييسرها للبلاط من دون أن تخرج عن مضامين الشرع ، هذه المخارج التي تضاف إلى خلفية المذهب الحنفي في مراعاة المواقف الحرجة . وقال أيضاً : «...كانت أم جعفر كتبت مسألة إلى أبي يوسف تستفتيه فيها، فأفتاها بما وافق مرادها، حسب ما أوجبته الشريعة عنده، وأداه اجتهداه إليه، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقان من فضة، وفي كل حق لون من الطيب، وجام من ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنائير، وغلما ن وتخوت من ثياب، وحمار وبغل ...»⁶⁷⁷ . هذا ولم تكن جميع أحكامه تمضي في هوى الخلفاء إذ سجل له وقوفه ضد الهادي في نزاع حول بستان فكان الحكم في الظاهر للهادي وكان الأمر على خلاف ذلك : «... فقال أمير المؤمنين لأبي يوسف ما صنعت في الأمر الذي يتنازع إليك فيه قال خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق . فقال له موسى : وترى ذلك ؟ قال : قد كان ابن أبي ليلى يراه ، قال : فأردد البستان عليه وإنما احتال عليه أبو يوسف ...»⁶⁷⁸ .

⁶⁷⁶ السيوطي : تاريخ ، المصدر السابق ، ص : 291 – 292

⁶⁷⁷ المسعودي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 431 .

ابن خلكان : الوفيات المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 386 . تأمل في الرواية التالية :

« ... وقال : يا يعقوب ، تدري لم دعوتك ؟ قلت : لا ، قال : دعوتك لأشهدك على هذا ؛ إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع ، وسألته أن يبيعها فأبى ، والله لئن لم يفعل لأقتلنه ، قال أبو يوسف : فالتفت إلى عيسى فقلت له : وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة ، قال : فقال لي : عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي ، قلت : وما في هذا من الجواب ، قال : إن علي يمينا بالطلاق والعناق وصدقة ما أملك أن لا أبيع هذه الجارية ولا أهبها ، فالتفت إلي الرشيد فقال : هل له في ذلك من مخرج ، قلت : نعم ، قال : وما هو ، قلت : يهب لك نصفها ويبيعك نصفها فيكون لم يهب ولم يبيع ، فقال عيسى : ويجوز ذلك ، قلت : نعم . قال : فأشهدك أنني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار فقال له الرشيد : قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار ، ثم طلب منه الجارية فأبى بالجارية وبالمال فقال : خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها ، فقال الرشيد : يا يعقوب بقيت واحدة ، فقلت : وما هي ، فقال : هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ والله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إني أظن أن نفسي ستخرج ، فقلت : يا أمير المؤمنين تعقها وتزوجها فإن الحرة لا تستبرأ قال : فإني قد أعققتها ، فمن يزوجنيها ، فقلت : أنا فدعا بمسرور وحسين فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوجته إياها على عشرين ألف دينار ودعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لي يا يعقوب انصرف ... »

⁶⁷⁸ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج ، 14 ، ص : 248

وروى عنه حكايات في الحيل والتخريجات ، لعلها لا تصح ، وكانت له جهود في التأليف وتصنيف الكتب ، وقد وصف بأنه أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وكان يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب إلى جانب الفقه ومن أهم كتبه : كتاب الخراج . وهذا الكتاب عبارة عن خطة عمل لإصلاح الإدارة المالية في الدولة الإسلامية في العصر العباسي ، وضعه أبو يوسف كما يظهر من مقدمته بناء على طلب من الخليفة هارون الرشيد ليعمل به في جباية أموال الدولة ، من الخراج ، والعشور ، والصدقات ، والجزية ، وقد جعل أبو يوسف كتابه على صورة السؤال والجواب، لكن أبا يوسف لم يقتصر على إجابة الأسئلة وإنما استطرد في الإجابة استطرادات مفيدة ، ووضع مقترحات وخطة عمل ، وطلب من الخليفة أن يعمل بها ، وقدم له نصائح قيمة في إدارة الدولة ، ومحاسبة العمال ، والموظفين على الخراج ، والبريد ، والصدقات ، وغيرها من الوظائف⁶⁷⁹ .

ولم يكن مبحث الخراج الذي اشتهر به الكتاب إلا أحد فصول الكتاب فقد وضح إلى جانب مبحث الخراج كافة موارد الدولة المالية ، وواجبات الدولة في إصلاح المرافق العامة ، وواجباتها في محاسبة موظفيها ، وإقامة الحدود ، ونشر العدل ، وقتال أهل الشرك ، وأهل البغي ، ولم تخل تلك المباحث من إيراد السوابق التاريخية من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسيرة الخلفاء الراشدين وسيرة عمر بن عبد العزيز ، وقد ناقش آراء الفقهاء الذين سبقوه أو عاصروه ، ورجح ما رآه دون أن يتقيد بآراء شيخه أبي حنيفة.

والكتاب يعتبر أول دراسة للنظم الإسلامية جمع به مؤلفه بين الدراسة الشرعية والوقائع التاريخية ، ونقد فيه بعض الأوضاع والانحرافات المخالفة للشرعية ، وطلب من الخليفة إصلاح ذلك وإقامة النظام المالي في الدولة على مقتضى العدل الرباني الذي جاءت به الشريعة وطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون ومن اقتدى بهديتهم واستن بسنتهم.

⁶⁷⁹ أبو يوسف القاضي : كتاب الخراج ، د ط ، دار المعرفة ، بيروت ، د ت ، ص : 106 — 107 . وقد كرر أبو يوسف في كل فصل عقده في الكتاب نصيحته للرشيد في تحري العدل و اختيار أهل العلم و الفضل في الوظائف المتعلقة بالرعية .

ولقد كان القاضي أبو يوسف صريحاً مع هارون الرشيد في بيان الأخطاء والمخالفات دون مواربة ، وطلب إليه في أدب واحترام تصحيح الأوضاع ، وأمره ونهاه ، وحذره وذكره بالله ، ورغبة في ثوابه وخوفه وعقابه . و لم يعتبر من أعمال الخلفاء وقضاياهم إلا قضايا الخلفاء الراشدين الأربعة ، وقضايا عمر بن عبد العزيز الأموي⁶⁸⁰ .

إن احتكار المذهب الحنفي لإدارة القضاء في هذا العصر ، خاصة عهد الرشيد ما تلاه نعتبره ظاهرة من ظواهر التاريخ التي تقتضي الفهم و التعليل . خاصة إذا استعدنا العلاقة التي كان عليها مؤسس المذهب والدولة في عصر المنصور ، التي لم تكن ترتفع إلى المودة و التعاون . ربما كان ذلك هو الأمر الذي دفع زفرا زميل أبي يوسف في الدرس على أبي حنيفة على رفض تولي القضاء و تفضيله الهرب و الاختفاء . و كانت الدولة العباسية من جهة أخرى تشتكي غياب قانون فقهي مدون تعود إليه الدولة في حسم مشاكلها و مشاكل الرعية ، ويكون ناظماً لوحدة أحكام القضاة ، الأمر الذي ألح على ضرورته ابن المقفع في رسالة " الصحابة " . ولما كان المذهب الحنفي كوفي الأصل ، كذا سوء رأي الدولة و عدم رضاها على مؤسسه فقد اتجه كل من المنصور و المهدي بل حتى الرشيد إلى إمام المدينة مالك بن أنس ليوفر لهم هذا الإنجاز ، وكان ذلك سبب تأليف مالك للموطأ . لكن قدر لأبي يوسف أن يحقق المصالحة مع العباسيين ليكون في عهد الرشيد قاضي القضاة يظل في منصبه معززا مكرما لغاية وفاته .

إن ما يشغلنا في هذا البحث هو بيان نوعية العلاقة التي تحكم هذا الفقيه أو ذاك بالدولة العباسية ، و الروايات التي عرضت لحياة أبي يوسف مع الرشيد كلها يدل على الانسباط و عدم التحرج الذي طبع مسلكية أبي يوسف في علاقاته مع رجال الدولة ، إذ لا يبدو مجرد فقيه تستعمله الدولة فيما ينوبها من قضايا الناس تطبيقاً لتشريعات الإسلام ، يؤدي مهمته ضمن الحدود التي يرسمها منصبه ، و إنما يظهر أبو يوسف كما تعرضه بعض الروايات كأحد رجال هذه الدولة الموالين لها ، حيث تمنحنا هذه الروايات الاعتقاد بأنه لم يكن يستشعر الحرج الذي كان يشعر به من تستعمله الدولة بقوة الإكراه و الضغط وإلحاح الحاجة ؛ سواء حاجة الناس أو حاجة الفقيه الذاتية كالفقر و توابعه .

⁶⁸⁰ لم يجد أبو يوسف حرجا في الاعتماد على أقضية الإمام علي ، و الخليفة عمر بن عبد العزيز برغم العداء التاريخي بين العباسيين و الأمويين . و قد بدا أبو يوسف في الكتاب كفقيه يعرض الحق كما وضع له دون أي مراوغة الا ما يقتضيه خطاب الأدب مع الخليفة .

لقد كان الفقر و الحاجة ما دفعه للرحيل إلى بغداد ، والقبول بالعمل لدى الدولة ، لكنه أيضا يبدو و كأنه حسم ما يعتلج في ضمير أمثاله من الحرج والقلق النفسي ، و مضى في عمله متكيفا مع أجواء السلطة و ما تتيحه من جاه و نفوذ ، و ما توفره من وسائل المتعة .

إذن لم يكن أبو يوسف يحبذ نزعة الزهد و الانكماش التي طبعت زميله داود الطائي⁶⁸¹ ولم يكن مزاجه من النوع المنقبض ، ولم تكن له نزعات أستاذة و لا حساسيته للحرية و الاستقلال ، ولا هواجس التشدد في أمور الورع ، لقد كان رجلا واقعيا يتحرى العدل و يرغب في أن يحقق الأحكام الشرعية و أن تكون مسلكيته في الإطار العام الواسع الذي تقبلها هذه الأحكام ؛ بحيث لا ينسى نصيبه من الدنيا و يحسن للآخرين . و بهذا فقد حقق نموذجا سلفا لمن تلاه من الفقهاء الذين عملوا في القضاء و غيره⁶⁸² .

⁶⁸¹ داود الطائي : أبو سليمان داود بن نصر الطائي الكوفي ، اشتغل بالعلم و لزم الخلوة و العبادة ، توفي سنة 160 هـ بالكوفة .

ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص : 259 — 260

⁶⁸² ابن خلكان : الوفيات المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 381 . تأمل في الرواية التالية :

« ... ودخل القائد يوما على الرشيد فوجده مغموما فسأله عن سبب غمه فقال : شيء من أمر الدين قد أجزني ، فاطلب فقيها كي أستفتيه ، فجاءه بأبي يوسف ، قال أبو يوسف : فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت فتى حسنا عليه أثر الملك وهو في حجرة محبوبس ، فأومأ إلي بأصبعه مستغيثا فلم أفهم منه إرادته ، وأدخلت إلى الرشيد ، فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت ، فقال لي : ما اسمك ؟ فقلت : يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين . قال : ما تقول في إمام شاهد رجلا يزني هل يحده ؟ قلت : لا فحين قلنتها سجد الرشيد ، فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك ، وأن الذي أشار إلي بالاستغاثة هو الزاني ، ثم قال الرشيد : من أين قلت هذا ؟ قلت : لأن النبي قال ادعوا الحدود بالشبهات ، وهذه شبهة يسقط الحد معها . قال : وأي شبهة مع المعينة ؟ قلت : ليس توجب المعينة لذلك أكثر من العلم بما جرى والحدود لا تكون بالعلم ، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه فسجد مرة أخرى وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار ، فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته وصار ذلك أصلا للنعمة . ولزمت الدار فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء ... »

أبو عبيد القاسم بن سلام :

من أبناء خراسان أصله من مدينة هراة ، كان أبوه سلام عبدا روميا لرجل أنصاري من هراة اختلف المؤرخون في سنة مولده بين 157هـ⁶⁸³ و 150هـ⁶⁸⁴ ، و توفي على الأرجح سنة 224هـ — 839م⁶⁸⁵.

تلقى تعليمه الأولي في مسقط رأسه ثم أخذ في التسيار و الترحال كدأب أقرانه و من قبله يطوف بين الأمصار و المدن و الثغور : «... فطلب العلم و سمع الحديث و درس الأدب ونظر في الفقه...»⁶⁸⁶ و اتخذ من العراق وجهته الأولى ، حيث دخل بغداد سنة 176هـ — والكوفة سنة 177 هـ و البصرة سنة 179هـ قاصدا الفقهاء و القراء و المحدثين و علماء اللغة من بصريين و كوفيين ، ثم ارتحل إلى الرقة فدخلها سنة 191 هـ وطلب المشايخ الذين اشتهروا في اختصاصاتهم ؛ يأخذ العلم من منابعه و من لدن أهله ، وكانت دائرة شغفه المعرفي واسعة حيث شمل فضوله العلمي جميع علوم الإسلام من فقه و حديث و تفسير و

القرويني : آثار ، المصدر السابق ، ص : 281

⁶⁸³ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 491

⁶⁸⁴ ابن خلكان: المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 62

⁶⁸⁵ ابن الجوزي : صفة ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص : 132

⁶⁸⁶ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 403

لغة و نحو وقرءات و تاريخ و أنساب و أدب ؛ هذا الشغف الذي أهله بعد ذلك ليرتقي المحل الذي اشتهر به بين الخاصة و العامة و صيره قبلة و مقصدا للطلاب و العلماء⁶⁸⁷ .

وقد حرص أبو عبيد على اختيار شيوخه من الموثوقين المعتمدين لدى أهل السنة فلم يخلط مصادره في أي علم حملة من الذين جرى تسميتهم "بأهل الأهواء" و المقصود بهم الفرق و النحل التي حفل بها ذلك العصر، تماما كصنيع أحمد بن حنبل و غيره ، حرصا على نقاء علمه و حذرا من أي انحراف قد يسم عقيدته و منهجه ؛ خاصة و أن الصراع كان محتدما في تلك الفترة ليس بين أهل السنة و غيرهم من الفرق المخالفة و إنما بين أهل السنة فيما بينهم الذي عرف بالخلاف الحاد المفعم بالغمز و الإدانة بين "أصحاب الأثر" و "أهل الرأي" .

عاد من رحلاته إلى خراسان فعمل مؤدبا لآل هرثمة ثم انتقل إلى ثابت بن نصر الخزاعي يؤدب ولده⁶⁸⁸ ، ثم لما ولي ثابت على طرسوس ثماني عشرة سنة أشار على أبي عبيد بالقضاء فقبل المهمة و اعتلى المنصب طيلة هذه المدة « و لم يزل معه و مع ولده »⁶⁸⁹ . و في سنة 210 هـ — 825م ترك القضاء إثر وفاة ثابت و انحدر إلى بغداد حيث اتصل هناك بعبد الله بن طاهر⁶⁹⁰* و انعقدت بينهما مودة و ملازمة حملته ثانية إلى خراسان بمناسبة تولي ابن طاهر لها ، حيث استمر هذا الأخير يجري عليه ألفي درهم في الشهر⁶⁹¹ .

لكن أبا عبيد رغم العلم الذي حصله و دواعي الاستقرار التي تهيأت له و رغم التقدم في العمر إلا أنه ظل مسكونا بالحنين إلى معاودة الارتحال و ركوب المشاق لمزيد من التحصيل و المعرفة و إرواء شغفه الذي لم ينقطع ، فشهدته مصر سنة 213 هـ يطوف في أرجائها و يطلب أعيان شيوخها بصحبة المحدث الكبير يحيى بن معين ، يكتب و يكتب عنه ؛ يأخذ المعرفة و يمنحها ، ليغادرها بعد ذلك إلى الشام يطلب من بقي بها من الشيوخ يروم عوالي

⁶⁸⁷ سائد بكداش : أبو عبيد القاسم بن سلام ، ط 2 ، دار القلم ، دمشق ، سنة 2002 ، ص ص : 28 — 29

⁶⁸⁸ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 492

⁶⁸⁹ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 62

⁶⁹⁰ * عبد الله بن طاهر : أبو العباس ، سيد نبيل عالي الهمة ، كان المأمون كثير الاعتماد عليه في أموره ، تولى الشام و مصر و أبيورد ، توفي سنة 228 هـ بنيسابور . ابن خلكان : الوفيات ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص : 83 — 84

⁶⁹¹ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 404

سائد بكداش : المرجع السابق ، ص : 32

الحديث و الآثار و تم له ذلك سنة 214هـ⁶⁹² ، ثم عاد مرة أخرى إلى بغداد ؛ الحاضرة التي لا غنى لعالم أو متعلم المرور بها و الورود من معينها المعرفي الذي لا ينضب ؛ كيف و هي قصبة السلطان و حاضرة الخلافة ، و المكان الذي ينفق فيه كل شيء⁶⁹³ .

وفي سنة 219 هـ خرج إلى مكة حاجا ليقضي منسكه و يروي ظمأه العلمي من خلال لقاء الجلة من الشيوخ الذين تعسر عليه لقاءهم و الذين إلتقاهم ؛ يستفيد منهم و يفيد و هناك جاور بالبيت الحرام حتى وافاه اجله في محرم سنة 224 هـ⁶⁹⁴ — 839م. و قد ورد في سبب مجاورته قصة طريفة يحسن بنا إيرادها لدلالاتها على العمق الروحي الذي كان يميز أبا عبيد :

« ... أكرى إلى العراق ليخرج صبيحة الغد ، قال أبو عبيد : فرأيت النبي صلى الله عليه و سلم في رؤيائي وهو جالس .. فلما دنوت أدخل مع الناس مُنَعْتُ .. فقالوا لي : لا و الله لا تدخل و لا تسلّم عليه و أنت غدا خارجا إلى العراق .. فقلت لهم : إني لا أخرج إذا ، فأخذوا عهدي ، ثم خلّوا بيني و بين النبي صلى الله عليه و سلم فدخلت و سلّمت و صافحت .. فلا أصبح أبا عبيد فأسخّ كَرِيّه و سكن مكة حتى توفي بها و دفن فيها ... »⁶⁹⁵ .

ويلحظ عمق انتماء أبي عبيد السني في جملة العلوم التي اضطلع بها تعلمًا و تعليمًا و التي رغم سعتها و تنوعها إلا أنها ظلت منحصرة في علوم " البيان " ؛ العلوم التي اصطلح عليها بالإسلامية في مقابل العلوم الدخيلة المتسرب جلها من مشروع الترجمة ، حيث غدا رأسا و علما من أعلام أهل السنة و مرجعية معتمدة ، مشهودا لها بالتمكن و الاستطاعة العلمية حتى قيل فيه : «... لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل لكان عجبا ...»⁶⁹⁶ وقيل أيضا «... ثلاثة لن يُرى مثلهم أبدا ، تعجز النساء أن يلدن مثلهم ، أبا عبيد القاسم بن سلام ما مثله إلا جبل نفخ فيه روح ...»⁶⁹⁷ ، و استطاع بغزارة علمه و شساعة معارفه و نقاء مسلكيته أن يحصد ثناء زكيا من طرف كبار مشايخ عصره و العصور التي تلتها ، من

⁶⁹² سائد بكداش : المصدر نفسه ، ص ص : 33 — 34

⁶⁹³ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 507

⁶⁹⁴ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 4 ، ص : 62

⁶⁹⁵ ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص : 62

⁶⁹⁶ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 500

⁶⁹⁷ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 412

ذلك ما روي أن أحد الطلبة سأل أحمد سؤالاً فأحالته إلى أبي عبيد قائلاً : « ... إيتِ أبا عبيد فإن له بيّاناً لا تسمعه من غيره ، قال : فأتيت أبا عبيد فسألته فشَفَّاني جوابه و أخبرته بقول أحمد ، فقال : يا ابن أخي ذاك رجل من عُمَالِ الله ؛ نَشَرَ اللهُ رِداءَ عمله في الدنيا و ذَخَرَ له عنده الزُّلفى ...»⁶⁹⁸ ، و قال أحمد أيضاً فيه : « ... أبو عبيد أُسْتَاذٌ و هو مِمَّنْ يَزْدَادُ عندنا كُلَّ يَوْمٍ خَيْرًا ...»⁶⁹⁹ ، و إذ أُورِدَ هنا شهادات أحمد خصوصاً فلأن أحمد في هذه الفترة كان علم أعلام أهل السنة و سيد ساداتهم و المرجعية الكبيرة التي خضع لها الكبار و الصغار ، خاصة بعد الصمود و الصبر الذين تحلى بهما في المحنة عهدي المأمون و المعتصم ، و قد صدر ذات الثناء من آخرين كابن معين كبير المحدثين في وقته ، و قد سأله أحد الطلبة حول الكتابة عن أبي عبيد فتبسم و أجابه : « ... مثلي يُسأل عن أبي عبيد و السَّماع منه ، أبو عبيد يُسأل عن الناس ...»⁷⁰⁰ و قد أثنى عليه ابن طاهر في قوله : « ... كان الناس أربعة : ابن عباس في زمانه و الشعبي في زمانه و القاسم بن معن⁷⁰¹ في زمانه أبو عبيد في زمانه ...»⁷⁰² .

كان أبو عبيد يعتقد ما يعتقدُه أهل السنة و الجماعة في جميع القضايا التي انتصب فيها الخلاف بينهم و بين الفرق الأخرى ، حيث أن تعمقه في علوم النقل و الرواية ، و انحصار مصادر علمه ضمن رجال هذا الاتجاه جعله ينخرط بحماس في تقرير العقائد و الآراء التي انتهى أهل السنة إلى اعتمادها و ترسيمها . من ذلك رأيه في مسألة القرآن التي استطارت شهرتها أواخر عهد المأمون و المعتصم و الواثق ، حيث جاء تصويره و طرحه لها موافقاً لما قرره ابن حنبل ، إذ ذهب أبو عبيد إلى أن : « ... من قال القرآن مخلوق فهو شرٌّ مِمَّنْ قال إن الله ثالث ثلاثة ، لأنَّ أولئك يُثَبِّتُونَ شيئاً و هؤلاء لا يثَبِّتُونَ المَعْنَى ...»⁷⁰³ ، و ورد سؤال في ذات المسألة : « ... ما تقول فيمن قال القرآن مخلوق ؟ قال : هذا رجل يُعَلِّمُ و يقال له : إن هذا كُفْرٌ ، فإن رَجَعَ و إلَّا ضُرِبَتْ عنقه ...» و أصدر فتواه : « ... من قال القرآن مخلوق فقد إِفْتَرَى على الله عز و جل و قال عَلَيْهِ ما لم تَقُلْهُ اليهود و النصارى

⁶⁹⁸ ابن الجوزي : المناقب ، ص : 116

⁶⁹⁹ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 414

⁷⁰⁰ المصدر نفسه : نفس الصفحة

⁷⁰¹ سبقَت ترجمته في بداية الفصل

⁷⁰² الخطيب البغدادي : المصدر نفسه ، ج 12 ، ص : 411

⁷⁰³ سائد بكداش : المرجع السابق ، ص : 90

...»⁷⁰⁴، و يرى أن ما ثبت من صفات الله فسبيلها الإيمان بها و عدم الخوض في تفسيرها لأنها مما استأثر الله بعلمه و لا تقاس على صفات المخلوقين : « ... هذه الأحاديث صِحاح حَمَلَهَا أصحاب الحديث و الفقهاء بَعْضُهُمْ عن بَعْض و هي عندنا حق لا شك فيها و لكن إذا قِيلَ كيف يضحك ؟ و كيف وضع قدمه ؟ قلنا : لا نَفَسَرُ هذا و لا سَمِعْنَا أحدا يفسره ...»⁷⁰⁵.

ويذهب في مسألة تفضيل الصحابة إلى أن أبا بكر أفضلهم ثم عمر ثم عثمان فعلي و يحكي عن نفسه أنه فعل فعلتين يرجو بهما من الله الجنة و ذلك في لقائه مع المحدث الكبير يحيى بن القطان بالبصرة ، و الذي كان يرى تفضيل علي على عثمان : « ... فقلت : معي شاهدان من أهل بدر .. أنت حدثتنا .. عن النزال بن سبره قال : خَطَبَنَا ابن مسعود فقال : أَمَرْنَا خير من بقي و لم نَأَلُ ، قال : و من الآخر ؟ قلت : .. عن عبد الرحمن بن عوف قال : شاورت المهاجرين و الأولين فلم أَرِ أحدا يَعْدِلُ بعثمان . قال : فترك قوله و قال : أبو بكر و عمر و عثمان ... »⁷⁰⁶. و النص صريح في هذا الأمر .

أما في مسألة الإيمان فقد أثبت أنه يزيد و ينقص خلاف المرجئة و غيرهم و يرى أن الذنوب و المعاصي لا تزيل إيماننا و لا توجب كفرا ، خلاف الخوارج . و قد روي عنه قوله : « ... عَاشَرْتُ الناس و كَلَّمْتُ أهل الكلام فما رأيت أَوْسَخَ و سَخَا و لا أَقْدَرَ و لا أضعف حُجَّة و لا أحق من الرفضة ، و لقد وليت قضاء الثُغُور فنَفَيْتُ منهم ثلاثة رجال جَهَمِيَّين و رافضيًا و قلت : مثلكم لا يُسَاكِنُ أَهْلُ الثُّغُور و أخرجتهم ... »⁷⁰⁷.

علاقته بالدولة :

هذا و لم أجد له فيما حصلت عليه من نصوص أي حديث له في قضايا السياسة و مسائل العلاقات مع الدولة و نوازل الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و إن كانت مسلكيته مع آل هرثمة و آل طاهر في قبوله تأديب أولادهم و العمل لهم و الاشتغال تحت حمايتهم و توليه القضاء ما يمكننا من مقارنة تصوراته في هذه الأمور ، إذ يبدو أنه لم يجنح لذات

⁷⁰⁴ المرجع نفسه : نفس الصفحة

⁷⁰⁵ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 505

⁷⁰⁶ الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 409

⁷⁰⁷ الذهبي : السير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص : 504

التشدد والإنحياش عن دوائر السلطة الذي سلكه ابن حنبل رغم الصداقة القوية بينهما و الاحترام الكبير الذي يكنه كل منهما للآخر، هذا و لم أعثر على أي نص أو خبر يشير إلى أي علاقة ما مع أي خليفة من الخلفاء الذين عاصروهم ، رغم شهرته و عظيم مكانته ؛ خاصة في عهد المأمون والغريب أنه كان في هذه الفترة ملازماً لابن طاهر الأمر الذي كان يسهل عليه لقاء المأمون والانخراط في سلك حاشيته إذا شاء ، مع ما عرف عن المأمون من شدة تحري و تنقيب عن المتميزين الراسخين من بين علماء دولته يزين بهم مجلسه و يغني بهم معارفه .

والمثير للاهتمام نجاته من طائلة الامتحان الذي عصف بأهل السنة أواخر عهد المأمون والمعتصم و الواثق رغم شهرته و ذبوع صيته و علاقاته القوية بابن حنبل ، و ربما كان لصلته بآل طاهر دور في تجنبه مشقة المساءلة نظراً للمكانة الجليلة التي كان يحتلها ابن طاهر في قلب المأمون و في دولته كذلك الرأي الجيد الذي كان يحمله لأبي عبيد و الود العميق الذي كان يحضه إياه .

إنّ لقد رضي أبو عبيد أن يجالس بعضاً من رجال الدولة و يؤاكلهم و يشاربهم و يزين مجالسهم و يقبل عطاياهم و يتلقى رضاهم و سخطهم ، بله أن يصير بعلمه و حذقه وحسن تأدبه أشبه بسلعة نفيسة يتهاداها الولاة كما سيأتي ، الأمر الذي لا يرضاه أمثال الثوري أو ابن المبارك أو الفضيل أو أحمد صديقه . لكن و مع كل هذا فقد ظل محتفظاً بوقاره ، متمسكاً بهيبة العلم ، ملتزماً بما يلتزم به العالم الذي يحترم علمه .

جاء في إحدى الروايات أن طاهر بن عبد الله بن طاهر قدم من خراسان وهو حدث في حياة أبيه يريد الحج فنزل في دار إسحاق بن إبراهيم ، فوجه إسحاق إلى العلماء فأحضرهم ليراهم طاهر و يقرأ عليهم ، فحضر أصحاب الحديث و الفقه و وجه إلى أبي عبيد في الحضور فأبى أن يحضر و قال : العلم يُقصد ، فغضب إسحاق من قوله ، و كان عبد الله بن طاهر يجري له في الشهر ألفي درهم فقطع إسحاق عنه ما كان يعطيه إياه عبد الله و كتب إليه بالخبر ، فرد عليه عبد الله : « ... قد صدق أبو عبيد في قوله و قد أضَعَفْتُ له الرزق من أجل فضله فأعطيه فائتته و أدِرْ عليه بعد ذلك ما يستحقه ... »⁷⁰⁸.

⁷⁰⁸ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج 16 ، ص ص : 260 – 261

الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص 407

إذن لقد كان عبد الله يعرف لأبي عبيد فضله و يأبى أن يعرضه لما فيه هوانه رغم ما في القصة كلها من معنى الهوان ، الذي يصنعه عبودية الرزق لما يكون بيد الآخرين ، و بمثل هذه المواقف الطيبة التي حفظ بها عبد الله كرامة أبي عبيد كان هذا الأخير لا يفوت فرصة أن يرد له كرامته فكان : « ... إذا أَلَّفَ كتابا أهداه إلى عبد الله بن طاهر فيحْمِلُ إليه مالا خطيرا استحسانا لذلك ... »⁷⁰⁹ . و مضت هذه السنة بين أبي عبيد و عبد الله بن طاهر في جميع ما أَلَفَ و كتب ، و ظل عبد الله يحوط أبي عبيد برعايته و لطفه و كرمه ، و فلم يحوجه في أمر معاشه لأحد ، و لما كتب كتابه الكبير " غريب الحديث " عرضه عليه فاستحسنه و قال : « ... إن عقلا بعث صاحبه على عملٍ مثل هذا الكتاب لَحَقِيقُ أَلَّا يُخَوِّجَ إلى طلب المعاش فَأَجْرِي له عشرة آلاف درهم في كل شهر... »⁷¹⁰ .

ولم يرد في الآثار ما يطعن في سلوك أبي عبيد و لا في وقوعه فيما وقع فيه آخرون من تهافت على المتع و الملذات التي حفل بها العصر و عجت بها دور الخلفاء و الولاة و القادة و المتنفذين ، فلم يؤثر عنه تهتك و لا انهماكا و لا تلهفا في تحصيلها ، بل الذي وصل إلينا من أخبار حياته ؛ فيما يخص نشاطه اليومي يتلخص في الإنكباب على العلم و التصنيف ؛ حيث كان يقضي عامة نهاره فيه ، أما في الليل فكان : « ... يُقَسِّمُ الليل أثلاثا ، فيصلي ثلثه و ينام ثلثه و يَضَعُ الكتب ثلثه ... »⁷¹¹ . فلم يكن جمع المال من اهتماماته و لعل الخبر التالي يبين لنا ذلك ، فقد حدث أن بعث أبو دلف إلى عبد الله بن طاهر يستهدي أبا عبيد ليجالسه مدة شهرين فذهب أبو عبيد و أقام لديه هذه المدة ، و لما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها و قال : أنا في جنب رجل ما يحوجني إلى صلة غيره و لا آخذ ما فيه علي نقص و لما علم عبد الله بالحكاية أعطاه ثلاثين ألف دينار ، فقال أبو عبيد : أيها الأمير قد قبلتها ولكن قد أغْنَيْتَنِي بمعروفك و بَرِّكَ و كِفَايَتِكَ و قد رأيتُ أن أشتري بها سلاحا و خَيْلا و أُوجِّه به إلى الثَّغْرِ فيكون الثَّوَابُ متَوَفِّرا على الأمير ففعل ...⁷¹² .

⁷⁰⁹ المصدر نفسه : ص : 404

⁷¹⁰ ابن خلكان : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص : 61

الخطيب البغدادي : التاريخ ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص 406

⁷¹¹ الخطيب البغدادي : المصدر نفسه

⁷¹² الخطيب البغدادي : المصدر نفسه ، نفس الصفحة

وجاءت روايات أخرى تصف ورعه و شدة تدقيقه فيما يخالف الدين ؛ حيث كان إذا اضطر إلى الاستشهاد بشعر الهجاء في كتبه فانه كان يكتفي اسم المهجو بوزن اسمه خوفا من المشاركة في ذم أحد أو نشر و إشاعة ذكره⁷¹³ ، لذلك وصف بأنه كان : « ... موصوفا بالدين و حسن المذهب و السيرة الجميلة و الفضل البارع ... »⁷¹⁴ ، و بلغ إلى درجة أنه صار يضرب به المثل في الفضل و العلم و الزهد⁷¹⁵ .

هذه هي مسلكية أبي عبيد كما استطعت صياغتها من مختلف الروايات التي لا تقول الكثير في تفاصيل هذه العلاقة التي شاءها أبو عبيد مع بعض رجال الدولة ، و قد كان بإمكانه لو أراد أن يكون نسخة أخرى من أحمد ، لكنه لم يفعل ، و لم يُخف إعجابه بأحمد و الانحياز إليه حتى أيام المحنة العصبية فقد روي أنه كان : « ... يذهب و يجيء و يقول : أَيْضُرَبُ سَيِّدَنَا ؟ لا أَصبر ، أَيْضُرَبُ سَيِّدَنَا ؟ ... »⁷¹⁶ .

إن شخصية أبي عبيد كما تصورها الروايات شخصية هادئة معتدلة ، لا نجد فيها حدة أحمد و سفيان و لا انبساطية أبي يوسف ، لا يجد غضاضة في قبول ما تجود به يد ثابت الخزاعي أو عبد الله بن طاهر ، و يحب أن يرد الجميل بمثله فيحرص على إهداء كل ما يكتب إلى راعيه .

كان من الممكن تصنيف أبي عبيد في صنف المجاملين لولا اشتغاله بالقضاء مدة طويلة ولولا قبوله المطرد لما يمنحه إياه عبد الله بن طاهر في شكل راتب دائم ، و لولا طبيعة العلاقة القائمة على نوع من الالتزام و الارتباط بين الشخصين .

⁷¹³ سائد بكداش : المرجع السابق ، ص : 63

⁷¹⁴ عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 54 - 55

⁷¹⁵ سائد بكداش : المرجع السابق ، ص : 66

⁷¹⁶ ابن الجوزي : المناقب ، المصدر السابق ، ص : 336

خاتمة :

لقد حاولت في هذه الإمامة السريعة الإجابة عن الإشكاليات التي طرحتها كأسئلة في المقدمة و قادني البحث إلى نتائج عدة أهمها :

— أنه انعقد إجماع كاد يكون مطلقا لدى جميع أهل السنة و الجماعة على حضر الخروج على الحاكم و التمرد على سلطته و إن لم يكن وصوله إلى كرسي الخلافة من طريق شرعي كالثورة والانقلاب و التغلب ؛ بحيث سادت عبارة " من تحققت وطأته وجبت طاعته " و اخترقت جميع الأدبيات السنية التي تناولت المسألة السياسية ، أو ما أصطلح عليه " بالسياسة الشرعية " ، و معنى من تحققت وطأته هو حصول المتغلب على الاستيلاء الكلي على جهاز الدولة و الانتصار على مناوئيه ؛ بحيث لا يبقى ثمة قوة مكافئة تتنازعاه . فقد كانت عقيدة أهل السنة في هذه المسألة عقيدة واقعية ، و ما جعلها كذلك هو قصد رعاية المصلحة العامة للأمة و حقنا لدمائها ، و جمعا لشمْلِها .

إن التجربة التاريخية العنيفة التي عاشتها الأمة الإسلامية إثر مقتل الخليفة الثالث ؛ عثمان بن عفان دمغت الوعي العام بخطورة الانقسام و التشرذم ؛ إذ لم يكن من المتصور أن تلتقي السيوف التي أخضعت إمبراطوريتي فارس و الروم ، و أقامت الأمصار ، و حملت شعار الإسلام و مهمة " إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، و من جو الأديان إلى عدل الإسلام " أن تلتقي في موقعة الجمل بقصد الاقتتال الذاتي ، أو أن تجتمع على أرض صفين ليصفي كل طرف حساباته مع الطرف الآخر من خلال السيف و الدم . و الدافع الى كل تلك المأساة لم يكن خلا المسألة السياسية ، و لم يكن خلا الاختلاف حول من هو أحق بالخلافة بين من يعتقد أنه الخليفة الشرعي بمقتضى البيعة ؛ فهو يدافع عن حقه ضد الفئة الباغية ، و بين آخر يعلن المطالبة بدم الخليفة المقتول و يستر رغبات و أطماع في الخلافة . وكان التحكيم هو آخر وسيلة تحمل الأمل و تحقن الدماء ، ولم تنته تفاصيله و النقاشات حوله حتى خر علي صريعا ، و خلفه الحسن ابنه فيمضي في مشروع التنازل عن حقه لمعاوية سنة 40 هـ و توصف تلك السنة بعام الجماعة .

إذن لقد فرض الأمر الواقع إجراءات لحسم النزاع و تلافي الصراع لعل أهمها :

— مبدأ العمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

— العدول إلى التحكيم الذي يعني القابلية للتنازل .

وجرى كثيرا وصف الإمام علي بالميثالية و وصف معاوية بالواقعية ، و حفظت نصوص كثيرة تؤكد هذه التوصيفات قيلت على لسان علي و على لسان معاوية ، وكانت لحظة صفين هي لحظة اللقاء بين الميثالي و الواقعي ، وتم التمكين في النهاية لهذا الأخير . و به رسخ في لاوعي الفريق الذي ساند عملية التحكيم و هلل لعام الجماعة و وقف مع دولة معاوية يساندها و يدعمها ؛ رسخ فيه حس الواقعية و التعامل بمقتضى حساب القوى ، الأمر ربما الذي دفع أهل السنة إلى إدراج مسائل الإمامة في مباحث الشريعة ، خلاف الاتجاهات الأخرى كالخوارج و الشيعة اللذين رفعوا مطالبهم إلى مستوى القضية العقيدة و طرحوها للدراسة في سياق مباحث العقيدة . و الفرق كبير بين ما يدرج في مباحث الشريعة التي تهتم بتنظيم الحياة العملية الواقعية ، والتي تتسم بقابليتها للاجتهد و الخطأ و مرونتها للتغيير و اعتبار الأعراف وخضوعها للمصلحة ، و بين ما يدرج في مباحث العقيدة ؛ حيث المسائل تدور حول الكفر و الإيمان .

لقد جرت هذه الاعتبارات لدى أهل السنة إلى السكوت عن الحركة اللاشرعية التي اتخذها معاوية ؛ لما أسند الخلافة إلى ابنه يزيد متجاوزا الثوابت الشرعية في عملية اختيارا لخليفة . ثم جاءت مأساة كربلاء و فشل القراء بدير الجماجم لتقضي على جميع محاولات تغيير ثوابت الدولة الحديثة ، و لتحقيق الإجماع العام لدى أهل السنة حول حضر الخروج و الثورة و لتعمق الحس الواقعي الذي أفضى إلى السكوت عن اقتراحات كثيرة كان يقوم بها جهاز الدولة الأموي.

— لقد قام العباسيون و العلويون بحركتهم الانقلابية في ظل هذه القناعة لدى أهل السنة و تمكن العباسيون من إدارة دفة الخلافة إلى جهتهم و استأنفوا مطاردة العلويين على مسمع و مرأى من أهل السنة دون أن تصدر أي إدانة جادة منهم ؛ خلا المساندة المعنوية التي قام بها أبو حنيفة بوصفه كوفي يتغلغل فيه هوى الإمام علي و خلا المساندة غير الواضحة التي أداها الإمام مالك ؛ والتي هي محل شك في وقوعها . و قد حصد أبو حنيفة جراء مساندته استياء كبار فقهاء السنة كالأوزاعي و جرت عليه أحكاما قاسية تمس مصداقيته السنية .

لقد توطن في الوعي السني أمران :

— التمسك النظري بالأساليب الشرعية في مسألة الإمامة كما تحققت في ظل الخلافة الراشدة و هي الشورى و العدل في القضية و القسمة بالسوية .

— اعتبار الأمر الواقع و الخضوع لمقتضيات رعاية المصلحة العامة .

و بين التمسك بالثوابت الشرعية نظريا و التسليم بالأمر الواقع عمليا انقسم رجالا هذا الاتجاه ، و توزعوا فيما يخص مسألة العمل للسلطان و التعامل معه إلى المواقف الثلاثة التي سبق عرضها و شرحها . و لعلنا لا نعدو الصواب إذا وصفنا طبيعة المسلكية السنية هذه بالحركة المتوترة المتراوحة بين قطبي : النظري الميثالي المبدئي و الواقعي المصلحي ، و بقدر الاقتراب من أحد هذين القطبين و التزامه كانت تتم صناعة المواقف .

— لقد انتهى الاستقراء في الروايات و الأخبار و الوقائع إلى تمييز ثلاثة ملامح للمواقف التي اتخذها رجال أهل السنة من الفقهاء فيما يخص العمل للدولة و العلاقة مع رجالها ، و قد وصفتها تباعا بالمفاصلة و المجاملة و المخاللة ، و تمت بلورتها و تمايزها من خلال آلية الحركة المتوترة بين القطبين ، فقد تحقق موقف المفاصلة من خلال الانحياز الكلي و التام للمبدأ الميثالي على مستوى السلوك الشخصي الفردي مع الاحتفاظ بمبدأ رعاية المصلحة العامة و إقرار شرعية الحكم العباسي على صعيد الفتوى ، و رأينا كيف كان أبو حنيفة و الأوزاعي و سفيان الثوري و أحمد بن حنبل يتحاشون أي لقاء برجال الدولة و يتملصون من أي مسؤولية قد يلقيها هؤلاء على إعتاقهم و قد كانت هذه المسلكية مفهومة من طرف الدولة كحالة معارضة صامتة تم مقابلتها بالعنف أحيانا كما لاحظنا في حالة أبي حنيفة و الثوري ، أو بالمهادنة و المسالمة أحيانا أخرى كما تم عرضه في حال الأوزاعي و أحمد .

و جاء موقف المجاملة محكوما بمحاولة إحداث التوازن بين القطبين : الميثالي و الواقعي و محاولة إمساك العصا من الوسط ، و تحقيق المعادلة الصعبة التي تجمع بين إرضاء الديني و عدم إغضاب السلطان ، و تم ذلك من خلال التنازل المعنوي الذي تجسد في طابع الود الممزوج بالخوف والإشفاق على النفس ، و تمظهر في القبول بما كانت تجود به يد الخلافة من خيرات بدوافع عدة لعل أهمها : حالة الفقر و العوز التي كان يعيش فيها بعضهم ، أو درءا لغضب السلطان واستيائه ؛ حيث كان بعضهم يقوم بتوزيعها فور خروجه من البلاط على المحتاجين و الفقراء كالذي صدر من الشافعي . و كان هذا مما يسر

السلطان و يعجبه ؛ بما استحلل الفقيه لقبول الهبات من السلطان يعني استطابه لها و إشارة لحليتها ، و من ثمة مباركة لمسلكيته ضمينا ، إن العطاء و الأخذ حالة استلاب تحدث للآخذ لكن توقف هذا الفريق عند حالة الود و المجاملة دون الدخول الانخراط التام في جهاز الدولة و العمل لها ؛ بحكم صعوبة الاحتفاظ بمقتضيات الشريعة في واقع لا يخلو من فساد وانحراف و فتن هم في غنى عنها .

أما الفريق الآخر الذي استحق نعت **المخاللة** ؛ فهي الفئة من الفقهاء التي التزمت القطب العملي المصلحي ، و ليس غريبا أن يكون أهل الرأي في البداية هم أكثر من قام بهذه المبادرة لأن الرأي يقول بعدم منطقية تجنب الفقيه التعامل مع دولة هو من يمنحها الشرعية ، و مضى هذا الفريق على هذا النهج محققا المضمون الذي أشار إليه معاوية في خطابه لأهل المدينة : " المؤاكلة الحسنة و المشاركة الجميلة " . إضافة إلى الخدمات التي يقدمونها للمجتمع المسلم الذي تحكمه بالضرورة قواعد و أحكام الشريعة .

و هنا في هذا الصدد علينا الإقرار بحقيقة تعضدها الأخبار و الروايات ؛ مفادها أنه رغم رضا هذا الفريق بالانخراط الكلي في العمل للدولة و مصافاتها الود و الانتفاع بخيرات ما يجيبه الحكم ؛ إلا أن بذرة قلق و شك و توجس ظلت تعتمل في بواطن بعضهم ؛ شيء من تبكيت الضمير و عدم الرضا عن النفس و التي علتها الالتقاء و الاحتكاك اليومي المباشر مع بقوى الفساد داخل السلطة أو خارجها ، و الضغط الذي تمارسه القوة أحيانا في سياق النزاع على الأملاك والأرزاق و الثروات ، و محاولات بعض الخلفاء و المتنفذين الضغط على بعض من هؤلاء الفقهاء لاستصدار فتاوى و أقضية غير شرعية . و أمر آخر مهم ؛ و هو ضغط الثقافة التي تلقاها جميع هؤلاء في ذلك العصر ؛ و هي ثقافة حافلة بمعاني الزهد و الورع و الصبر و التوقي من فتنة الدنيا و التي يقول "إن على أبواب السلاطين فتنا كمبارك الإبل" و حافلة كذلك بنماذج كثيرة من الأئمة الذين قاوموا شهوة الرياسة وما يتيحها الاقتراب من أبواب السلطان ، و استحقوا بذلك كل نعوت التبجيل و التكريم ، و ليست نهاية أبي حنيفة مسموما في أحد سجون بغداد — إذا صحت الرواية — ببعيدة عن ذاكرة تلميذه أبي يوسف قاضي القضاة .

لكن كما قال شريك بن عبد الله في أحد حواراته مع سفيان الثوري : لا بد للناس من قاضي فما دامت الأمة مسلمة فلا بد من القضاء و ما تابعه ، و لا بد للقضاء من قاضي يليه

، و لا بد للدولة أن تجد هذا القاضي و توظفه و ترتب له ما يكفيه لمعيشته ، بكل ما في هذه الوضعية من معنى التوظيف و الخدمة و الامتھان . لقد حدث أن اشتغل بعض الفقهاء في القضاء من دون أن يأخذوا أجرا ، أو دون استعمال هذا الأجر في أغراضهم الشخصية ، و كان هذا السلوك علامة على حد ما من المقاومة ؛ مقاومة الاستلاب و التوظيف بحسبان مهمتهم التوقيع عن رب العالمين، و الوكالة و النيابة عن صاحب الشريعة في الأمة ، لكن لم يكن كلهم كذلك .

لقد الفقهاء في هذا العصر الذي ندرسه هم لسان الدين ؛ سواء داخل الدولة و الممثل بجهاز القضاء أو خارجها ؛ في أوساط المجتمع و بين الناس ، و كان كل من المجاملين و المخاللين والمفاصلين يملكون قوة تمثيل الدين و الخطاب باسمه ، و إدارة الشؤون العامة والخاصة بمقتضى توجيهاته ، الأمر الذي ينحسر في القرون اللاحقة ؛ حيث يتقهقر الدور الريادي للفقهاء إلى مجرد موظفين للدولة ممن استحب الاقتراب منها.

فهارس البحث

فهرس الآيات القرآنية

الآيات		الصفحة
ولمن خاف مقام ربه جنتان	الآية 46 - سورة الرحمن	112
فلولا نفر من كل فرقة	الآية 122- سورة التوبة	40
الرحمن على العرش استوى	الآية 5 - سورة طه	98
و تقطعت بهم الأسباب	الآية 166 - سورة البقرة	53

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
من سن سنة حسنة	29
من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين	40

فهرس الشعر

الأبيات	البحر	الصفحة
الأمر يا عمرو بالمعروف نافلة.....	البحر البسيط	132
أنى يكون و ليس ذاك بكائن.....	البحر الكامل	6
فان كان الذي قد قلت حقا.....	البحر الوافر	98
الله يدفع بالسلطان معضلة.....	البحر البسيط	

72	البحر البسيط	نام القضاة عن الأنام.....
98	البحر الطويل	تحرز سفيان و فر بدينه.....
114		

الحرف

أ

إبراهيم الحربي : ص : 55

إبراهيم بن المهدي : ص : 14

إبراهيم بن الوليد : ص : 114

إبراهيم بن موسى : ص : 23

إبراهيم النخعي : ص : 42

ابن أبي ذئب : ص : 7 ، 53

ابن أبي ليلى : 131 ، 132 ، 152

ابن إدريس : ص : 117 ، 140

ابن جريج : ص : 116

ابن خلكان : ص : 64

ابن كثير : ص : 70 ، 67

ابن الكلبي : ص : 78

ابن المبارك : ص : 53 ، 71 ، 72 ، 107 ، 116 ، 139 ، 151 ، 161

ابن المقفع : ص : 8 ، 154

ابن السماك : ص : 92 ، 94 ، 95 ، 150

ابن سيرين : 139

ابن شهاب الزهري : 45 ، 48 ، 105 ، 106 ، 115 ، 116

ابن خلدون : ص : 26 ، 28

ابن سعد : ص : 108

أبو أمية : ص : 146

أبو إسحاق الفزاري : ص : 63 ، 117

أبو البختري : ص : 136

أبو حنيفة : ص : 7 ، 42 ، 54 ، 55 ، 56 ، 58 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 63 ، 64 ، 87 ،
120 ، 122 ، 124 ، 133 ، 148 ، 150 ، 152 ، 153

أبو دلف : ص : 162

أبو زرعة : ص : 69 ، 70

أبو معاوية الضرير : ص : 95

أبو مسلم الخراساني : 3 ، 5 ، 8 ، 20 ، 23 ، 25 ، 60

أبو نواس : ص : 28

أبو العباس السفاح : ص : 5 ، 26

أبو عبيد القاسم بن سلام : ص : 89 ، 156 ، 158 ، 159 ، 162

أبو العتاهية : ص : 26

أبو سلمة الخلال : ص : 4 ، 5 ، 7

أبو يعقوب البويطي : ص : 124

أبو يوسف القاضي : 42 ، 101 ، 117 ، 127 ، 136 ، 137 ، 147 ، 148 ، 149 ، 150 ،
151 ، 153 ، 154 ، 155 ، 156 ، 157 ، 159

أحمد بن حنبل : ص : 16 ، 52 ، 69 ، 75 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84 ،
85 ، 86 ، 88 ، 89 ، 110 ، 118 ، 123 ، 125 ، 156 ، 158 ، 161 ، 162 ، 163

أحمد بن نصر الخزاعي : ص : 56

الأمين : ص : 11 ، 14 ، 15 ، 78 ، 80 ، 86

الأوزاعي : ص : 7 ، 59 ، 66 ، 67 ، 68 ، 69 ، 70 ، 71 ، 72 ، 73 ، 110

الأعمش : 116 ، 146

أشهب : ص : 109

ب

بشر بن الوليد : ص : 135 ، 149

بهر بن أسد : ص : 76

ج

الجصاص : ص : 59

جعفر البرمكي : ص : 27 ، 28

د

داود بن علي : ص : 5

داود الطائي : ص : 154

هـ

الهادي : 9 ، 10 ، 12 ، 21 ، 79 ، 114 ، 152

هرثمة بن أعين : 159

هشام بن عبد الملك : 61 ، 62 ، 114

و

الواثق : 18 ، 77 ، 86 ، 87 ، 135 ، 159 ، 160

الوليد بن عبد الملك : 67 ، 114

ز

زفر بن الهذيل : ص : 153

زيد بن علي : ص : 61

ح

حماد بن زيد : ص : 115

حماد بن سليمان : ص : 42 ، 62

حماد بن سلمة : 53

حمزة أذرك : ص : 24

الحصين الخارجي : ص : 24

الحسن البصري : ص : 114 ، 126

الحسن بن علي : ص : 21 ، 26

ي

يحيى بن أكثم : 82

يحيى بن معين : 114 ، 149 ، 157

يحيى بن عبد الله : 21 ، 22

يزيد بن هارون : 82 ، 151

يزيد بن الوليد : 114

اليعقوبي : 27

ل

الليث بن سعد : ص : 46 ، 92 ، 105 ، 106 ، 107 ، 108 ، 109 ، 110 ، 111 ، 112 ،
114

م

مالك بن أنس : 3 ، 8 ، 44 ، 46 ، 64 ، 92 ، 93 ، 95 ، 96 ، 97 ، 98 ، 99 ، 100 ، 101 ،
102 ، 103 ، 104 ، 105 ، 106 ، 107 ، 108 ، 110 ، 116 ، 121 ، 124 ،

المأمون : ص : 11 ، 12 ، 14 ، 15 ، 16 ، 17 ، 18 ، 23 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 81 ،
82 ، 83 ، 84 ، 86 ، 87 ، 134 ، 158 ، 159 ، 160 ،

المتوكل : ص : 18 ، 19 ، 23 ، 77 ، 79 ، 86 ، 87 ، 88 ، 135

محمد بن إسحاق : ص : 116

محمد بن إبراهيم : ص : 23

محمد بن الحسن : 42 ، 46 ، 58 ، 122 ، 125 ، 149

محمد بن علي : ص : 2 ، 3

محمد بن القاسم : ص : 23

محمد بن سليمان : ص : 27

مروان بن محمد : 4 ، 67 ، 110 ، 124

المعتصم : 17 ، 18 ، 23 ، 77 ، 78 ، 84 ، 85 ، 86 ، 87 ، 135 ، 158 ، 159 ، 160 ،

المقنع : ص : 9

المسعودي : ص : 4 ، 13 ، 22 ، 27 ، 82

س

سليمان بن عبد الملك : 2 ، 67 ، 117

سعيد بن المسيب : 45

سفيان الثوري : 50 ، 51 ، 53 ، 116 ، 117 ، 127 ، 144 ، 161

سفيان بن عيينة : 53 ، 92 ، 103 ، 114 ، 115 ، 116 ، 117 ، 118 ، 140

ع

عائشة : 45

عبد الرحمن بن إسحاق : ص : 88

عبد الرزاق الصنعاني : ص : 80

عبد الله بن الحسن : 4 ، 5 ، 21 ، 99

عبد الله بن مسعود : 42

عبد الله بن عباس : 45

عبد الله بن علي : 73

عبد الله بن عمر: 34 ، 45 ، 98 ، 105

عبد الله بن عمرو : 34

عبد الملك بن مروان : 67

عبد السلام اليشكري : 9

عثمان بن عفان : 11 ، 19 ، 36 ، 41 ، 78 ، 98 ، 110 ، 140 ، 160

عروة بن الزبير: 45

علي : 4 ، 30 ، 31 ، 32 ، 33 ، 34 ، 43 ، 45 ، 83 ، 140 ، 141 ، 146

علي بن موسى الرضا : 14

علي بن عيسى : 23 ، 24 ، 25 ، 28

عمر: 30 ، 41 ، 42 ، 45 ، 98 ، 140 ، 160

عمر بن عبد العزيز: 99

عمرو بن دينار: 7 ، 115 ، 116

عمرو بن العاص : 124

عمرو بن عبيد : 7 ، 132

ف

الفضل بن يحيى : 22

الفضيل بن عياض : 78 ، 116 ، 117 ، 119 ، 126 ، 161

ق

قتادة : 116

ر

رافع بن نصر : 25

ش

الشافعي : 46 ، 78 ، 79 ، 120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 124 ، 125 ، 126 ، 127 ،
128

شريك بن عبد الله : 52 ، 103 ، 116 ، 134 ، 138 ، 139 ، 140 ، 141 ، 142 ، 143 ،
144 ، 145 ، 146 ، 147 ،

شعبة بن الحجاج : 94 ، 115

الشعبي : 55 ، 147 ، 159

ث

ثروان : ص : 25

خ

خالد الدريوش : ص : 16

ذ

الذهبي : ص : 55 ، 56 ، 66 ، 114 ، 131 ، 135

ذو النفس الزكية : ص : 6 ، 7 ، 21 ، 62 ، 63 ، 64

فهرس الأماكن

أ

أرمينية : 20

أصفهان : 25

ب

بغداد : 11 ، 14 ، 15 ، 16 ، 18 ، 19 ، 22 ، 25 ، 27 ، 43 ، 63 ، 75 ، 76 ، 80 ،
81 ، 82 ، 83 ، 84 ، 86 ، 122 ، 123

بوشنج : 24

بعلبك : 66 ، 70

البصرة : 8 ، 21 ، 27 ، 63 ، 76 ، 94 ، 156 ، 159

ج

الجزيرة : 25 ، 30 ، 62 ، 76 ، 93

جرجان : 9 ، 22 ، 24

د

دمشق : 19 ، 36 ، 44 ، 66 ، 133

ح

الحجاز : 26 ، 45 ، 46 ، 53 ، 63 ، 97 ، 101 ، 105 ، 106 ، 116 ، 127

الحميمة : 2 ، 4

الحربية : 15 ، 16 ، 17

حمص : 20

ط

طرسوس : 84 ، 157

طبرستان : 22 ، 63

الديلم : 22

ك

الكناسة : 64

الكوفة : 3 ، 5 ، 8 ، 21 ، 42 ، 44 ، 45 ، 51 ، 54 ، 61 ، 62 ، 63 ، 64 ، 76 ، 114

، 131 ، 132 ، 134 ، 135 ، 138 ، 140 ، 142 ، 143 ، 146 ، 148 ، 156

الكرخ : 15

م

المدينة : 25 ، 63 ، 64 ، 68 ، 76 ، 80 ، 93 ، 95 ، 97 ، 98 ، 99 ، 101 ، 102 ،
103 ، 104 ، 105 ، 106 ، 107 ، 121 ، 154

مكة : 21 ، 26 ، 44 ، 46 ، 51 ، 52 ، 68 ، 76 ، 101 ، 103 ، 106 ، 114 ، 122 ،
126

الموصل : 20 ، 25

مصر : 8 ، 20 ، 25 ، 31 ، 43 ، 44 ، 45 ، 45 ، 54 ، 92 ، 105 ، 106 ، 107 ،
111 ، 112 ، 113 ، 120 ، 142 ، 147 ، 157

المتوكلية : 19

ن

نجران : 121

ع

العراق : 3 ، 5 ، 25 ، 42 ، 46 ، 83 ، 156 ، 158

ر

الرقعة : 20 ، 72 ، 83 ، 156

الري : 63

خ

خراسان : 3 ، 4 ، 5 ، 8 ، 9 ، 16 ، 20 ، 21 ، 22 ، 23 ، 26 ، 60 ، 62 ، 138 ،
156 ، 156 ، 157 ، 161

غ

غزة : 120 ، 127

فهرس المذاهب و الفرق

ا

الأشعرية - الأشاعرة : 84

الإباضية : 36

أهل الحديث : 36 ، 106 ، 150

أهل السنة : 7 ، 12 ، 14 ، 19 ، 29 ، 35 ، 37 ، 38 ، 39 ، 45 ، 46 ن 71 ، 77 ، 81 ،
84 ، 87 ، 88 ، 97 ، 98 ، 106 ، 118 ، 124 ، 132 ، 139 ، 156 ، 158 ، 159 ،
160

أهل الرأي : 41 ، 42 ، 44 ، 45 ، 46 ، 49 ، 81 ، 100 ، 104 ، 106 ، 114 ، 122 ،
123 ، 124

ب

الباطنية : 23 ، 24 ، 26

ج

الجهمية : 76 ، 87

الجبرية : 38

ز

الزندقة - الزنادقة : 9 ، 12 ، 22

الزيدية : 36

ح

الحشوية : 12

الحنابلة : 84

م

المعتزلة : 7 ، 12 ، 36 ، 38 ، 76 ، 84 ، 87

ق

القدرية : 35 ، 38

ش

الشيعة : 1 ، 76 ، 84 ، 91 ، 140

خ

الخرمية : 25

الخوارج : 1 ، 19 ، 23 ، 24 ، 32 ، 36 ، 38 ، 43 ، 76 ، 91

قائمة المصادر :

— القرآن الكريم برواية ورش

— أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري : المصون في الأدب ، تـ عبد السلام هارون ، ط 2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، سنة 1982

— أبو إسحاق الشيرازي : طبقات الفقهاء ، تـ إحسان عباس ، ط 2 ، دار الرائد العربي ، بيروت ، سنة 1981

— أبو بكر الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية ، تـ إبراهيم حمدي و آخرون ، د ط ، المكتبة العامة ، المدينة المنورة د ت

: صحيح الفقيه و المتفقه ، تعليق عادل العزازي ، ط 1 ، دار الوطن ، الرياض ، سنة 1997

: تاريخ بغداد ، د ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت ج 14 ، 333

— أبو بكر الخلال : السنة ، تـ عطية الزهراني ، ط 1 ، دار الراية ، الرياض ، سنة 1410هـ

: كتاب الورع ، تـ محمد السيد زغلول ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1988

— أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : كتاب الزهد الكبير ، تـ عامر حيدر ، ط 3 ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، سنة 1996

: شعب الإيمان ، تـ محمد زغلول ، ط 1 ، سنة 1410 هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت

: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب

الحديث ، تـ أحمد عصام الكاتب دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة 1401 هـ

: مناقب الشافعي ، تـ السيد أحمد صفر ، ط 1 ، ج 2 ، مكتبة دار

التراث ، سنة 1970

— أبو بكر بن العربي : العواصم من القواصم ، تـ عمار طالبي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر د ت

— أبو جعفر أحمد الطحاوي : العقيدة الطحاوية ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص ص

— أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني : سنن أبي داود ، ت محمد محي الدين عبد الحميد ، د ط ، ج 4 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د ت

— أبو حامد محمد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ط 1 ، ج 1 ، دار القلم ، بيروت ، د ت

: قواعد العقائد ، ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993 ، ص :

21

— أبو حنيفة الدينوري : الأخبار الطوال ، ت عبد المنعم عامر و آخرون ، د ط ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د ت

— أبو الحسن الأشعري : الإبانة عن أصول الديانة : د ط ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، د ت

— أبو الحسن البلاذري : فتوح البلدان ، ت رضوان محمد رضوان ، د ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1778

— أبو الحسن الماوردي : أدب الدين و الدنيا ، ت محمد كريم راجح ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986

: الأحكام السلطانية و الولايات الدينية ، ت خالد السبع ، ط 3 ، دار الكتاب

العربي ، بيروت ، سنة 1999

— أبو الحسن علي بن محمد ، بن الأثير : الكامل في التاريخ ، ط 4 ، ج 5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1983

— أبو الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب و معادن الجواهر ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر ، سنة 1989

— أبو حفص عمر بن محمد النسفي : العقائد النسفية ، ، ط 1 ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، 1993

— أبو سعد منصور بن الحسين الأبي : نثر الدر ، ت عثمان بوغانمي ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، سنة 1983

— أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ت شعيب الأرنؤوط و آخرون ، ط 9 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة 1413

: ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تـ علي معوض و آخرون ، ط 1 ،

دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1995

— أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، تـ قاسم الشماخي ، ط 1 ، ج 3 ، دار
القلم ، بيروت ، سنة 1987

: التاريخ الكبير ، تـ السيد هاشم الندوي ، د ط ، دار الفكر ،

بيروت ، د ت

— أبو عبد الله محمد الحكيم الترمذي : نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ، د ط ، دار صادر ،
بيروت ، د ت

— أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ط 2 ، دار
الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1996

— أبو عمر يوسف بن عبد البر : جامع بيان العلم و فضله و ما ينبغي في روايته و حمله ، د ط ، ج 1
، دار الكتب العلمية بيروت ، د ت

— أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، د ط ج 3 ، دار الفكر ، بيروت ، د ت ،
ص: 174

— أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : المحاسن و الأضداد ، ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، سنة 1997

— أبو محمد حسن بن علي البر بهاري : شرح السنة ، د ط ، دار الإمام مالك ، الجزائر ، سنة 2003

— أبو محمد عبد القادر القرشي : الجواهر المضوية في طبقات الحنفية ، د ط ، مير محمد كتب خانة ،
كاراتشي ، د ت

— أبو محمد عبد الله بن الحكم : عمر بن عبد العزيز ، د ط ، تـ أحمد عبيد ، دار الهدى ، مليلة ، سنة
1996

— أبو محمد علي بن حزم : الفصل في الملل والأهواء و النحل ، د ط ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د ت

— أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ، ط 4 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1405 هـ

— أبو نصر عبد الوهاب السبكي : طبقات الشافعية الكبرى

— أبو العباس أحمد بن تيمية : الخلافة و الملك ، تـ حماد سلامة ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، د

ت ،

: منهاج السنة النبوية ، تـ محمد رشاد سالم ، ط 1 ، مؤسسة قرطبة ،

بيروت ، ج 2 ، سنة 1406 هـ ، ص : 221

— أبو الفداء بن كثير الدمشقي : البداية و النهاية ، تـ علي معوض و آخرون ، ط 2 ، دار الكتب

العلمية ، بيروت ، سنة 1997

— أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم: الفهرست ، د ط ، دار المعرفة ، بيروت ، سنة 1978

— أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : صفة الصفوة ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط 3 ، ج 1 ، دار

الفكر، بيروت 1419 هـ 1998

: مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ط 2 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت

، سنة 1977

— أبو الفضل عياض بن موسى : ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب كمالك ، ات

أحمد بكير محمود ، د ط ، م 1 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د ت

— أبو القاسم جار الله الزمخشري : أساس البلاغة ، د ط ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة

2000

— أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحبيب : عقلاء المجانين ، تـ عمر الأسعد ، ط 1 ، دار النفائس ،

بيروت ، 1987

— ابن أبي زيد القيرواني : العقيدة الإسلامية التي ينشأ عليها الصغار ، تـ عبد الفاتح أبو غدة ، ط 3 ،

دار السلام ، مصر سنة 2001

— ابن رجب الحنبلي : ورثة الأنبياء ، تـ أشرف بن عبد المقصود ، د ط ، دار الشهاب ، الجزائر ، د

ت

— ابن عاصم الغرناطي : حقائق الأزاهر ، تـ عبد اللطيف عبد الحليم ، د ط ، المكتبة العصرية ،

بيروت ، سنة 1992 م

— ابن خلكان : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، ت احسان عباس ، د ط ، ج 4 ، دار صادر ،

بيروت ، سنة 1971

— ابن العبري غريغوريوس الملطي : مختصر تاريخ الدول ، د ط ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، سنة

1958

— ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تـ أحمد أمين و آخرون ، ج 4 ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة 1962

— إبراهيم بن محمد البيهقي : المحاسن و المساوىء ، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط ، مكتبة نهضة مصر القاهرة

— أحمد بن عبد الله العجلي الكوفي : معرفة الثقات ، تـ عبد العليم البستوي ، ط 1 ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، سنة 1985 — 1405

— أحمد بن يحيى المرتضى :منية و الأمل في شرح كتاب الملل والنحل ، تـ توما أرنولد ، د ط ، دار صادر بيروت ، سنة 1316 هـ

— أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، د ط ، ج 2 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1960

برهان الدين بن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، د ط ، دار المكتبة العلمية ، بيروت ، د ت

— جمال الدين بن نباتة المصري : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط ، دار الفكر العربي ، د مكان النشر ، د ت ،

— جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تـ محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ، مطبعة الفجالة الجديدة ، مصر ، سنة 1969

: المستظرف من أخبار الجواني ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، سنة 1991

: مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، ط 2 ، مطابع الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، سنة 1408 هـ

: طبقات الحفاظ ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1983

— زكريا بن محمد القزويني : آثار البلاد و أخبار العباد ، د ط ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة 1979

— ولي الله الدهلوي : الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، تـ عبد الفتاح أبو غدة ، ط 8 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1977

— حافظ الدين الكردي : مناقب أبي حنيفة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1401

— محي الدين بن عربي : محاضرة البرار و مسامرة الأخيار ، د ط ، دار الصادر ، بيروت ، د ت ، ج 1 ،

— محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية : اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة الجهمية ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1984

— محمد بن إسحاق الحاكم : شعار أصحاب الحديث ، تـ صبحي السامرائي ، دار الخلفاء الكويت ، ج : 1

— محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم و الملوك ، د ط ، ج 9 ، ، دار القاموس الحديث ، بيروت ، د ت

— محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : الملل والنحل ، تـ محمد سيد كيلاني ، د ط ، ج 1 ، دار المعرفة ، بيروت ، سنة 1982

— محمد بن خلف وكيع : أخبار القضاة ، د ط ، ج 3 ، عالم الكتب ، بيروت ، د ت

— مسلم بن الحجاج النيسابوري : صحيح مسلم ، ت محمد فؤاد عبد الباقي ، دط، ج 4 ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، د ت

— سهل بن هارون : كتاب النمر و الثعلب ، تـ عبد القادر المهيري ، د ط ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، سنة 197

— عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، د ط ، ج 1 ، المكتب التجاري للطباعة و النشر ، بيروت د ت

— عبد الوهاب الشعراني : الطبقات الكبرى ، ط 1 ، ج 1 ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر، سنة 1954

— عبد الله بن أحمد : السنة ، تـ محمد سعيد القحطاني ، ط 1 ، دار ابن القيم ، الدمام ، سنة 1406هـ

— عبد الله بن مسلم بن قتيبة : الإمامة و السياسة ، د ط ، تـ طه محمد الزيني ، دار المعرفة ، بيروت ، د ت

— عبد القادر الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق ، تـ عبد الكريم العجم ، ط 1 ، م 1 ، ج 1 ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1996

— عبد القاهر البغدادي : كتاب الملل و النحل ، تـ ألبير نصري نادر ، ط 2 ، دار المشرق ، بيروت ، د ت

— عبد الرحمن بن خلدون : العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، د ط ، م 3 ، ج 5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1981

: المقدمة ، ط 1 ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت ، سنة 2004

— الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء البلغاء ، ط 2 ، دار الجيل ، بيروت ، سنة 1986

— قائمة المراجع :

— أبو اليزيد أبو زيد العجمي : الفقهاء و بحوث العقيدة الإسلامية ، د ط ، دار الهداية ، القاهرة ، د ت

— أبو ريان محمد علي: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1976

— أبو غدة عبد الفتاح: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم و التحصيل ، ط 3 ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، بيروت ، سنة 1997

— إبراهيم بيضون : تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول من دولة عمر إلى دولة عبد الملك ، ط 2 دارا قرأ ، بيروت ، سنة 1986

— ابراهيم رحمانى : محاضرات في المدخل للتشريع الإسلامي ، ط 1 ، شركة مزوار الوادي — الجزائر ، سنة 2005

— أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ط 10 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج 1 ، د ت
— أحمد محمد الحوفي : تيارات ثقافية بين العرب و الفرس ، د ط ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د ت

— أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي و الأندلسي ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ت

— أحمد الشرباصي : الأئمة الأربعة ، د ط ، دار الجيل ، بيروت ، د ت

إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج ، ط 4 ، دار الشروق ، بيروت ، سنة 1982

— أحمد عبد الرزاق أحمد : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة 1999

- إسماعيل العربي : دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية و الفلكية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1994
- برنارد لويس : أصول الإسماعيلية و الفاطمية و القرمطية ، ط 1 ، دار الحداثة ، بيروت ، سنة 1980
- بشار قويدر : الإصلاح السياسي و الاجتماعي للدولة الإسلامية — من خلال رسالة الصحابة لابن المقفع ، د ط ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1990
- جبر محمود الفضيلات : القضاء في صدر الإسلام ، د ط شركة الشهاب ، الجزائر ، سنة 1987
- جورج طرابيشي : إشكاليات العقل العربي ، ط 2 ، دار الساقى ، بيروت ، سنة 2002
- دانيال دينيت : الجزية في الإسلام ، ت فوزي جاد الله ، د ط ، منشورات مكتبة الحياة ، د ت
- دوروتيا كرافولسكي : العرب و إيران ، ط 1 ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، سنة 1993
- دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ت محمد عبد الهادي أبو ريده ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، د ت
- ديلاسي أوليري : الفكر العربي و مكانته في التاريخ ، ت تمام حسان ، د ط ، عالم الكتب ، القاهرة ، د ت
- الهادي حمودة : الشعر الأموي في خراسان و البلاد الإيرانية ، د ط ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، سنة 1976
- وهبي سليمان الألباني : ممن الرحمن على التابعي أبي حنيفة النعمان ، ط 1 ، مكتبة الإمام أبي حنيفة ، بيروت ، سنة 1994
- زاهية قدورة : الشعوبية وأثرها الاجتماعي و السياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول ، ط 1 دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1972
- حامد حفني داود : تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ط 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر سنة 1993

- حسين أحمد أمين : دليل المسلم الحزين ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر ، د ت
- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني و الثقافي والاجتماعي ، ط 14 ، ج 2 دار الجيل ، بيروت سنة 1996
- حسن أحمد محمود و آخرون : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، د ط ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د ت
- حسني محمد غيطاس : الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ط 1 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة 1985
- طه جابر فياض العلواني : أدب الاختلاف في الإسلام : د ط ، دار الشهاب ، باتنة ، سنة 1985 :
- طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، سنة 1996
- ي . هل : الحضارة العربية ، ت إبراهيم العدوي ، د ط ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، د ت
- يوسف العش : محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ، د ط ، مطبعة فتي العرب ، دمشق ، سنة 1977
- يوسف فرحات : الفلسفة الإسلامية و أعلامها ، ط 1 ، الشركة الشرقية للمطبوعات ، د كان النشر ، سنة 1986
- يحي محمد بكوش : فقه الإمام جابر بن زيد ، ط 2 ، ج 1 ، دون ذكر دار النشر ، سنة 1988
- محمد إبراهيم الفيومي : الفرق الإسلامية و حق الأمة السياسي ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت ، سنة 1998
- محمد أمين غالب الطويل : تاريخ العلويين ، ط 4 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1981

— محمد أركون : تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، تـ هاشم صالح ، ط 3 ، لمركز الثقافي العربي ، المغرب ، سنة 1998

: الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد ، تـ هاشم صالح ، ط 3 ، دار الساقى ، المغرب ، سنة 1998

— محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول و الثاني بعد الهجرة ، ط 3 ، دار الفكر العربي ، مصر ، سنة 1966

— محمد بن زاهد الكوثري : تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة 1981

— محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية و الإدارية العائدة للعصر العباسي الأول ، ط 4 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة 1985

— محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د ت

— محمد مصطفى شلبي : أصول الفقه الإسلامي ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة 1978 ،

— محمد نصر مهنا : الفتوحات الإسلامية و العلاقات السياسية في آسيا ، د ط ، دار المعارف ، الإسكندرية ، سنة 1990 ،

— محمد عابد الجابري : المثقفون في الحضارة العربية ، ط 2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2000

: تكوين العقل العربي ، ط 2 ، دار الطليعة بيروت ، سنة 1985

: العقل السياسي العربي ؛ محدداته و تجلياته ، ط 6 ، دار النشر

المغربية ، المغرب ، 2003

— محمد عبد الحي محمد شعبان : صدر الإسلام و الدولة الأموية ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت ، سنة 1983 ،

— محمد عبد الغني حسن : دراسات في الأدب العربي و التاريخ ، د ط ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة ، د ت

— محمد بن علوي بن عباس : مالك بن أنس ، د ط ، مطابع الأزهر ، مصر ، سنة 1981

— محمد علي قطب : الأئمة الأربعة ، د ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، د ت

— محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ط 3 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، سنة 1988

— محمود شاکر : التاريخ الإسلامي ، ط 2 ، ج 5 ، الكتب الإسلامية ، بيروت ، سنة 1985

— مصطفى بيطام : مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1995
مصطفى الشكعة : الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة 1983

— مصطفى الشكعة : الإمام مالك بن أنس ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة 1983

— مروان الشعار : الأوزاعي إمام السلف ، ط 1 ، دار النفائس ، بيروت ، سنة 1992

— نبيلة حسن محمد : في تاريخ الدولة العباسية ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، سنة 1997

— سالم البهنساوي : الخلافة و الخلفاء الراشدون بين الشورى و الديمقراطية ، ط 1 ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، سنة 1991 ،
— عاطف شكري : الزندقة و الزنادقة ، د ط ، دار الفكر ، الأردن ، د ت

— عارف عبد الغني : نظم الاستخبارات عند العرب و المسلمين ، ط 1 ، دار الهدى ،
الجزائر ، سنة 1991

— عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ، ط 12 ، دار القلم للطباعة و النشر ، الكويت ،
سنة 1978

— عبد الملك علي الكليب : صفات التابعين ، ت اشرف بن عبد المقصود ، د ط ، دار
الشهاب ، الجزائر ، د ت

— عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الأول ، د ط ، ج 1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ،
سنة 1973 ،

— عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، ط 4 ، دار القلم ،
بيروت ، سنة 1980

— عبد الرحمن بدوي : من تاريخ الإلحاد في الإسلام ، ط 2 ، المؤسسة العربية للدراسات و
النشر ، بيروت ، 1980

— عبد الكريم الرديني : مباحث في تاريخ الحديث و مصطلحه ، د ط ، شركة شهاب ،
الجزائر ، د

— عبد العزيز البدري : الإسلام بين العلماء و الحكام ، د ط ، دار الأمة للنشر و التوزيع
الجزائر ، د ت

— عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للشعبوية : ط 3 ، دار الطليعة ، بيروت ،
1981 ،

— عبد الرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ، ط 3 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986

: خامس الخلفاء عر بن عبد العزيز ، ط 1 ، دار الكتاب

العربي ، بيروت ، سنة 1987

— علي مصطفى الغرابي : تاريخ الفرق الإسلامية ، د ط ، مطبعة محمد علي صبيح ،
القاهرة ، د ت

— عصام محمد شبارو : السلاطين في المشرق العربي ، د ط ، دار النهض العربية ،
بيروت ، سنة 1994

— الفضل شلق : الأمة و الدولة — جدليات الجماعة و السلطة في المجال العربي الإسلامي
— ، ط1 ، دار المنتخب ، بيروت سنة 1993

— صالح أحمد العلي : الإدارة في العهود الإسلامية الأولى ، ط 1 ، شركة المطبوعات
للتوزيع و النشر ، بيروت ، سنة 2001

— رضوان السيد : : الأمة و الجماعة و السلطة — دراسات في الفكر السياسي العربي
الإسلامي — ، ط 2 ، دار اقرأ ، بيروت ، سنة 1986

— شاكِر الفحام : الفرزدق ، د ط ، دار الفكر ، دمشق ، سنة 1977
— غالب عبد الكافي القرشي : أوليات الفاروق السياسية ، ط 1 ، دار الوفاء للطباعة و
النشر ، المنصورة ، سنة 1990

— المجالات و الدوريات :

— موسى لقبال : " الخلافة أساس الفكر السياسي و الحزبية في المجتمع الإسلامي في
عصوره الأولى " ، مجلة الدراسات التاريخية ، جامعة الجزائر ، العدد الرابع ، سنة 1988
— محمد حسين فضل الله : " موقع الفقيه في الدولة الإسلامية " ، مجلة المنطلق ، الإتحاد
اللبناني للطلبة المسلمين ، العدد 64 ، آذار 1990

— رضوان السيد : " السلطة و المعرفة في التاريخ العربي الإسلامي " ، مجلة دراسات
عربية ، دار الطليعة ، بيروت ، العدد 11 السنة 15 ، سبتمبر 1979 ،

— H.gibb: government and islam under the Early Abbasids,the
poltical collapse of islam, in L'elaboration del'islam, paris:Centers
detudes superiors specializes presses Universitaires de france , 1984